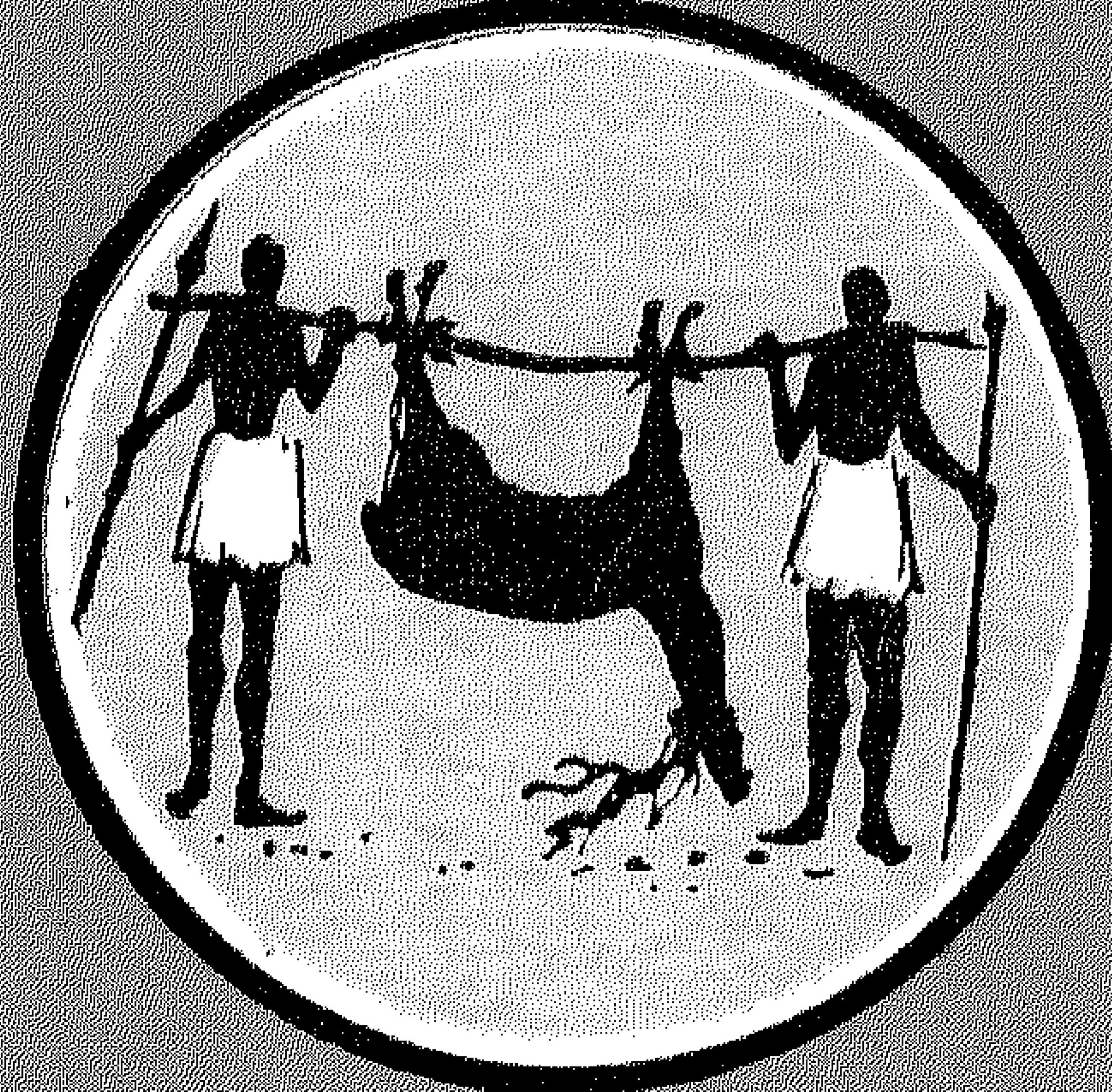
الإسلام
فى شرق أفريقيا



تأليف
سبنسر ترمنجهام

ترجمة وتعليق
محمد عاطف النواوى
السفير بوزارة الخارجية

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمود دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

الإسلام فى شرق أفريقيا

تأليف
سنبسر ترمنجهام

ترجمة وتعليق: محمد عاطف النواوى
راجعه : فؤاد محمد شبل

الطبعة الأولى ١٩٧٣

الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الإهـــداء

إلى أيّام بعيـدة مضت ... !

إلى تلك الأيام التى قضيتها فى شـرق أفريقيا ...

إلى البقعة الجميلة التى تركت فيها جزءًا من حيـاتى ... !

فإنه يستحيل على من يقيم هناك ، ألاّ يـتـرك وراءه

قطعـة عزيـزة من الذكريـات ! ...

محمد عاطف البرقوقى

عرض وتحليل

بقلم : محمد عاطف النواوى

عندما هبطت الطائرة التى كنت أستقلها ، فى مطار نيروبى عاصمة كينيا ، كانت الساعة تقترب من السابعة صباحاً من أحد أيام شهر مايو منذ حوالى عشرة أعوام . وكنت والطائرة تدرج على المهبط قبل أن تتوقف ، ما زلت أغالب الرعب الذى تملكنى منذ اللحظة التى شرعت فيها فى الهبوط وسط الضباب الكثيف ، فكلما نظرت من النافذة إلى جوارى ورأيت هذا الضباب يغلّف كل شىء ببياض شديد ويخفى وراءه الجبال والأرض والسماء ، كنت أشعر والطائرة تقترب من الأرض هابطة من ارتفاعها الهائل وسط هذا المجهول ، إن قلبى يقفز من صدرى يكاد يخرج منه ويسد حلقى ويخنقه . فأغمضت عينىّ واستسلمت لقدرى ولم أعد أنظر من النافذة أو أفكر فى شىء ، وقبعت فى مقعدى فى انتظار الجبل الذى سوف يبرز فجأة من بين الضباب ، فلا يراه الطيار ولا يحس به ولا باقترابه ، إلا بعد أن يكون قد ارتطم به ، وتكون الطائرة قد تحطمت وسقطنا فى الفضاء أشلاء !

وخفّت سرعة الطائرة بالتدريج ثم توقفت ، وفتحوا بابها ، وأخذ ركابها يغادرونها ، فقمت معهم من مقعدى وأنا أحاول أن أشد ساقىّ وأنتصب واقفاً ، واتجهت نحو الباب وقد وضعت فوق شفتىّ ابتسامة ، هى ابتسامة الفرحة بالسلامة وهى أيضاً ابتسامة أخفيت بها حيرتى فى معرفة كيف هبط الطيار دون أن ترتطم طائرته وتتحطم عند قمة من قمم الجبال التى كان يطير بينها مسرعاً ومطمئناً وسط الضباب !

وعندما دلفت من الباب خارجاً،شعرت أنى دخلت عالماً جديداً ، فالوجوه السمراء تلتف حول الطائرة ، ومن خلفها جبال هائلة تقف شامخة وتضفى على المنظر أمام عينىّ رهبة وروعة، ويغطى كل ذلك الضباب الأبيض ورذاذه الذى يبلل الوجوه وينعشها . وأول ما رأيت كانت طرابيش حمراء طويلة جداً يضعها عمال المطار السمر فوق رءوسهم ، وأول ما سمعت كانت كلمة « السلام عليكم » يقولونها بحرارة ودفء يرحبون بها بالقادمين إلى بلادهم، وسمعت منهم أيضاً كلمة كان وقعها فى أذنىّ مألوفاً كأننى سمعتها وعرفتها من قبل أن أصل إلى هذه المنطقة هى كلمة ، « اسنتى سانا » وشعرت وقتها أننى كنت أيضاً أقولها معهم دون أن أدرى معناها ولا ما تدل عليه .

وقضيت فى نيروبى أياماً قبل أن تحملنى طائرة أخرى إلى دار السلام حيث كنت سأقيم، وهناك أيضاً رأيت الطرابيش الحمراء الطويلة جداً ، وسمعت كلمة « اسنتى سانا » تقال فى مجال الشكر والعرفان ، وصدق ظنى فى أننى عرفتها وألفتها من قبل وصولى ، فقد عرفت أن معناها هو « أحسنت صنعاً » باللغة العربية وقد حذف منها حرفا الحاء والعين لاستحالة النطق بهما ، وسمعت غير ذلك كثيراً من الكلمات العربية وأيقنت أن اللغة السواحيلية التى يتكلمون بها فى شرق افريقيا هى مزيج من اللغة العربية واللهجات المحلية .

واستقرت حياتى فى دار السلام ، وعرفت الكثيرين فيها ، وتنقلت كلما سمحت الظروف بين مدن تنجانيقا (تنزانيا الآن) فزرت باجامويو وموروجورو وغيرها وسافرت إلى زنجبار ، وكنت أتحدث إلى هذا وأستمع إلى ذاك ، وزاد عدد معارفى من رسميين وموظفين ، وقابلت فونديكيرا الزعيم الإسلامى الذى جاء ذكر جده فى صفحات تالية من هذا الكتاب ، وعرفت العديد من التجار الأسيويين وأحسست أننى أعيش فى محيط مألوف ،

وأخذت الصورة تتضح أمامى شيئاً فشيئاً ، وأيقنت أن الإسلام قد طبع تلك المنطقة بطابعه ، وتمنيت أن أنقل هذه الصورة إلى كل الذين لم يسعدوا بزيارة شرق افريقيا .

وتعددت مشاعرى وأحاسيسى ، ففى كل مدينة زرتها رأيت العمارات الشاهقة والمبانى الحديثة والفنادق الفاخرة والسيارات الأنيقة مثل ما رأيت فى نيروبى ودار السلام ، وفى كل بقعة من الريف ذهبت إليها ، شاهدت الطبيعة ساحرة بجبالها وغاباتها وطرقاتها البكر وبحيراتها وأشجارها وطيورها المتعددة النوع والشكل . قابلت مسيحيين ومسلمين ووثنيين ، ورأيت الكنائس والمساجد ، وشاهدت الرقصات الوثنية والاحتفالات بالشعائر التقليدية التى تحملك معها إلى عالم من الرهبة والغموض . فأى صورة أنقل إلى من لا يعرف هذه المناطق ؟ أهى صورة الحياة الحديثة فى المدن ، لكى أقول لهم انها شبيهة بالحياة فى المدن الأوروبية ، أم هى صورة الطبيعة الفاتنة بسحرها وجمالها الذى تصنعه الطيور بألوانها الزاهية والتربة الحمراء مع لون الشجر الأخضر والسماء الصافية الزرقاء ، أم هى صورة الغابة وعالمها وسكانها وطقوسهم وحياتهم وشعائرهم ؟

ويوماً بعد يوم تحددت المعالم أمامى ، وعزمت على أن تعطى الصورة التى أنقلها نفس الانطباع الذى أحس به ، وتعرّف القارىء العربى بحياة شقيقه الافريقى سواء فى المدينة أو فى الغابة ، وتجعله يدرك كيف يعيش الافريقى المسلم وكيف وصل الإسلام إليه ، ويلم بعاداته وتقاليده التى تشبه فى كثير من الأحيان عاداتنا وتقاليدنا ، وكيف أن الافريقى فى الغابة لم ينبذ — رغم تمسكه بالإسلام — عادات آبائه وتقاليد أسرته وقبيلته ، واحتفظ بها فدخلت فى حياته وأعطت لدينه — فى الظاهر — ملامح معينة دون أن تمس الجوهر والأساس ، فهو يصلى ويصوم ويخرج الزكاة ويؤمن بالله سبحانه وتعالى

ووحدانيته ، ولكنه لا يبخل فى نفس الوقت على أرواح آبائه وأجداده بالتقديس والإكبار ، أما المسلم فى المدينة فلم تعد تلك العادات تشده إليها أو تجذبه ، ولم يعد فى حياته سوى الإسلام نقياً لا تشاركه فيها تقاليد أو شعائر غير شعائر الإسلام وتقاليده . ولقد اعتاد مسئول كبير من المسلمين أن يطلب عندما يزورنى فى مكتبى ثلاثة أقداح من القهوة ، فلما سألته عن السبب قال إن واحداً لا يكفيه ، وأنه كان يود أن يطلب اثنين فقط لولا أن الله لا يحب الازدواج ، ولذلك فلا مفر من ثلاثة أقداح لكى يشرب ما يكفيه دون أن يغضب الله سبحانه وتعالى .

ومرّت أيام كثيرة ، وعشت فى المنطقة عاماً ونصف ، ولم أنقل هذه الصورة أو تلك ، فقد جرفنى عملى ولم يمنحنى الوقت حتى للتفكير فى شىء سواه وحرمنى من القيام بدراسة تستلزم فى واقع الأمر تفرغاً لإتمامها بالقراءة والبحث والتنقل والمشاهدة والتحرى ، وهو ما فعله مؤلف هذا الكتاب سبنسر ترمنجهام J. Spencer Trimingham الأستاذ بجامعة جلاسجو ، عندما قضى أربعة شهور كاملة من صيف عام ١٩٦١ فى التنقل فى شرق افريقيا وفى الجزر المتاخمة له متفرغاً يبحث ويشاهد ويتحرى ، ثم يعزز كل ذلك بقراءات تحقق له ماشاهد أو سمع ، وساعدته فى دراساته هيئات علمية مختلفة منها جامعة ماكريرى بأوغندا و Church Missionary Society و Leverhulme Research Awards كما عاونه المستوطنون الأوربيون فى تنقلاته وفى إقامته فى المناطق المختلفة ، حتى أخرج كتابه قطعة من البحث الأكاديمى تقدم للدارس وثيقة هى بمثابة مرجع لكيفية دخول الإسلام إلى شرق افريقيا ، والملامح التى اكتسبها بقيامه جنباً إلى جنب مع عقيدة الغابة ، وعبادة الأشجار وتقديس الروح ..

ولقد كان الأستاذ ترمنجهام فى كتابه حريصاً على حياد الباحث العالم ، وإن كنت فى هذا العرض سوف أرد على بعض ما جاء به ، فإنما لكى أضع أمام القارىء صورة مكتملة واضحة لا يكتنفها غموض أو لبس، وحتى لا يذهب ما جاء به دون رد أو تفسير وتحليل . كذلك فإننى سوف أحاول قدر الإمكان أن ألقى بعض الضوء على الأجناس التى ورد ذكرها مثل البانتو والحاميين ، ونشأة بعض المدن مثل كيلوا ، وبعض الاحداث مثل ثورة ماجى ماجى ، مما يحتاجه القارىء لكى تتضح الصورة أمامه وأساعده على متابعة قراءته واستساغتها .

أولا : تفسير لبعض الأحداث ، وأضواء على الأجناس والمدن

أ — الوصول المبكر إلى ساحل شرق أفريقيا :

تقع على سواحل المحيط الهندى أراضى اربعة بلاد: شرق افريقيا فى ناحية، والجزيرة العربية وبلاد فارس فى الشمال ، ثم الهند على الجانب الآخر . هذه الأراضى ، وإن كان البحر يفصلها عن بعضها البعض ، إلا انه جعل السفر بينها سهلا وميسوراً . ومنذ سنة ٣٠٠٠ ق. م . كانت الشعوب التى تعيش فى تلك البلاد ، فى وديان الأنهار بين الجزيرة العربية وبلاد فارس ، وفى الهند شعوباً على درجة من الحضارة وعلى دراية تامة بالملاحة فى البحار والمحيطات .

وفى مبدأ الأمر لم يبتعدوا بقواربهم الخشبية البدائية عن شواطىء بلادهم، إلا انهم اصبحوا بالتدريج اكثر إقداما، فابتعدوا ثم زادوا فى ابتعادهم داخل المحيط حتى كانت شواطئهم تختفى أمام انظارهم . وقد لاحظوا فى خلال شهور معينة من السنة ان رياحاً شمالية تدفع قواربهم إلى الغرب والجنوب الغربى . وبتكرار التجربة سنة بعد اخرى خلال تلك الشهور ، تركوا قواربهم للرياح تدفعها حتى وصلت ذات يوم إلى شاطىء شرق إفريقيا . وبعد شهور قليلة تبينوا ان اتجاه الرياح قد تغيّر ودفعهم عائدين إلى بلادهم . هذه الرياح هى التى اصبحت تسمى بالرياح الموسمية ، وهى التى سهّلت على سكان الهند وبلاد فارس والجزيرة العربية الوصول إلى شرق إفريقيا .

هؤلاء البحارة الأوائل لم يكونوا يسعون وراء شىء محدد سوى المغامرة واكتشاف المجهول ومعرفة المدى الذى يمكن أن تذهب إليه سفنهم فى المحيط،

فلما وصلوا ، وجدوا أشياء لفتت أنظارهم مثل العاج ، فحملوها معهم ، وعادوا فى العام الثانى لطلب المزيدمنه حاملين معهم بضائع من بلادهم لمبادلتها .

وهكذا نشأت الرحلات التجارية المنتظمة إلى ساحل شرق إفريقيا !..

وقدوصل المصريون [1] إلى شواطىء شرق إفريقيا، ومن الممكن أيضاً أن يكون الفينيقيون قد وصلوا بدورهم إلى الصومال ، كذلك الاشوريون الذين كانوا يعيشون حول الأنهار بين الجزيرة العربية وبلاد فارس .

أما العرب فقد كانت رحلتهم هى أقصر تلك الرحلات وأقربها وأكثرها سهولة ويسراً . وقد استوطن كثيرمنهم على الساحل وأدخلوا زراعة جوز الهند وقصب السكر التى لم تكن معروفة من قبل .

وكان هناك أيضاً تجار من الأوروبيين مثل الرومان والاغريق ، إلا انه فى خلال الخمسمائة عام التى تلت وفاة السيد المسيح عليه السلام ، انشغل الرومان والاغريق والمصريون بالحروب فقلت رحلاتهم إلى شرق إفريقيا ثم توقفت تماما ، واستمرت رحلات سكان الشرق مثل الهنود والفارسيين والعرب . وفى وقت ما فى القرن السادس الميلادى زاد عدد القادمين من بلاد فارس وأقاموا مستوطنة فى سانجى يا كاتى Sanji Ya Kati جنوب مدينة كيلوا ومازالت أطلالها موجودة حتى الآن ، وقد عثر بها على بعض الآنية الفخارية والمعدنية .

---

(١) الأرجح أن المصريين أبحروا جنوبا فى البحر الأحمر لمعرفة ماذا يوجد فى نهايته ، وعندما وصلوا إلى المحيط الهندى قابلتهم الرياح التى حملتهم جنوبا إلى ساحل شرق افريقيا ، والمعتقد أن المصريين كانوا من أوائل الزائرين لهذا الساحل ، فقد وجدت كتابات مصرية ونحوت ترجع إلى ٣٠٠٠ ق . م تصف أرضا تسمى Punt وهى الصومال . وقد يكون المصريون قد وصلوا إلى شرق أفريقيا عن طريق الملاحة فى النيل لاكتشاف منابعه .

وسوف يرى القارىء أن المؤلف قد أرجع السبب الأول فى إنتشــار الإسلام فى شرق إفريقيا إلى رحلات التجار المسلمين القادمين إلى الساحل ، واستيطان بعضهم به ، ونحن نضيف هنا عاملا آخر قد يكون على نفس الدرجة من الأهمية ، فإن الرحلات المنتظمة إلى شرق إفريقيا ، منذ قبل نزول الإسلام، فتحت الطريق أمام الفرس وسكان الجزيرة العربية وغيرهم ووجّهت انظارهم إلى تلك المنطقة . وعندما بدأت الحروب الإسلامية فى القرن السابع الميلادى، وامتد الفتح الإسلامى وشمل بلاد فارس ومصر وغيرها ، ووقعت المنازعات بين المسلمين وبعضهم ، فرّت مجموعات منهم إلى الساحل واستوطنت به . ولم يأت عام ٩٠٠ م ، إلا وأصبح هناك عدد لا بأس به من هذه المستوطنات التى أنشأوها ، وهكذا نرى مزيداً من المسلمين العرب يصلون إلى شرق إفريقيا ويساهم استيطانهم واختلاطهم بالسكان الأصليين وتزواجهم بنســائهم الافريقيات فى إنتشار الإسلام فى المنطقة .

ب — نشأة مدينة كيلوا

وهنا أورد نصاً ثالثاً غير النصين اللذين أوردهما المؤلف لقصة واحدة من قصص الأدب الشعبى الشيرازى عن إبحار السلطان الفارسى الحسين بن على مع أولاده الستة جنوباً ونزول كل منهم فى مدينة استوطن بها . وقد جاء هذا النص فى كتاب « تاريخ تنجانيقا » للأستاذ ب . كلارك .

« وفى حوالى عام ٩٥٠ ميلادية وصلت جماعة من شيراز[١] بجنوب إيران ليستقروا على ساحل شرق افريقيا ، وقد جاءوا فى سبعة سفن يقودها رجل من المحتمل أن يكون ابن سلطان شيراز ومعه أولاده الستة . وفى أثناء إبحارهم

(١) منطقة جنوب إيران يسكنها الجنس العربى .

حول الساحل توقفت بعض السفن فى مناطق صغيرة مثل ممباسا وزنجبار ، أما ابنه حسين بن على فقد ظل يبحر حتى وصل إلى كيلوا فأعجبته ، فقرر هو ورجاله الإستيطان بها ، وكانت المدينة صغيرة فى بداية عهد إنشائها ، وقابل مسلماً يدعى منيرى وابارى وأبلغه أنه يرغب فى شراء الجزيرة القريبة ، فاتصل منيرى برئيس القبيلة الذى وافق على بيعها مقابل أطوال من القماش تكفى لإقامة سور حولها ، فأعطاه حسين بن على ما طلب ، وبدأ استيطانه فوق الجزيرة التى أطلق عليها اسم « كيلوا كيسيواى » وكانت هى النواة لمدينة كيلوا المزدهرة القوية » .

فى ذلك الوقت قوى المستوطنون العرب فوق جزر أخرى حول الساحل مثل ممباسا وزنجبار وكانوا يفضلون الجزر لسهولة الدفاع عنها حيث لا يستطيع السكان المحليون مهاجمتها إلا بعد عبور البحر بين الساحل وتلك الجزر ، وكانوا بحارة مهرة يسهل عليهم هزيمة المهاجمين من السكان الوطنيين . وقد أصبح حسين بن على صديقاً لأهالى الجزيرة المحليين وتزوج من ابنة منيرى .

وخلفه ابنه بعد وفاته كسلطان على الجزيرة ، وبعد قليل هاجم جزيرة مافيا المجاورة وحكمها دون أن يشتريها كما فعل والده عندما دفع ثمن كيلوا ، وبذلك بدأت العلاقات تتدهور بين الأهالى والعرب . وفى حوالى ١٠٢٠ م قوى السكان الأصليون إلى درجة اضطر السلطان معها للهرب إلى زنجبار ، إلا أنه بعد فترة استطاع أن يجمع شتات جنده ويعود مرة أخرى إلى كيلوا .

ولقد استعمل أهالى المدينة ثروتهم فى ترقيتها والارتفاع بها ، فبدلا من

استعمال خشب البامبو والطين فى البناء ، أخذوا يبنون بيوتهم من الخشب ، فكانوا يقطعونه إلى ألواح عريضة للجدران والأبواب ، وكثيراً ما كانوا يحفرون الأبواب الخشبية لتجميل المنازل وما زالت مثل تلك الأبواب تشاهد فى زنجبار حتى اليوم .

كما بدأ عرب كيلوا البناء بالأحجار فكانوا يقطعونها إلى أشكال منظمة لتتناسب مع بعضها ويلصقونها بالأسمنت ، وبذلك فإن البناء بالأحجار نقل إلى شرق أفريقيا للمرة الأولى بواسطة العرب . ويذهب الأستاذ كلارك إلى أبعد من ذلك فيقول : « لو أنك ذهبت اليوم إلى مدينة كيلوا فإنك سوف ترى أطلال المسجد وقصر السلطان اللذين كانا قد أقيما منذ سبعمائة عام على الأقل . ولعل السلطان سليمان هو الذى بدأ تشييدهما فى عام ١٢٠٠ ميلادية ». ثم وصف كلا من القصر والمسجد وكيف أن سقف الأخير كان مكوناً من مجموعة من القباب المتلاصقة مقامة على أربعين عاموداً حجرياً ، وبناء مثل تلك القباب من أصعب الأمور . فبقاء بعضها حتى اليوم دليل على أن العرب من أمهر البناءين . ثم يضيف أنه لم تقم فى كيلوا مبان على تلك الدرجة من الإتقان والجودة حتى وصل الأوروبيون إلى شرق افريقيا .

حـ — الزنج Zenj أو Zanj

أشار المؤلف فى الفصل الأول إلى الفترات الثلاثة الأساسية فى تاريخ الثقافة الإسلامية فى شرق أفريقيا ، وقال أن الفترة الأولى من تلك الفترات هى استيطان المسلمين الأول فى الأماكن الساحلية التى كانت تحت حكم « الزنج »، وهو الاسم الذى يطلق على قبائل البانتو فى الخليج الفارسى. وتجدر الإشارة إلى أنه لم تكن « للزنج » إمبراطورية بالمعنى المفهوم ، رغم أن اسم « امبراطورية الزنج » قد ورد فى بعض كتب التاريخ ويقال أنها استمرت من سنة ٩٥٠

إلى سنة ١٥٠٠ ميلادية،وكانت مدينة كيلوا تتحكم فيها معظم تلك الفترة . إلا أن الواقع هو أنه كانت هناك عدة مدن مثل مقديشو وماليندى وباتى وممباسا وزنجبار وكيلوا وسوفالا ، أقامها العرب وكان معظمها مستقلا ولكل منها حاكم خاص يحكمها ، وقد ارتبطت تلك المدن ببعضها لإشتراكها معا فى تجارة واحدة عبر الساحل دون أن تربطها حكومة واحدة أو حاكم واحد . وقد تزدهر مدينة منها فى وقت من الأوقات وتصبح أكثرها أهمية مثل كيلوا التى احتلت هذا المركز فى القرنين الثانى والثالث عشر فى المنطقة الواقعة جنوب ممباسا .

وبالتالى فلم يكن هناك إمبراطورية فى ساحل أفريقيا الشرقى تحكمها زنجبار كما يوحى بذلك اسم (زنج) . بل أن إنعدام الوحدة أو الاتحاد بين تلك المدن، وعدم وجود هذه الامبراطورية فعلا هو الذى سهّل على البرتغاليين إحتلال الساحل بعد عام ١٥٠٠ ميلادية .

د — الإستعمار البرتغالى لشرق أفريقيا.

فى ١٦ يوليو عام ١٥٠٠ وصلت ست سفن غريبة تحمل رجالا يرتدون ملابس غريبة أيضا إلى ميناء كيلوا . فنظر أهالى المدينة بدهشة وفزع إلى أول أوروبيين يشاهدون عند ساحلهم منذ وصول اليونانيين قبل ذلك بألف عام، وتساءلوا : لماذا قدم هؤلاء القوم ، وماذا يريدون ؟

قال قبطان تلك السفن بدرو كابرال Pedro Cabral إنه يحمل رسالة من ملك البرتغال إلى سلطان كيلوا . ولكنه فى الواقع قدم إلى هذه البلاد لكى يختبر قوة العرب فيها وقدرتهم على الصمود أمام الغزو البرتغالى. ورفض السلطان الخروج لمقابلته، فأبحر عائداً إلى بلاده . إلا أنه قبل ابحاره استطاع أن يقنع أهالى كيلوا أن يسمحوا لتجار سفنه انتونيو فرنانديز Antonio Fernandes

بالهبوط إلى الساحل بسبب مرضه . وكان هذا البحار هو أول برتغالى يعيش فى كيلوا ، ولم يكن مريضا كما ادعى القبطان ، ولكنه تركه هناك كى يكون عيناً له على المدينة ويختبر دفاعها .

وفى ١٢ يوليو ١٥٠٢ وصل فاسكو داجاما إلى كيلوا وأمر سلطانها أن يقابله فوق إحدى سفنه الراسية فى الميناء . فخرج إليه الامير إبراهيم الذى كان وقتها يقوم بمهام السلطان ، فأبلغه داجاما أن عليه أن يقبل حكم ملك البرتغال لبلاده إن كرهاً أو طوعاً ، فرفض الأمير . فقرر داجاما الاحتفاظ به أسيراً فوق السفينة وعزم على حرق المدينة إذا أصر على رفضه ، فرضخ الأمير ووافق على طلبات فاسكو داجاما وقبل أن يدفع له جزية سنوية مقدارها ألف جنيه باعتباره أصبح خاضعاً للحكم البرتغالى . وقد انتظر داجاما إلى أن دفع له الأمير جزية السنة الأولى ذهباً وأحجاراً كريمة ، فتسلمها منه ثم رحل عن شرق أفريقيا عائداً إلى بلاده بعد أن ترك العلم البرتغالى يرفرف فوق قصر السلطان . وأصبح هذا العلم دليلا على أن مدينة كيلوا قد فقدت استقلالها ، وأن حكماً برتغالياً قد بدأ على طول الساحل .

إلا أن العرب كانوا واثقين أن البرتغاليين لن يكتفوا بذلك ، وأنهم سوف يعودون مرة أخرى إلى ساحل شرق أفريقيا خصوصاً وأنهم لم يقوموا بدفع الجزية السنوية المفروضة عليهم بانتظام ، فبدأوا فى إقامة قلعة عند مدخل الميناء ، ورغم أنهم لم يدخروا جهداً فى عملهم إلا أنهم لم يتمكنوا من إتمام بنائها بالسرعة الكافية ، وعاد البرتغاليون بالفعل فى عام ١٥٠٥ قبل أن تصبح القلعة مستعدة للدفاع عن كيلوا .

وفى تلك السنة استولى البرتغاليون على مدينة سوفالا (مدينة الذهب) ثم اتجهوا إلى كيلوا بعد ذلك ، ودخل قائدهم دالميدا D'Almeida الميناء بسفنه وهو يقصفه بمدافعه فى ٢٢ يوليو ١٥٠٥ ثم أرسل إلى الأمير إبراهيم يسأله عن

السبب فى عدم انتظام دفع الجزية وإنزال العلم البرتغالى من فوق قصره . ولما لم يعط الأمير إجابة واضحة على هذين السؤالين ، نزل البرتغاليون إلى البر ، فهرب الامير عندما اقتربوا من قصره من أحد الابواب الخلفية وانطلق فى الغابة ومعه عدد كبير من أتباعه . ودخل البرتغاليون المدينة ونهبوا المنازل المهجورة ونصبوا صديقا لهم يدعى محمد أنكونى سلطاناً على المدينة وبدأوا فى بناء قلعة حجرية أنهوها فى ثلاثة أسابيع وترك داليدا بها مائة وخمسين جنديا لحراستها وأبحر عائداً إلى بلاده .

وفى عام ١٥١٠ — أى بعد عشرة أعوام من بداية وصولهم — استولى البرتغاليون على ساحل شرق أفريقيا جميعه ، فقد أذهلتهم تجارته الرائجة الرابحة، ولذلك قرروا الاستقرار فى الساحل للاستيلاء على تلك التجارة . وكانت مدينة سوفالا Sofala وقتها مازالت مركزاً لتجارة الذهب ، ولذلك اختاروا أقرب دولة إليها وهى موزمبيق لكى تكون مركزاً لحكمهم الاستعمارى ثم امتد حكمهم حتى شمل مملكة مونومباتا فى روديسيا حيث توجد مناجم الذهب ، ومع ذلك وبرغم أن أكثر من ألف رجل من رجالهم لقوا حتفهم بسبب الأمراض وغيرها أثناء البحث عن تلك المناجم إلاّ أنهم لم يتمكنوا من العثور عليها بسبب رفض الأهالى التعاون معهم .

ومنذ ذلك الوقت استعمر البرتغاليون موزمبيق وما زالوا بها حتى أنها أصبحت أقدم المستعمرات الأوروبية فى أفريقيا .

وعندما أصبح مركزهم فى سوفالا ، ولم تعد كيلوا تتعاون معهم بالقدر الكافى ، تركوها عام ١٥١٣ وسحبوا جنودهم من القلعة التى هدم جزء كبير منها وسمحوا للامير إبراهيم بالعودة إلى حكمها ، فقد خاب أملهم فى تجارة العاج وتبينوا أنه بدون مساعدة العرب واشتراكهم معهم لايستطيعون الحصول على العاج أو العبيد من الداخل . وبذلك لم يستمر احتلال البرتغاليين لكيلوا سوى ثمانى سنوات فقط ولكنه استمر فى ساحل شرق أفريقيا .

وفى عام ١٦٥٠ أصبح عرب عُمان أقوياء إلى حد أنهم أرسلوا اسطولا لمساعدة ممباسا ضد البرتغاليين ، وهاجموا زنجبار ، وساعدوا عرب بمبا فى مهاجمة كيلوا . وهنا بدأ الصراع بين العُمانيين والبرتغاليين الذى انتهى فى ممباسا ، إذ دار القتال حولها ثم استطاع العُمانيون محاصرة « قلعة المسيح » .

ولكن البرتغاليين لم يستسلموا لهذا الحصار الذى دام لمدة ثلاثة وثلاثين شهراً لم يبق منهم أحياء بعدها سوى ثمانية رجال بالقلعة ، وفى ١٢ ديسمبر ١٦٩٨ دخل العرب هذه القلعة وأنزلوا العلم البرتغالى ورفعوا فوقها علم عمان بدلا منه.

وهكذا انتهى الاستعمار البرتغالى فى ساحل شرق افريقيا بعد ان عاش فيه قرابة قرنين كاملين .

هـ — ثورة ماجى ماجى Maji Maji

قامت هذه الثورة فى تنجانيقا فى عام ١٩٠٥ ، وسميت كذلك نسبة إلى الماء المسحور(١) Magic Water الذى استعمله الثوار ، وانتشرت فى الجزء الجنوبى من تنجانيقا ، من دار السلام إلى بحيرة نياسا . ولم تكن الحكومة الألمانية ، صاحبة الحكم الاستعمارى فى البلاد فى ذلك الوقت ، مستعدة لتلك الثورة أولاندلاعها المفاجىء. ومع ذلك فإنها لم تنتشر فى أنحاء تنجانيقا الأخرى بسبب إمتناع القبائل الكبرى القوية مثل الشاجا Chagga والنياموزى والهيهى عن الاشتراك فيها برغم انها اعتادت أن تسبب المتاعب للألمان من وقت لآخر.

ولقد جاءت الاشارة الأولى عن الثورة عندما أبلغ العقيد (المأمور) فى

(١) هو ماء زمزم وكان يوزعه على الثوار أحد المشايخ المشتغلين بالعلاج وسموه المسحور لأن كل القوى الخارقة ارتبطت فى اذهانهم بالسحر.

بلدة كيباتا بالقرب من مدينة كيلوا أن الأهالى امتنعوا عن العمل فى مزارع القطن الحكومية ، وأنهم أخذوا يترددون على « الساحر المعالج » ليحصلوا منه على « ماء مسحور » يقال أنه يحمى حامله من الشرور والأضرار ويحيل - فى اعتقادهم - رصاص البنادق إلى ماء .. !

ولكن المسئول الحكومى فى مدينة كيلوا لم يعط اهتماماً لتحذير المأمور ، وفى الثانى من شهر أغسطس ١٩٠٥ بدأ الثوار يهاجمون مدينة سامنجا على الساحل بالقرب من كيلوا وأحرقوها ولم يكن بها جنود من الحكومة مما شجع الثوار على التقدم ، فحملوا ماءهم « السحرى » وشرعوا يهاجمون المدينة بعد الأخرى ويستولون عليها ويقتلون من بها من ألمان ومبشرين ، وانتشرت الثورة جنوباً ، وأخذ المبشرون يفرّون إلى أماكن أخرى طلباً للسلامة ، فيستولى الثوار على بعثاتهم التبشيرية ويهدمونها .

وعندما وصلوا إلى مدينة سونجيا انضمت إليهم قبائل النجونى Ngoni وهم مقاتلون ذوو بأس شديد وشهرة واسعة مما جعل الثورة تدخل فى مرحلة خطيرة خصوصاً وأن الحكومة الألمانية أخذت على غرة ولم تكن على استعداد لمواجهتها . إلا أنها فى شهر اكتوبر من نفس العام استدعت ألف جندى من ألمانيا للقضاء على الثوار ، ونجحت فعلا فى تفتيت تجمعاتهم والقضاء على قوتهم التى كانت تهدف — كما قال الحاكم الألمانى فى ذلك الوقت Von Grotgen — إلى تنفيذ خطة موضوعة للاطاحة بالحكومة الألمانية والقضاء على الحكم الاستعمارى .

ولقد استعملت الحكومة الألمانية أقصى درجات العنف فى اخمادهذه الثورة ويقال أن عدد ضحاياها بلغ مائة وعشرين ألفاً . فقد زج بالكثيرين فى السجون

وعُلّق غيرهم من رقابهم فى الأشجار ! وأحرقت المنازل ، وأتلفت المحاصيل لأنه بدون طعام يعجز الثوار عن مواصلة هجماتهم . .

والحكومة الالمانية كانت مصممة — وبأى ثمن — أن تضرب بهم المثل حتى لا تقوم ثورة أخرى تعرض استعمارها لأى هزة أو خطر !

(و) ساحل أزانيا :

ولعله من الضرورى إلقاء بعض الضوء على المقصود باسم « أزانيا » الذى سوف يتكرر على الصفحات التالية من الكتاب . ففى عام ٤٠ ميلادية ، كتب أحد اليونانيين المقيمين بالاسكندرية — التى كانت وقتها مركزاً للتجارة بين روما والشرق — كتاباً سماه Periplus « الرحلة الدائرية » ليساعد البحارة فى المحيط الهندى . وقد وصف فيه منطقة شرق افريقيا وسماها « أزانيا » ، وذكر أسماء بعض المدن على الساحل وكان آخرها جنوباً هى مدينة رابتا Rhapta التى كانت على مسافة خمسة وعشرين يوماً بالسفن الشراعية من نهاية البحر الأحمر وعلى مسافة أربعة عشر يوماً من أحد الجبال التى تغطيها الثلوج فى داخل القارة من المؤكد أنها جبال كيليمنجارو . هذه المسافات تبين أن مدينة رابتا كانت تقع فى مكان ما على ساحل تنجانيقا (تنزانيا الآن) ولعلها كانت فى مكان مدينة بانجانى Pangani الحالية مما يدل على أن « أزانيا » — أو ساحل البنادير — هى تنزانيا التى نعرفها فى الوقت الحاضر .

(ز) البانتو والحاميون :

بدأ ظهور البانتو Bantu — وهم الجنس الغالب فى شرق أفريقيا — فى الفترة بين سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد وسنة ١٥٠٠ بعد الميلاد . ففى وقت ما بعد عام ١٠٠٠ ق. م . بدأ الزنوج فى الاختلاط بالحاميين Hamites (وهم نسل

حام بن نوح عليه السلام) وسكان الغـابات . وقد أنتج هذا الاختلاط ثلاثة أجناس مختلفة ظهرت فى أزمان مختلفة :

— الفريق الأول من هذه الأجناس هم الذين يعيشـون الآن حول الجزء الجنوبى من نهر النيل وفيهم نسبة كبيرة من الدم الزنجى ويطلق عليهم النيليون Nilotics ، ومنهم الأتشولى Atcholi فى أوغنـدا والليو Luo فى كينيا .

— والفريق الثانى هم البانتو ، وقد ظهروا حوالى سنة ٢٠٠ق. م وعددهم كبير جداً ويعيشون جنوب بحيرة ڤيكتوريا ، كما أن قبائل الباجاندا والكيكويو من البانتو كذلك ، ونسبة الدم الزنجى والحامى ليست متساوية أو متشابهة فى جنس البانتو كله ، وهكذا أصبحت توجد مجموعات متعددة ومختلفـة من البانتو .

— والفريق الثالث ، وقد ظهر بعد ذلك ، نشأ من اختلاط الفريق الأول (النيليون) بالحاميين ، ويطلق عليهم « الحاميون النيليون » ويعيشـون فى المنطقة بين النيل والصومال ، ومنهم قبائل الماساى الشهيرة .

أما الزنوج أنفسهم — أحد الفرعين الأساسيين لتلك الأجناس الثلاثة — فقد أصبحوا يعيشون الآن فى غرب افريقيا ، بينما يعيش الحاميون — الفرع الأساسى الآخر — بالقرب من البحر الأحمر .

ثانيا : الإسلام بين المبشرين ودعايات كتاب الغرب

(ا) المبشرون :

إن أروع ما يقـــابل الزائر لمنطقة شرق افريقيا هو وجود ديانتين فوق أرضها إلى جانب عقيدتها النابعة من حضارة الغاب : دين قدم إليها من الشرق، ودين آخر جاءها من الغرب . وكلاهما من خارج القارة الافريقية ، فالإسلام جاء به العرب والفارسيون سواء منهم التجار الذين كانوا يترددون على الساحل ثم استوطنوه ، أو المسلمون الذين لجأوا إلى المنطقة نتيجة للحروب الاسلامية فى القرن السابع الميلادى . أما المسيحية فقد وصلت إلى شرق إفريقيا عن طريق البعثات التبشيرية التى نظمتها الـكنيسة فى القرن التاسع عشر وأوفدتها إلى المنطقة للدعوة إلى الدين المسيحى والتبشير به بين الأفارقة .

فانتشار الاسلام اذن جاء نتيجة رحلات لم يكن نشر الدعوة هو مقصدها، بل كانت التجارة هدفها وغايتها ، ولم يـكن له مبشرون يسيرون فى البلاد داعين الناس إليه ، ومع ذلك فلقد تغلغل بالمخالطة ، إلى نفوس الأهالى والسكان من الوطنيين ، وأصبحنا نرى أمثلة من الورع الشديد والتقوى الزائدة التى لاتقوم إلا فى نفس شربت الدين فى طفولتها عن أبوين هما أيضاً على درجة كبرى من التقوى والورع ...

وروعته تـكمن فى أنه لم يتخذ وسيطـاً إلى نفوس الافارقة ، ولم يجعل لنفسه داعية إلى أفئدتهم ، بل خاطبهم بنفسه : دين الفطرة خاطب أهل الفطرة ودخل قلوبهم واستولى على مشاعرهم .. ولم يلجأ إلى التغيير العنيف حتى لا ينفر الأهالى منه . فقد كان حكيما حليما فى انه تعايش مع العادات والطقوس القديمة وأبقى على مالا يضر منها بالجوهر والأساس فى الدين ولا يغير من منحاه واتجاهه

وترك من يريد من الافارقة يحتفظون بما يشاءون من عادات يمارسونها لكيانهم وتركيب مجتمعهم القبلى .

وعندما حل القرن التاسع عشر، وجد الاسلام نفسه امام بعثات تبشيرية مسلحة بإمكانيات مذهلة ، إذ جاءت تلك البعثات فى القرن الماضى ووراءها القوى الاستعمارية الكبرى تؤيدها وتساندها وتقف فى عونها ، فعملت على كتابة الأناجيل باللهجات المحلية وعلى إعداد رجال الدين من بين الأهالى أنفسهم ، وإقامة الكنائس والمستشفيات والمدارس ، واجتذاب السكان بكل السبل والوسائل . ولو كان نشاط المبشرين قد اقتصر على الحقلين الدينى والانسانى ، لما ارتفع صوت واحد يعارضه أو يقاومه ، ولكن نشاطهم امتد إلى الميادين السياسية فتنبه الزعماء الوطنيون والأهالى فى القارة كلها إلى أن تلك البعثات تعمل على أن يتشرب الافريقيون حضارة الغرب ومذاهبه بقصد عزلهم عن جيرانهم وربطهم بعجلة المستعمرين حتى إذا ما حان الوقت كانوا لهم عوناً على كبت الأمانى الوطنية وتثبيت النفوذ الغربى، فقاوموها وحاصروا نشاطها حتى أن الجنود فى مقاطعة روفيچى هدموا مدرسة تابعة للبعثات التبشيرية بإيحاء من مسئول محلى وأقيمت مدرسة حكومية وعين لها مدرس مسلم كما سيرى القارىء على الصفحات التالية .

وثمة أمثلة كثيرة أخرى على محاولات البعثات التبشيرية ، ومن ورائها السلطات الاستعمارية للعمل على محاربة تغلغل الإسلام وإخفاء حقيقة انتشاره . ومن هذه الأمثلة ما كتبته الآنسة أليسون ردمين Alison Pedmayne التى كانت تعمل مع المبشرين لمدة عامين وسط قبائل الهيهى داخل تنجانيقا، لتصحيح ما نشره الأستاذ ترمنجام فى كتيب له عن قوة الإسلام بين هذه القبائل ، فنفت الآنسة ردمين ما توصل إليه المؤلف بعد دراسته لهذه الشعوب، وأكدت

أن الإسلام لم يكن فى يوم من الأيام قوياً بينها ، بل أنها ذهبت إلى أبعد من هذا وادعت فى رسالتها أنه آخذ فى التدهور ، وقالت أن بعض أسباب هذا التدهور ترجع إلى أن التعليم فى جميع مستوياته فى المقاطعة التى تعيش فيها هذه القبائل خاضع للبعثات التبشيرية .

وبالإضافة إلى ذلك فإن مسئولا انجليزياً كبيراً فى الادارة الإنجليزية فى تنجانيقا قبل استقلالها فى منتصف عام ١٩٦٢ كان قـــد أبلغنى أن المسلمين يشكلون ٢٢ ٪ من مجموع السكان بينما كان من الواضح الذى لا يدعو إلى أى شك أن نسبتهم أكبر من ذلك بكثير بل أنها قد تتعدى نصف السكان .

فما هى أسباب وجود تلك الرغبة المشتركة بين العاملين فى الحقل التبشيرى، وبين المسئولين فى الإدارة الأجنبية قبل الاستقلال ، لإخفاء الحقيقة ، وما هو السر الكامن وراءها ؟

ولقد رأيت فى مناطق أفريقية أخرى زرتها ، مركزاً للتبشير تقوم به سيدة منذ ثلاثين عاماً فى منطقة جبلية نائية تقيم فى منزل أنيق تحيط به حديقة صغيرة ولديها طائرة عمودية (هليوكوبتر) وضعت هى وطيارها تحت إمرتها لكى تنقلها وقتما تشاء إلى وسط الغابة فتخاطب سكانها وتتحادث معهم بلهجاتهم التى أصبحت تتقنها اتقاناً تاماً وتقدم الهدايا إليهم وتعيش بينهم أياماً ، ثم تصحب المجذومين منهم بطائرتها إلى المركز العلاجى للجذام الذى أقامته وزودته بالأطباء والممرضات .

فى تلك المنطقة بالذات رأيت القوة الروحية للاسلام أمام ضخامة القوة المزودة به البعثات التبشيرية . فالقسيس الذى كانت هـذه السيدة المبشرة قد أعدته من أهالى المنطقة ووضعت الإنجيل المكتوب باللهجة المحلية بين يديه

لـكى يسير داعياً وسط أهله وعشيرته ويعاونها فى جذب المزيد من السكان إلى حظيرة الـكنيسة ، هذا القسيس نفسه تحول إلى الإسلام عندما التقى بواعظ من اهل بلده وعاشره دون أن يقدم إليه هذا الواعظ شيئا فى مقابل ذلك ، ودون أن تـكون لديه وسائل الانتقال إلى الغابة بالطائرات العمودية أو علاج المجذومين أو تقديم الـكساء لمن يريد . وكل الذى استطاعه هو أنه عينه بعد تحوله مؤذناً بمسجد القرية الذى يؤم الصلاة فيه .

واجه الإسلام تلك الإمكانيات الرهيبة بضخامتها ، وكان عليه أيضاً أن يقف وجهاً لوجه أمام الدعايات المنظمة والحيل المتعددة . فقد كان المبشرون يدخلون القرى والغابات ويخالطون السكان كما رأينا المثل على ذلك ، ويعالجون مرضاهم تحدياً منهم لقدرة الساحر حتى يحولوا أنظار الأهالى بعيداً عنه وعن قوته التى يسيطر بها عليهم ، فهو الذى يستنزل المطر ، وهو الذى يمنع عنهم الأرواح الشريرة ويقيهم من شرورها ويشفى المريض منهم ، فإن عجز عن شفائه فإنه يجعلهم يعتقدون أن الأرواح لن تشفيه لأنها غاضبة لسبب أو لآخر.

وهناك قصة شائعة سمعتها فى أكثر من منطقة من القارة الأفريقية عن مبشر أعيته الحيل فى التغلب على منزلة الساحر فى نفوس أهـل القبيلة ، فقد عاش زمناً بينهم ولم يستطع أن ينفذ إلى قلوبهم ولا أن يجذبهم إليه ، فسألهم ذات يوم : هل يستطيع الساحر أن يخلع أسنانه جميعاً أمامكم ثم يعيدها إلى فمه دون أن تنزف منه قطرة دم ودون أن يحس بألم ؟

فسألوه : وهل تستطيع أنت ؟ فأجاب بنعم . وهنا سارع الأهالى إلى إعداد الاحتفال اللازم وأهابوا بالساحر أن يقبل التحدى واثقين أنه سوف يبطل حجة المبشر ويتغلب عليه وأوقدوا ناراً وبدأوا رقصاتهم استعداداً للتبارى بين قوة الساحر وقدرته ، وبين المبشر وما يقول .

وعجز الساحر بطبيعة الحال عن أن يقوم بشىء مما طلبه المبشر ، فتقدم الأخير وأخرج أسنانه جميعاً ثم فتح لهم فاه فلم يروا فيه سنة واحدة ولا ضرساً باقياً . ولم يشاهدوا دماً ينزف ولا جرحاً . وبعد قليل أعاد المبشر أسنانه إلى مكانها وشرع يتناول طعامه أمامهم فى لذة وسرور ، ولم يخطر ببال أحدهم بطبيعة الحال أنها أسنان صناعية !

ولكن الإسلام لم يفعل ذلك ولم يتحد قدرة الساحر فى أذهان الناس ، بل أنه سمح لهم بالإبقاء منها على ما لا يضر بالعقيدة نفسها ولا يمس وحدانية الله سبحانه وتعالى أو أركان الدين نفسه ، وتركهم هم أنفسهم يفندون طقوسهم وشعائرهم ولا يبقون منها — عن إيمان وعقيدة — إلا على ما لا يتعارض مع إسلامهم ، وذلك أثناء عملية التحول إلى الإسلام التى كانت تتم عن طريق التدرج فى مراحل ثلاثة كما سوف يرى القارىء على الصفحات التالية :

التفريغ ، فالتفاعل ، ثم التحوّل التدريجى .

وبذلك أمكن التوصل إلى نوع من التوازن بين العناصر الدينية الإسلامية وبين عناصر العقيدة الإفريقية فى شكل الحياة الذى تبلور بعد ذلك . وفى هذه العملية برغم أن القوانين الاجتماعية ظلت أفريقية فى الغالب ، إلا أن الإسلام أحدث ثورة فى داخل الفرد نفسه .

ولقد عرف الزعماء الوطنيون والأهالى — كما سبقت الإشارة — ما تهدف البعثات التبشيرية إليه ، وأحسوا به وبالنتائج التى تترتب على امتداد نشاطها إلى خارج الغرض من قيامها وسط الأهالى ، فعملوا على تصفية الكثير من مراكزها وانهائها ، وتركوا منها ما لا ضرر منه يمارس نشاطه فى الميدان الدينى فقط .

ب — دعايات كتّاب الغرب :

كانت تجارة العبيد أساساً لدعايات منظمة ضد العرب والتجار من المسلمين فإن كانت هذه التجارة قد عرفها العالم جميعه عن طريق التجار الأوروبيين والأمريكيين وغيرهم ، فإن الكتاب الغربيين ينسبونها فى منطقة شرق أفريقيا بالذات إلى التجار العرب وحدهم باعتبارهم هم المترددون عليها دون غيرهم . كما درجت السلطات الاستعمارية على أن ترسخ فى أذهان الأفارقة أن التجار العرب لم يحضروا إلى الساحل ولم يجشموا أنفسهم مشقة السفر إليه والتردد عليه إلا لكى يحصلوا على العبيد منهم يقتنصونهم ثم يحملونهم معهم إلى أماكن بيعهم .

ولقد أثمرت تلك الدعاية ونجحت إلى حد ما فى تنفير الأهالى وابتعادهم عن المسلمين وتجنبهم ، وفى تنمية الشعور بالكراهية نحوهم ، وهى الكراهية التى ولدتها الدعاية المستمرة حتى شربتها نفوسهم وأصبحوا بالفعل فى بعض المناطق يؤمنون بها . وانظر ما ذكره أحد الكتاب الألمان هو الأستاذ كلارموث Klarmoth فى كتاب الإسلام فى شرق أفريقيا الألمانية
"Der Islam in Deutsh Ostafrika"

« إن منطقة غرب أوزامبارا كانت مازالت ممتنعة فى وجه الإسلام فى عام ١٨٩١. ذلك ان زعماءها وأهاليها قويت فى نفوسهم كراهية أولئك الذين عرفوهم كتجار للعبيد وأصبحوا ينفرون منهم ولا يطيقون التعامل معهم ، فلم يسمحوا إلا للبعثات التبشيرية المسيحية بدخول منطقتهم » .

والأستاذ كلارموث هو من الكتاب الغربيين ، وتلك شهادة منه بنجاح الدعاية ضد المسلمين من العرب وبنتيجة ترسيخ الإيمان بها فى نفوس الأهالى .

ومع ذلك فإن تلك الدعايات لم تضعف الإسلام أو تؤثر فيه ولم تدفعه إلى النكوص أو إلى اتخاذ دعاة له يدافعون عنه ، بل صمت وانتظر حتى جاءت الفرصة ودخل المسلمون إلى نفس المنطقة الممتنعة ، وخالطهم الأهالى وعاشروهم فإذا بهم يتبينون بأنفسهم — ودون وسيط — خطأ مارسخ فى أذهانهم عن المسلمين ، فاتجهوا إليهم وزاملوهم ، واعتنقوا الدين الجديد إعجابا منهم بجلاله وروعته . والذى يقول ذلك هو نفس الكاتب الغربى الذى شهد بنجاح الدعاية الاستعمارية ضد الاسلام . فإذا به — فى حياد العالم المؤرخ ، الباحث عن الحقيقة وحدها — يشهد مرة أخرى فيقول : « إلا أنه عندما قامت إدارة أوروبية منظمة وأصبح موظفوها مسلمين وخصوصاً منهم من كانت لعمله صلات مباشرة بالجماهير ، وفد المسلمون إلى تلك المنطقة ، وقد أضفت ثقتهم بأنفسهم واعتدادهم بدينهم جلالا على حضارتهم ، فكان أن شاع الإسلام بين العديدين من الزعماء والأهالى إعجاباً منهم بهذا الجلال وتلك الهيبة ، وأخذوا بدورهم يبثون الدعوة ويدعون إليها ، ووصل الأمر إلى أن أصبح الاهالى فى كيليمنجارو يرحبون بالشيخ الذى يزورهم ليبصرهم بأمور الدين الجديد وعاداته وشعائره ويستمعون إلى مايقول » .

إن جلال الإسلام وروعته ـ كما شهد مؤرخ غربى ـ هما اللذان دفعا بالاهالى إلى أن يصبحوا هم أنفسهم دعاة له بعد أن كانوا من خصومه الكارهين . فهل سكتت السلطة الاستعمارية على ذلك ، وهى التى جاءت مضطرة ومجبرة بالمسلمين إلى تلك المناطق وأدخلتهم إليها ضمن إدارتها التى كان صغار موظفيها جميعاً من المسلمين إذ لم يكن أمامها غيرهم كى تستخدمهم . فبالإضافة إلى العقبات التى وضعت فى طريق الإسلام والدعايات التى أحاطت بالعرب لتنفير الافارقة منهم وإبعادهم عن طريقهم ، فقد تعرض للكثير من ضروب

المقاومة والمحاربة ، وانظر إلى ما فعلته السلطة الاستعمارية فى هذه المنطقة نفسها فعندما ذهب إليها أول الموظفين الملونين فى الإدارة الاجنبية — ويدعى كارانا — أقام مسجداً صغيراً ليمارس الصلاة فيه ، وعندما أوشك هذا المسجد أن يصبح وسيلة لنشر الدعوة إلى الإسلام وجذب المواطنين إليه ، هبت السلطة على الفور واتهمته بالاختلاس من أموال الحكومة وأبعدته ثم أغلقت المسجد الذى بناه ، فان كان الرجل بالفعل مختلساً وأصبح من المحتم إبعاده او فصله ، أو حتى وضعه وراء قضبان السجون ، فلماذا أغلق المسجد ؟ أما كان الاجدر أن تتركه قائماً وتصب غضبها على المختلس وحده ولا تعاقب المسلمين غيره بغلق أبواب المسجد فى وجوههم ؟ .

ولم يفكر أحد من الكتاب الغربيين بطبيعة الحال فى أن يقول للافارقة أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى أوروبا بواسطة تجار أوروبيين تخصصوا فى جلب العبيد من غرب أفريقيا لبيعهم إلى السادة فى بلادهم ؟ ولم يصف أحد منهم الطريقة البشعة التى كانوا يحملونهم بها ويشحنونهم شحناً فى سفنهم ولسنا فى حاجة إلى وصفها هنا ، لأنها أمر معروف ومعاد ، ولا ضرورة للكلام فيه .

وفى هذا الكتاب نرى المؤلف لم تفته الإشارة إلى أن التجار العرب لم يشتركوا من قريب أو من بعيد فى الإغارات التى كانت تقع فى الغابات لاقتناص العبيد وصيدهم ، وبالتالى فإن دورهم اقتصر على شرائهم من بائعيهم من الوطنيين ثم حملهم فى سفنهم .

ومن المعروف أن ليس كل من أخذوا كانوا عبيداً بل أن عدداً كبيراً منهم أصبحوا جنوداً . ففى عام ٧٥٠ ميلادية كان فى بغداد عاصمة الخلافة

الإسلامية أربعمائة جندى من أهالى شرق أفريقيا بين جند الخليفة هارون الرشيد .

فان كان الرق قد ترك بصماته على المجتمع فى شرق أفريقيا كما يقول الأستاذ ترمنجهام ، فجعل السادة رغم إلغائه ، يتميزون بالكبرياء والأنفة ، ووصم العبيد السابقين وسلالاتهم بوصمته ، فما هو الحال فى المجتمعات الغربية التى كانت تروج فيها تجارة العبيد ؟ وأين نرى التفرقة العنصرية ، وأين نبعث ومن الذى خلقها وأوجدها ؟ هل هم العرب الذين ابتكروها ، أم أنها خُلقت ونمت وترعرعت فى المجتمعات الاستعمارية ، وما زالت قائمة فيها إلى اليوم ؟ !

محمد عاطف النواوى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المجالات الثقافية فى القارة الأفريقية

تنقسم القارة الافريقية إلى سبع مجالات ثقافية تبعاً لتغلغل الإسلام وانتشاره[1] ، وتختلف باختلاف الأجناس والثقافة السائدة فى البيئة ، ثم باختلاف تأثير الإسلام فى كل منها :

١ — المنطقة المصرية ، وتعتبر الثقافة الإسلامية الاساسية فى الشرق الادنى وفيها تتبدى الثقافة النيلية المصرية متمثلة فى حياة الفلاحين .

٢ — المنطقه المغربية فى شمال أفريقيا ، وتنتسب إلى ثقافة البحر الابيض المتوسط ، ويبدو فيها أثر البربر .

٣ — منطقة السودان الغربى .

٤ — منطقة السودان الاوسط .

٥ — منطقة السودان الشرقى أو السودان النيلى .

٦ — منطقة الحاميين Hamites الشماليين الشرقيين : أرتريا وأثيوبيا والصومال . وينتشر فيها المسلمون الرحل من سهول القرن الشرقى .

---

(١) يفرق الكتاب العرب بين : ا ـ البيض فى شمال افريقيا والصحراء ب ـ السودان وهم السود فى غرب ووسط السودان . جـ ـ النوبيين وهم النوبيون النيليون ـ ى ـ البيجا Beja وهم الرحل فى شمال الحبشة . هـ ـ الاحباش ـ والبرابرة وهم الحاميون الذين يعيشون فى القرن ـ ز ـ الزنج وهم البانتو . المترجم

٧ — منطقة شرق أفريقيا ، وينتشر فيها الإسلام السواحيلى[1] .

وتقع دول المنطقة الاولى على ساحل البحر الابيض ، وهى دول إسلامية برغم وجود أقليات غير مسلمة ولاسيما فى الجزائر ومصر .

والمثل يقال عن المنطقة الثانية ، وهى منطقة الصحراء ، فإنها مسلمة أيضاً وينتمى سكانها — وأغلبهم من البيض — إلى الثقافة المغربية .

وتقع المنطقة الثالثة فى شمال السودان (بين خطى عرض ١٠°، ١٦° شمالا) عبر القارة كلهـا ، وهنا نصل إلى أفريقيا السوداء ، حيث وصل الإسلام إلى أقصى درجات عمقه وتأثيره ، واجتذب من الاتباع عدداً أكثر مما وصل إليه فى أية منطقة أخرى من أفريقيا السوداء ، وتنقسم هذه المنطقة إلى ثلاثة أقسام: غرب السـودان ، ووسـطه ، ثم السودان الشرقى أو النيلى ، ويختلف القسم الأخير فى ثقافته الإسلامية إلى حد كبير عن القسمين السابقين بسبب استيعاب عنصر الحاميين القوى الموجودين فى الشمال للثقافة العربية ، والدين الشائع فيه يقوم على الطرق الصوفية والتعاليم الروحانية وما يتبعها من الاعتقاد فى المشايخ والأولياء ، وهى ملامح لم تنتشر فى ثقافة القسمين الآخرين من السودان ، ولم تتخذ لنفسها فيهما جذوراً عميقة .

أما بالنسبة للمنطقة الثالثة الواقعة فى السودان الجنوبى — وتمتد غرباً إلى الساحل الغينى عند ساحل أفريقيا الاستوائى الغربى — فإن المسلمين أقلية ، رغم أن الإسلام قد انتشر فيه انتشاراً مرموقاً وملحوظاً ، خصوصاً بين قبائل

---

(١) يقصد بالاسلام السواحيلى : اتخاذ المسلمين هناك لغة تعرف الآن بالسواحيلية وهى مزيج من العربية واللهجات المحلية الاصلية (المترجم) .

اليورويا Yoruba غرب نيجيريا وفى سيراليون . وفى وسط أفريقيـــــا يقل المسلمون كذلك .

أما فى الساحل الشرقى ، فإن ثمة جمهرة إسـلامية تنتشر جنوباً إلى شرق أفريقيا البرتغالى ، وتمتد فى الداخل إلى تنجانيقا .

وهذا الـكتاب ، سوف يقدم إلى القارىء ، هذا الإسلام الممتد على طول ساحل شرق أفريقيا وفى الجزر المواجهة له . .

الفصل الأول

عرض تاريخي

١ — التجار المسلمون والمستوطنون الأوائل :

يرتبط تاريخ الإسلام فى شرق أفريقيا بالمحيط الهندى أكثر من ارتباطه بتاريخ القارة الأفريقية نفسها ، ذلك أن الذين حملوا الإسلام إلى تلك المنطقة وفدوا عن طريق المحيط الهندى واستوطنوها ثم كونوا بامتزاجهم بعضهم ببعض من ناحية ، وبامتزاجهم بالأفريقيين من ناحية أخرى ، شعبا جديداً له خصائصه وحياته وثقافته ، ثم أصبحت له بعد ذلك حضارته التى نعرفها الآن بالحضارة السواحيلية . ولن نورد هنا تاريخا تفصيليا لكيفية استيطان الساحل الأفريقى الشرقى ، فان هذا التاريخ إما أن يكون مجموعة من القصص شبه الأسطورية ؛ وإما أن يكون سرداً لغزوات حربية ، أو تاريخ حياة الحكام الذين توالوا على المنطقة،ومع ذلك فإنه لا يروى سوى القليل عن تلك الشعوب التى كانوا يتاجرون معها ، ولذلك نؤثر أن نلم بكنه الحياة التقليدية التى يحياها السواحيليون ،إذ تساعد معرفتها على إعطائنا صورة عن مدى الاستقرار فى تلك المنطقة ، أفضل من الصورة التى يقدمها لنا الجغرافيون فيما خلفوه من وثائق وملاحظات .

ويعنينا هنا أساساً استكشاف العوامل التاريخية التى نستدل منها على تأثير الإسلام فى تشكيل الحياة الإجتماعية السواحيلية ، كتقدمة تقودنا إلى دراسة الإسلام فى شرق أفريقيا فى وقتنا المعاصر .

ثمة ثلاث فترات أساسية فى تاريخ الثقافة الإسلامية فى شرق أفريقيا :

الفترة الأولى :

تتضمن استيطان المسلمين الأول فى الأماكن الساحلية التى خضعت لحكم « الزنج » — وهو الاسم الذى يطلق على قبائل البانتو فى الخليج الفارسى — وقد اعتنق بعضهم الإسلام .

والفترة الثانية :

ويمكن أن تسمى بالفترة الشيرازية[1]، وهى التى انتهت بتكوين مجموعات صغيرة على الساحل وفى جزر القمر ، وهناك أقامت نمطاً من الثقافة الإسلامية ثم حل الإستعمار البرتغالى ، فانقطع بسببه الطابع العادى للحياة فى المنطقة .

أما الفترة الثالثة :

فهى التى اعقبت انهيار الاستعمار البرتغالى ، إذ تزايد النفوذ السياسى لعمان ثم أنشئت دولة زنجبار مما أدى إلى إعادة تشكيل الحياة الشيرازية المنهارة وإلى سيادة المذهب الإسلامى الشافعى[2] ، وفى نفس الوقت شرع المسلمون الآسيويون يلعبون دوراً متزايداً كمستوطنين ، وبرغم أن دورهم فى حياة البلاد ، له أهمية إقتصادية تفوق إلى حد بعيد أهميته الدينية ، فلقد جلبوا معهم إنقساماتهم الدينية فكان أن انبعثت العنصرية الدينية فى أشد صورها وأجلاها .

* * *

(١) نسبة الى شيراز وهى منطقة فى جنوب ايران يسكنها الجنس العربى (المترجم)

(٢) ينتشر المذهب الشافعى فى جميع انحاء أفريقيا الشرقية بتأثير مهاجرى اليمن الذين تأثروا بدورهم بمصر التى نشأ المذهب فيها (المترجم)

ولقد كان الوصول إلى الساحل الشرقى للقارة الأفريقية من الأمور السهلة الممكنة عبر المحيط الهندى رغم أن الوصول إليه بالطريق البرى كان أمراً مستحيلا بسبب وجود دولتى النوبة وأثيوبيا المسيحيتين على حدود مصر الجنوبية ، وبسبب النباتات الطافية التى تسد مجرى النيل الأبيض ، بالإضافة إلى المناطق الشاسعة التى تسكنها أعداد قليلة من الرعاة والزراع الغير متجانسين ويعيشون حياة ذات طابع دائم التغير . كما أن الغزو العدوانى الذى قامت به قوات زمبا Zimba من داخل القارة ضد المناطق الساحلية فى نهاية القرن السادس عشر ، وسجله البرتغاليون فى وثائقهم ، يزيد من كثافة الظلام الذى يحيط بتلك المنطقة .

كان الوصول إلى ساحل شرق أفريقيا يتم إذن عبر المحيط الهندى وليس عن طريق سواه ، وكانت التجارة دائماً هى الهدف الأساسى الذى يدفع التجار إلى الاتصال به والابحار إليه ، ولذلك نشأ عاملان أساسيان يتحكمان فى الصلة التى قامت بين دول المحيط الهندى، وبين الساحل الشرقى للقارة الافريقية هما: الرياح الموسمية ،وهى الرياح التى تتحكم باتجاهاتها وأوقاتها فى السفر من الساحل وفى الإبحار إليه ، ثم المنتجات الافريقية التى كان التجار يأتون من بعيد لجمعها والحصول عليها .

فاتجاه الرياح الموسمية من الشمال الشرقى لمدة أربعة شهور من السنة ، ثم من الجنوب الغربى لأربعة شهور أخرى ، يسر الملاحة بين الخليج الفارسى وساحل شرق أفريقيا ولقد أمكن لسكان تلك المناطق التنبؤ بأحوال الجو منذ العصور الأولى وقتما نشأت اتصالات بين سكان الساحل الشرقى لأفريقيا وسكان جنوب الجزيرة العربية والخليج الفارسى ، ثم مع الهند واندونيسيا والصين ، وهو ما قامت عليه الأدلة فى المكتشفات الأثرية التى وجدت فى

فى شرق أفريقيا . كما أن فريقاً من سكان حضرموت الذين تفصلهم الصحراء عن داخل الجزيرة العربية دفعتهم متطلبات الحياة إلى أن يولوا وجوههم شطر البحر سعياً وراء الرزق .

وبالأحرى ، فانه عندما اعتنق العرب الاسلام كانت لديهم الامكانيات التى سهلت لهم نشر الدين الجديد عن طريق البحر واستغلوا الطرق البحرية التى ساعدتهم فى نشر الإسلام حتى جزر الهند الشرقية . كذلك أدى اتصالهم بالحاميين الرحل (البربر) على ساحل البحر الاحمر والقرن الشرقى لأفريقيا إلى هدايتهم إلى الاسلام ، كما لايمكن تجاهل ما أدى إليه تأثيرهم فى قبائل البانتو عبر قرون من الاتصال الدائم المستمر ، من انتشار الاسلام بينها .

هذا عن الرياح الموسمية كواحد من عاملين يتحكمان فى الاتصال بين دول المحيط الهندى وساحل أفريقيا الشرقى ، أما العامل الثانى وهو المنتجات التى يتم التبادل فيها بمنتجات أفريقية ، فقد كانت العطور والبخور فى الأزمنة القديمة ، من المنتجات الأولى التى دفعت التجار للوصول إلى سواحل الصومال[١] والتردد عليها؛ فإلى جانب إستخدامها فى صناعة الأدوية والعطور ، كانت ضرورة لازمة فى إقامة الشعائر والطقوس الدينية ، ولقد لعب سن الفيل[٢] الافريقى دوراً يعادل فى أهميته الدور الذى لعبه البخور فى اجتذاب التجار إلى ساحل شرق أفريقيا ، وتبع ذلك الاتصال بالمناطق الجنوبية والإتجار فى منتجات أفريقية أخرى مثل الخشب وجلد الفهد والعنبر والذهب والعبيد .

(١) يذكر اليعقوبى فى « كتاب البلدان » أن عنبر الزنج يأتى فى المرتبة الثانية بعد عنبر الشحريين .

(٢) يذكر المسعودى فى « مروج الذهب » أن العاج كان يؤخذ إلى عمان ومن هناك يعاد تصديره إلى الهند والصين .

وبسبب هذا التبادل ، استقر عرب جنوب الجزيرة فى عدد من الأماكن على طول الساحل ، وأنشأوا مستوطنات استمروا فيها بعد ظهور الاسلام ، ويشير تاريخ الخلفاء الى أن العبيد من الزنوج كانوا يصدرون الى الخليج فى أعداد كبيرة ، ومن المحتمل انه كان يعاد تصديرهم مرة أخرى من هناك . كذلك ورد فى سجلات مدينة كيلوا Kilwa أن عدداً ممن يسمون أنفسهم بأتباع زيد[1] جاءوا من منطقة الاحساء على الخليج فى القرن العاشر والمظنون انهم كانوا من السنيين الذين فروا هربا من الصراع الدينى أيام الخلافة العباسية وهم المقول بأنهم المؤسسون الأول لكل من مقديشو وماركا وباراوا ، ثم جاءت مجموعات أخرى فى تاريخ لاحق بعد ذلك واستوطنت فى جزيرة كيلوا والجزر الجنوبية ، ويقال أن تلك المجموعات وجدت فعلا فى مدينة كيلوا — عندما وصلوا اليها — مسلماً يدعى منيرى وابارى استقر هو وعائلته وأقام بها مسجداً ، ويقال أن الحضارة التى أنشأوها هى نفس الحضارة التى وجدها البرتغاليون عندما احتلوا كيلوا فى عام ١٥٠٥ ، ولقد امتد نفوذ تلك المدينة شمالا حتى زنجبار وجنوبا ليشمل محطات تصدير الذهب على ساحل سوفالا Sofala .

ولقد كانت مدينة كيلوا موجودة فى أيام ياقوت الذى أشار إليها فى معجمه فيما بين عامى ١٢١٢ و١٢٢٩ بلا تعليق وقال عنها فقط أنها مدينة فى أرض الزنج ، مع انه من المعتقد أن حكام كيلوا فى ذلك الوقت كانوا من المسلمين ، ومن الواضح أنه حتى ذلك الوقت لم تكن هناك حضارة إسلامية أقيمت فى أى مكان على الساحل سوى فى ميناء مقديشو .

---

(١) ورد فى هذه السجلات انه حوالى عام ١٢٢ هـ / ٧٣٩ — ٧٤٠م استوطن اتباع حفيد النبى (صلعم) زيد بن على بن الحسين المتوفى عام (٧٤٠م) فى شانجايا جنوب ساحل البنادير ولعدم رغبتهم فى الخضوع للمستوطنين العرب الذين وصلوا بعد ذلك الى مقديشيو فقد انتقلوا إلى الداخل حيث امتصوا بواسطة الاهالى ويقال انهم هم اسلاف قبائل جونيا على الساحل وفى الجزر شمال لامو .

إلا أنه نتيجة لانتشار حضارة البنادير الشيرازية تجاه الجنوب ، حل الحكام المسلمون تدريجياً محل الزنج فانتشرت الحضارة الإسلامية مما ساعد على انتشار الإسلام بعد ذلك من المدن ، إلى القرى فى الداخل .

ولم تكن تلك الحضارة موجودة جنوب مدينة باتى Pate عندما قام ابن بطوطة بزيارة الساحل عام ١٣٢٩ ، فهو يحدد ساحل بربارا كامتداد من زايلا إلى مقديشو ، وفى مقديشو وجد سلطاناً يسمونه « الشيخ » وهو من الحاميين البربر ويتكلم لغة مقديشو ولكنه كان أيضاً يعرف اللغة العربية ، ومن هناك اتجه إلى مدينة كيلوا فى بلاد «الزنوج» وفى الطريق أمضى يومين فى ممباسا التى كان أهلها شافعيين يتصفون بالورع بدليل أنهم أقاموا المساجد . ثم سافر إلى كيلوا وهو يصفها بأنها « مدينة كبيرة حسنة البناء ، ومعظم مبانيها من الخشب يسكنها شافعيون متدينون أتقياء مشغولون غالباً بالحرب مع الزنوج الوثنيين[١] . وكان سلطانها متواضعاً وكريماً جداً » . ولم يقم بن بطوطة بزيارة سوفالا ، فقد قيل له انها على مسافة إبحار أسبوعين من مدينة كيلوا .

ويقول المؤلف أن ملاحظات ابن بطوطة ملاحظات واهية مع أنه لا بد أن يكون قد أمضى أربعة شهور على الساحل فيما بين اختلاف اتجاه الرياح الموسمية، ونحن نقول أنه إن كانت إشارته إلى المبانى والمساجد الخشبية فى مدينة كيلوا وممباسا صحيحة فلابد أن الحضارة الشيرازية لم تكن قد نشأت بعد ، أو على الأقل لم تكن قد اتخذت طابعها المحدد فى عام ١٣٢٩[١] عندما قام ابن بطوطة بزيارته .

---

(١) يقول بن بطوطه انهم مشغلون بالحرب مع الزنوج ، اما المؤلف فيستنتج أن هذه الحرب لابد أن تكون هى الغارات التى يقومون بها على الزنوج لاقتناص العبيد (المترجم) .

(٢) تصف بعض المصادر البرتغالية القديمة (١٥١٨م) مدينة كيلوا بأن مبانيها من الحجر =

ولا توجد سوى بعض الأدلة الأركيولوجية القليلة على تأثير الحضارة الفارسية جنوب ساحل البنادير قبل القرن الثالث عشر سوى فى مسجد بجزيرة زنجبار وفى قصر جوسونى كوبوا فى جزيرة كيلوا .

ولم يُلق سوى القليل من الضوء أمامنا على الوسائل التى كان التجار يتبعونها فى الحصول على شحناتهم من العبيد والعاج والذهب ، ومن المعتقد أن الحكام الزنوج للموانى السوفالية كانت لديهم أسواق مختلفة يحمل إليها العبيد والذهب من الداخل ، ويبدو أن بعضهم كان يقوم بالإغارة على القرى والمدن لاقتناص العبيد . وهناك طريقة أخرى لا يعتقد بأن تكون مصدراً منتظماً للحصول على العبيد ، وهى إغراء التجار للزنوج — أطفالاً وبالغين — بالصعود إلى سفنهم ثم الإبحار بهم [(١)] .

ويقول الإدريسى أن سكان الخليج الفارسى كانوا يرسلون القوافل والحملات ضد الزنوج ، لكن لا يوجد ما ينبىء بأن التجار أرسلوا قوافل إلى الداخل أو كانت لهم علاقات مباشرة مع سكانه سوى من سوفالا حتى مناطق إنتاج الذهب فى روديسيا ، ومن المعتقد أن الطريق الرئيسى لتجارة الذهب أنشأه الأفريقيون وليس التجار أنفسهم ، إلا أن تداعى دولة ما كالانجا الذى عجل الغزو البرتغالى به قد قلل من إرسال شحنات الذهب وادى إلى تغيرات جوهرية فى المجتمع كله ، عندما اخذ مسلمو الساحل يتغلغلون إلى الداخل [(٢)] ويحملون معهم إلى السكان ديناً جديداً ... !

= والرخام ولها نوافذ متعددة حسب « طابعها » وشوارع منسقة واسقف مستوية وأبواب من الخشب المحفور جيداً .

The Book of Durate Barbosa , Hakluyt 1918

(١) أنظر الطريقة العجيبة لاقتناص أخذ العبيد من سوفالا عام ٩٢٣م ومغامراته بعد ذلك فى كتاب « عجائب الهند » لابن شهريار .

(٢) وجد البرتغاليون مستعمرات صغيرة فى عام ١٥١٣ فى Sena على مسافة مائة ميل من =

٢ — دول المدن السواحيلية (١)

أدى تزاوج كل من المستوطنين العرب والفارسيين — على قلة عددهم — مع نساء البانتو إلى خلق شعب جديد هم السواحيليون الذين أصبحت لغتهم هى اللغة الشائعة فى الساحل ثم لغة شرق أفريقيا بعد ذلك . إن العرب الذين تغلغلوا فى شمال افريقيا وفى موريتانيا ووسط وشرق السودان هاجروا فى جماعات وعائلات ، ومن هنا جاء تأثيرهم فى تغيير لغة البربر وثقافتهم . اما المهاجرون الذين استوطنوا سواحل شرق افريقيا فقد جاءوا فرادى ، ولذلك لم يكن من المستغرب انضواؤهم تحت لواء لغة البانتو مع أنهم كانوا مهتمين إلى درجة كبيرة بالتمسك بالتمايز عن الافارقة وبكبرياء العربى بنسبه وأسلافه .

ومن المحتمل أن تكون اللغة السواحيلية قد بدأت على ساحل البنادير ثم ساعد الاتصال بين مجموعات المستوطنين وبين بعضهم البعض فى مستوطناتهم المختلفة على وجود تشابه عام بين تلك المستوطنات برغم أن كلا منها اتخذ لنفسه لهجته الخاصة به . والنتيجة كانت نشوء حضارة جديدة بانتو - إسلامية مختلطة و « معجونة » بعناصر عربية فارسية ولكنها احتفظت فى النهاية بملامح البانتو .

وكان الارتباط بحضارات الدول التى جاء منها المستوطنون الأول ، قويا شديداً فعمل الشعب الجديد على تقليد حياة مـــدن جنوب الجزيرة العربية ،

= نهر زامبيزى وفى Tete وقد انهارت تلك المستعمرات عقب الاحتلال البرتغالى ، ويستنتج أن المسلمين على الساحل تبعوا خطوط المواصلات المائية حتى أوقفتهم الشلالات ، وقد اخبرنى توماس برايس أن لغات البانتو عند دلتا نهر زمبيزى تحتوى على عناصر من اللغة السواحيلية لا يشاركهم فيها سكان التلال المجاورة .

(١) كل مدينة كانت دولة قائمة بذاتها ومستقلة (المترجم) .

ومدن الخليج الفارسى ، مع السير فى اتجاهات مختلفة واتخاذ طابع مغاير ناتج عن الاختلاف العضوى والبيىء لهذا الشعب الجديد ، فانتج الشيرازيون حضارة هندسية متطورة جداً للمبانى باستعمال الأسمنت والجير ، كذلك فى أعمال النجارة وغزل القطن وغير ذلك ، وأدخلوا السنة الشمسية وعدداً من الثقافات المختلفة . إلا أنه لا يمكن القول بأن تأثير الشيعة كان قوياً ، وليست هناك أدلة على أن أفراد الطبقة الحاكمة للدول الشيرازية على الساحل كانوا من الشيعة. ويركز ابن بطوطة على أن السواحيليين فى زمانه كانوا شافعيين مخلصين . وكانت أقرب مدن الشيعة هى مدينة زايلا على الساحل الأثيوبى(١) .

أما تأثير الحضارة الفارسية فى البنادير فيؤيده أن جامع أرابا ركن [الركن العربى] فى مقديشو عليه نقوش يرجع تاريخها إلى سنة ٦٦٧ هـ . (١٢٦٨ — ١٢٦٩ م) منسوبة إلى خسرو محمد الشيرازى الذى بناه . وهناك نقوش أخرى تسجل استيطان أحد مواطنى نيسابور Nisapur فى خسروان(٢) وهذا يؤيد الافتراض القائل بأن الحضارة الشيرازية نمت على ساحل البنادير [ساحل أزانيا] وكانت علاقاتها بكل من الهند وجزر لاكاديف ومالاديف، علاقات قوية . ويؤكد الكتاب العرب دور هذه الجزر فى حركة النقل بين الهند وساحل الصومال ، سواء باعتبارها محطات عبور ، أو باعتبارها أسواقاً للموانى الهندية، كما أن الملاحين البرتغاليين بدورهم أكدوا ذلك بعد أن وجدوا سفناً من هذه الجزر راسية فى موانى شرق أفريقيا .

وغير ذلك فقد وصل بعض الملاحين والمستوطنين من أندونيسيا ومدغشقر

---

(١) ابن بطوطة ، ترجمة الاستاذ H.A.R. Gibb ii 373

(٢) أنظر E.Cerulli : Somalia i. 2—3—9

إلا أنهم كانوا أفراداً قليلين لم يلبث المستوطنون الاول أن امتصوهم بعد زمن قصير .

وهناك أدلة قليلة على التأثير الفارسى جنوب مدن ساحل البنـادير ، إلا انه عندما تزايد النفوذ العربى فى قلب المنطقة الشمالية للحضـــارة الشيرازية (مقديشو وبرافا Brava وباتى Pate ولامو) حمل المهاجرون جنوباً هذه الثقافة معهم إلى جزر كيلوا وزنجبار وبمبا Pemba ومافيا،فبقيت تلك الجزر ومعها مدن أوزى وماليندى وممباسا،شيرازية يغلب عليها طابع البانتو حتى بعد الحكم البرتغالى ويبدو من المحتمل أن مجموعات هؤلاء المهاجرين من سكان السواحل الشمالية قد بدأوا هجرتهم إلى الجنوب منذ عام ١١٠٠ واستطاعوا السيطرة على المناطق الوسطى والجنوبية ، وقد جاء فى الأدب الشعبى الشيرازى — وما جاء فى هذا الأدب يعتبر هاما من الناحية الإجتماعية حتى ولو كان موضع شك من الناحية التاريخية — أن سلطانا[١] فارسيا هو الحسين بن على أبجرهو وأولاده الستة فى سبع سفن حوالى عام ٤٠٠ هـ (١٠٠٩م)[٢] وأنشأوا مستوطنات فى المناطق التى نزلوا فيها ، الأب فى هانزوان[٣] بجزر القمر ، والآخرون فى يامبى (جزيرة تواجه مدينة تانجا) وبيلاد وكيلوا وشواجو (شانجا على جزيرة باتى ؟) ، ومانداكا (ماندا كو بين باتى ولامـو ؟) ، والجزيرة الخضراء (بمبا) ومانفاسا أو مانفيا (مافيا ؟) . ومن المحتمل أن تـكون هذه القصة سابقة فى تاريخها على استيطان الشيرازيين السواحيلين الذين جاءوا من ساحل البنادير إلى تلك الجزر واحلالهم محل حكام الزنج .

---

(١) يقول الادب الشعبى أن هذا السلطان قادم من مدينة شونجوايا فى الشمال Shungwaya
Kilwa Chronicle 1892 p.p. 411—12.

(٢) تقول بعض الـكتب الأخرى أن التاريخ هو عام ٩٥٠ ميلادى (المترجم) .

(٣) وقيل ان الاب الحسين بن على نزل فى كيلوا (المترجم) .

كذلك كان الركود الذى طرأ على التجارة سبباً فى المزيد من التدهور فى المستوطنات الشمالية والهجرة جنوباً إلى مناطق أكثر انتعاشاً، وقد أشار الأستاذجيفيرى Gevreyفى Essai sur les Comores (Pondichery 1870) إلى مخطوط عثر عليه فى مايوت Mayotte جاء فيه : « وصلت مجموعة شيرازية تتكون من سبع سفن يقودها محمد بن عيسى[1] ، الأولى نزلت فى ساحل جونيا Gunya أو آمو ، والثانية فى زنجبار والثالثة فى تونجى والرابعة فى كونجى والخامسة فى جزيرة القمر بعد قليل من الاحتلال البرتغالى المؤقت(أى بعد عام ١٥٠٦ ؟) والسادسة فى آنجوان ، والسابعة فى بوينى (شمال غرب مدغشقر) وفوق كل من هذه السفن كان يوجد أمير من شيراز ، وفى جميع البلاد المذكورة كان هناك أمير حاكم »[2] .

ولما كانت المصادر التاريخية التى كتبت قبل دخول البرتغاليين هى مصادر عربية، فان دور المسلمين وخصوصاً ما كان منه يتعلق بعدد المستوطنات العربية جاء مبالغاً فيه ، فالواقع أنه حتى القرن الرابع عشر لم تقم فى الجنوب حضارة إسلامية واضحة المعالم يمكن أن تسمى بالحضارة الشيرازية ، والذى حدث هو أنه تكونت عدة مجتمعات شيرازية كما تمت بعض الهجرات،يقول الأدب الشعبى الشيرازى انها تمت من باتى على مراحل عن طريق كيلوا أو زنجبار .

ولقد قامت معظم المستوطنات فوق الجزر ولم تقم على الساحل كوسيلة وقائية ضد الغزو العدوانى الذى كانت تقوم به القبائل التى تعيش داخل القارة وكانت الرابطة التى تربط ساكنى المستوطنات مع تلك القبائل ، هى علاقة

(١) لاحظ الاختلاف فى هذه القصة (المترجم) .

(٢) اشار إلى ذلك الاستاذ Ch. Sacleux فى القاموس السواحيلى ص ٩٥٧ .

« الرفيق » مثل الروابط التى وجدت بعد ذلك فى أزمنة أحدث بكثير ؛ بين العرب المقيمين على ساحل كينيا وبين قبائل النييكا Nyika وبين الديوانى [١] فى مدينة فومبا [٢] a مع قبائل الديجو Digo والسيجيجو [٣] Sigeju .

وقد تعرضت تلك المستوطنات لتغيرات فى أسواقها التجارية ، فازدهرت حينا وانكمشت حيناً آخر تحت ضغوط التغيرات الاقتصادية أو تبعاً للحروب التى كانت تدخل فيها ، سواء بينها وبين بعضها البعض ، أو بسبب الهجمات التى كانت تقوم بها القبائل التى تعيش داخل القارة ، وبذلك أخذت تلك المستوطنات طابع المجتمعات الطفيلية لقيامها بصورة عشواء اعتمدت على الصدفة وحدها دون أساس متين من العلاقات العضوية الراسخة مع البيئة التى تعيش فيها ، وتدل على ذلك بقايا واطلال مدن كثيرة منها نسيت واندثرت ولم يعد فى الامكان حتى التخمين باسمائها [٤] ، فكانت درجات النجاح والازدهار ، أو التدهور والانحسار لتلك المستوطنات تتوقف على قوى وعوامل إقتصادية خارجية لم تكن لها عليها أية سيطرة ، أو على مدى ارتفاع أو تدهور الروح المعنوية فيها بسبب البيئة الساحلية التى تثير الاعصاب .

---

(١) لقب يطلق على بعض روساء القبائل السواحيليين .

(٢) كانت مدينة فومبا (تسمى الآن فانجا Vanga) مدينة كبيرة تقع على الحدود بين كينيا وتنجانيقا وقد انشأها بعض الشيرازيين الذين وصلوا إليها واستوطنوها عام ١٢٠٠م (المترجم) .

(٣) وقد تكون تلك العلاقة علاقة الجزية ، فتقول بعض الآداب الشعبية أن الماشومفى MaShomvi وهم عناصر شيرازية من البانادير استوطنوا على الساحل عند منطقة باجامويو (فى تانزانيا الآن) بمساعدة الديبولى وهم أول المستوطنين الشرازيين فى مناطق متعددة ومنها زنجبار هوجموا بواسطة قبائل الكامبا الزاحفين من الجنوب ، فلجأوا إلى احد الزعماء فساعدهم على طرد الكامبا إلى الشمال ، وفى مقابل مساعدته أخذوا يدفعون له جزية سنوية (القاموس السواحيلى للاستاذ Ch. Sacleux)

(٤) والمثل على ذلك هو المكان الذى اكتشف فى الحفائر التى قام بها اخيراً الاثرى كيركمان ولم يعثر له على اسم . The Arab City of Gedi; 1953

وكانت هذه المستوطنات دولا مستقلة تحظى بالحكم الذاتى وتتباين علاقاتها بين التحالف والعداء ، وكانت كل من كيلوا وباتى وممباسا تتبادل فيما بينها — بصورة عشوائية بحتة — قيادة بقية المستوطنات عندما تصبح الواحدة منها قوية قوة كافية وبدرجة تسمح لها بمطالبة المستوطنات الأخرى بدفع الجزية . ولقد وصلت كيلوا إلى شهرة تجارية وبحرية منذ القرن الثانى عشر بعد أن زحزحت مقديشو عن سيطرتها على ساحل سوفالا حيث كان يصدر الذهب ، وأصدرت مجموعة لا بأس بها من العملات النحاسية سكت هناك منذ نهاية القرن الثالث عشر وحتى نهاية القرن الخامس عشر(١) ؛ وجاء توسعها الذى بدأ أيام حكم داود بن سليمان (١١٥٠ م) واستمر تحت حكم خلفائه من بعده فى صورة مناطق نفوذ أكثر منه فى صورة حكم مباشر تحت سلطانها ؛ واستمر هذا النفوذ كذلك فى أيام الحكم البرتغالى ، ممتداً فى موانى الجنوب(٢) .

أما فى الشمال فقد أصبحت باتى القوة الكبرى تحت حكم أسرة نابهانى Nabhani Dynasty منذ منتصف القرن الرابع عشر ، توسعت شمالا تحت حكم محمد (الثانى) بن أحمد (١٢٩١ — ١٣٣١) وتوسعت جنوباً تحت حكم عمر بن محمد (١٣٣١ — ١٣٤٧) . وقد استولى محمد الثانى — وهو أول حاكم يحصل على لقب فومو Fumo(٣) — على مدينتى شانجا وفازا Faza وهما

(١) G. S. P. Freeman—Grenville "Coinage in East Africa before Portugese Times." and "East Africa Funds." E. A. Hist I. 31—43.

(٢) يقول دوراتى باربوزا فى كتابه الذى ترجمه الاستاذ Dames 1918 « قبل أن يرسل مولانا الملك حملاته لاكتشاف الهند وكوفالا وكواما [دلتا الزمبيزى] وأنجويا وموزمبيق كانت جميعها خاضعة لحكم ملك كيلوا . »

(٣) لقب رئيس قبيلة .

من مدن جزيرة باتى ، وعلى بعض الجزر المجاورة (كيوايو وندوا) ثم عمل على توسيع دائرة نفوذه تجاه الشمال حول الساحل،فأخذ الجزية من المدن والقرى حتى برافا ومقديشو حيث قيل أنه أقام ممثلا له هناك ، أما ابنه عمر فقد وجه اهتمامه ناحية الجنوب فاستولى على مدن جزيرة ماندا الثلاث وهى ماندا وتاكا وكيتاو ، ثم على دولة أوزى على الساحل فى دولة شاكا التى كان **Liyongo** البطل الأسطورى الذى خلدته الملحمة الشعرية **Utenzi wa livongo** ، قد أنشأها ،ومن المشكوك فيهأن عمر بن محمد قاد حملات ضد ممباسا أو المستوطنات على ساحل مريما **Mrima** ، إلا أنها كانت داخلة ضمن مناطق نفوذه، ومن المؤكد أنها كانت ترسل الهدايا اليه .

وقبل ظهور أسرة نابهانى كانت كل دولة تحكم نفسها بنفسها بواسطة مجلس يتكون من الشيوخ المحنكين ، وبعضها جعلت لنفسها رئيساً يورث الرئاسة لوريثه حسب التقاليد السائدة (كما سيأتى فيما بعد) ، وكان من الممكن أن ترث الرئاسة امرأة ، وكانت مدينة كيتاو تحكمها امرأة أيام حكم عمر بن محمد .

وقد كان شعب جزيرة باتى وحده هو الذى يدين بالولاء المباشر للحاكم أما المدن الأخرى الداخلة فى دائرة نفوذه بما فيها الجزر المجاورة ، فقد كانت تدفع له الجزية فقط إذا كان حاكم باتى لديه من القوة ما يمكنه من طلبها أو فرضها والنبهانيون أنفسهم لم يعينوا حكاماً على مناطق الجزية ، والمثل على ذلك هو مدينة سيو **Siyu** الواقعة فى نفس الجزيرة (باتى) فقد كان لها مجلس الشيوخ المحنكين ولم يكن يحكمها حاكم معين من قبل باتى .

أما مدينة ممباسا فقد وصفها الادريسى — ومن بعده بن سعيد — بأنها مقر ملك الزنج ، والمعتقد أن هؤلاء الزنج هم قبائل النييكا التى كان يعيش منها فى ممباسا قبائل الشانجاموى **Wa Changamwe** والكيلنيديني

Wa kilindini والتانجانا Wa Tangana ، وباعتبار أن أفراد تلك القبائل هم السكان الأصليون لمباسا فقد كانت لهم تقاليد قوية وراسخة حتى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عندما تغيرت الأوضاع وأصبح لهم حكام شيرازيون كان آخرهم شاهو مشاهام بن هشام الذى أطاح البرتغاليون به عام ١٥٨٩ .

ولقد كان نظام الحكم (الحكومة والولاء لها) قبليا لا تراعى فيه الحدود أو الأرض ، والطبقة العليا يحكمها مجلس المحنكين أو العقلاء ، وهم يختارون أرشد هؤلاء المحنكين وينصبونه شيخاً للمجلس ، وقد تستمر هذه المشيخة فى عائلة واحدة دون أن يعطى ذلك إحساساً أو شعوراً بالنظام الملكى . وفى تاريخ ممباسا نجد أن العرب قد أحلوا « الطوائف » محل « المدينة » mji ، وكل طائفة تنقسم إلى اتحادين يضم كل منها عدداً من القبائل ويرأسه تميم[1] ، ومعظم المشاكل كانت تسوى فى مجلس المحنكين ، أما نزاع العائلات فكان يعرض على مجلس يرأسه التميم .

وبقدر ما سمحت به المعلومات التى وصلت إلينا ، لا يبدو أن للاسلام تأثيراً أو يداً فى قيام نظام المدينة — الدولة وحكومتها ، الذى قام وتطور حسب الظروف والأحوال السائدة ، فالمدن البحرية التى قامت فى شكل دول كانت موجودة من زمن طويل على الساحل الأثيوبى ، كذلك فإن الأسس الاقتصادية للمستوطنات التى خرجت إلى الوجود على ساحل شرق أفريقيا ، تطلبت بدورها آفاقاً أوسع وسلطة مستقرة ومركزة ، قادرة على فرض الضرائب والجزية . وكانت السلطة فى دول ساحل البنادير مثل مقديشو وبراقا وسيبيو تتركز فى مجلس للمحنكين ، إلا أن معظم دول ساحل شرق أفريقيا اتخذت لنفسها حاكما ، عادة ما يكون مهاجراً عربياً أو فارسياً حتى يكون

---

(١) لقب رئيس اتحاد القبائل

خارجاً عن نطاق التنافس العائلى ، ويشترط أن يكون مقبولا بمحض الإرادة (مثل باتى) .

وعلاقة السلطة[١] بالمحكومين علاقة قبليـــة أو عائلية ولا علاقة لها بحدود الأرض أو الدولة ، وكان هذا طبيعيا — فالولاء عند العرب قبلى لا يرتبط بالحدود — ما لم يكن ثمة ما يحول دون نشوء سلطات مختلفة داخل الدولة الواحدة ، إلا أن السلطة الأولى التى تحكم الشعب هى سلطة الرؤساء المتوارثة (مجلس المحنكين أو الأماجد) .

ولقد ظهرت الحاجة إلى وجود رئيس أو قائد حربى أو مهاجر من وراء البحار يجمع فى يديه قوة كبرى — دون التخلص من النظام القائم — ليواجه التهديدات الخارجية ويبث الطمأنينية فى النفوس لكى تشعر بالثقة والأمان ، مثل رئيس باتى أو سلطان زنجبار الذى عندما سيطر على السلطة ترك النظم المتبعة كما كانت من قبل .

وسلطة الحاكم مقيدة دائماً بواسطة مجلس المحكنين وهو المجلس الذى كانت له عناصره المختارة من العائلات الخاصة ،وكان هناك وزير أول(شاها) وسكرتير دولة Mwinyi mkuu ثم نائبه Akida وكانت مهام رؤساء العائلات تظهر عند « رسامة »[٢] حاكم جديد أو وفاته،اما القابهم وسلطاتهم

(١) Ufalm معناها سلطة الرئيس Mfalme فى لغةالباتووهى فى الدولة الشيرازية مطابقة لـكلمة Serikali (فى الفارسيةSar-Kari) ثم بعدذلك أستعملت كلمة (dola) وهى الـكلمة العربية « دولة » المستعملةللسطان ، أما « ديوانى Diwani المستعملة للمستشار أو مجلس المحنكين فقد اصبحت القبأ لحاكم الدولة على طول ساحل مريما .

(٢) التعبير الذى استعملة المؤلف enthronization ومعناه ارتقاء العرش وهو غير التتويج Coronation ولم يكن فى تلك الدول طابع الملـكية لـكى اطلق على تعيين الحاكم تعبير « أرتقاء العرش » ولذلك فقدأستعملت لفظ « رسامة » لأنه أقرب إلى إعطاء المعنى الذى قصده المؤلف(المترجم)

ومهامهم الأخرى فكانت تختلف من دولة إلى أخرى .

ونظم الحكام هذه قامت على اساسين :

الأول : توارث الخلافة فى هذا المنصب .

والثانى : القوة الخارقة أو السلطة الإلهية التى يكتسبها الحاكم من مراسم رسامته.

وتقوم هذه السلطة الإلهية بدورها على أساسين ، أحدهما إسلامى ،والآخر أفريقى ، مثل الأساطير التى تدور حول هجرة الشيرازين وأصلهم وأنسابهم ، ورمز السلطان الممنوح للحاكم[1] ، وشعائر استرضاء السلف وتمجيدهم التى تتمثل فى زيارة القبور .

وتميزت المدن الشيرازية بهذا الطابع ومن بينها الدول الواقعة على ساحل مريما والتى استمرت حتى العصور الحديثة ، وما زالت تعكس صورة واضحة لتلك التقاليد . وكانت الدولة تقوم على الحاكم باعتباره المركز الرمزى للقوة الذى يمارس سلطانا يختلف مداه ، ولكنه على أى حال يشمل الشعب الواقع مباشرة تحت حكمه رغم وجود سلطات أخرى قبلية وعائلية بين هذا الشعب ، أما القبائل المحيطة بدائرة سلطانه فتدفع له الجزية .

وليس لدينا سوى القليل عن النظام الذى كان سائداً فى كيلوا ؛ وكل الذى نعرفه هو أنه كان لها أمير ووزير ، وكان منصب الأمير وراثياًذا طابع خاص ، وهو قد يجمع فى بعض الأحيان سلطة كبرى بين يديه ، وهناك

---

(١) تتميز تقاليد الحكم فى المدن الشيرازية « بقرن » قيل انه أستحضر من بلادفارس وطبول ومزمار طويل من الخشب أو العاج أوالبرنز لاستعمالها فى « رسامة » الحاكم الجديد أو عند وفاته . وقد أشير أيضا الى مايسمى «بمقعد السلطة» كجزء من مميزات الحاكم.

موظفون آخرون مثل القاضى والخطيب والمحتسب ، أو الرقيب على الأخلاق العامة .

أما جزيرة زنجبار فيقال أنها كانت فى وقت ما قبل الإحتلال البرتغالى ، محتلة بواسطة عبيد الأرض المحررين الذين كانت أسرة « فقيه الملائكة » تمتلكهم ، وسواء ارتبط هؤلاء العبيد فى الأصل بسكان الساحل المقابل ، أو اختلطوا بالمهاجرين من نفس المنطقة فإننا نجد أن لهم صلات وثيقة من حيث الصفات والعادات واللغة بقبائل مريما فى الشمال وربما بقبيلة زيجوا المجاورة ، كما توجد أماكن كثيرة فى جزيرة زنجبار تحمل أسماء مشابهة لتلك التى تحملها قرى على الساحل مثل بانجانى Pangani وشاراوى Charawe .. الخ ويؤكد الأدب الشعبى انه كانت هناك هجرات من الساحل، والمثل على ذلك أن أهالى مانجا بوانى يقولون انهم من سلالة قبيلة سيجيجو Segeju من إقليم بانجانى ، وأصبح سكان الجزيرة الأصليون يعرفون باسم الخاديميين Wa Hadimu وبسبب سريان العنصر الشيرازى فيهم باتت لهم تقاليد بانتو — إسلامية (هم الذين يطلقون على أنفسهم الآن الشيرازيون Wa Shirazi). وكان لهم رئيس يطلق عليه mfalme ولقبه mwinyi ، وبعد الإحتلال البرتغالى وتغير الأسرة الحاكمة فأصبحت أسرة شيرازية حضرمية هى أسرة شاتيرى Ma Shatiri التى جاءت من جزيرة تشول [إحدى مجموعة جزر مافيا] وطلبت التحالف مع حكام كيلوا، بعد هذا أصبح يطلق على الرئيس لقب « السيد الأكبر »[1] Mwinyi mkuu وحصلت النساء فى وقت من الأوقات على سلطات كبرى بالتحالف عن طريق الزواج بأحد ملوك أوتندو (تقع على الساحل على بعد عشرة أميال من سادانى)

(١) أنظر القاموس السواحيلى ص ٦٢٢ ــ ٦٢٢ للاستاذ Ch. Sacleux

وكان السيد الأكبر محاطاً بهالة الحاكم المقدس التى كان يحصل عليها فى طقوس الاحتفال برسامته باستعمال القرون الخشبية المقدسة والطبول ، ويذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، وكان مقره فى كيزى مكازى Kizimkazi جنـوب الجزيرة ولكنه منذ عام ١٨٥٥ انتقل إلى دونجا بالقرب من وسطها .

وكان هذا النظام متبعاً كذلك فى باقى مجموعة جزر زنجبار ، وهناك اطلال كثيرة من جزيرة تومباتو Tumbatu تشير إلى سابق وجود مدينة هامة فى بداية القرن الثالث عشر . ويذكر ياقوت فى تأريخه لجزيرة أونجوجا Unguja « إنها جزيرة كبيرة فى أرض الزنج حيث يوجد مقر ملك الزنج، وتتجه إليها السفن من جميع الجهات، وقد انتقل أهلها (يقصد حكامها) إلى جزيرة أخرى اسمها تومباتو وأهلها مسلمون[1] . » وهذه المدينة لابد أن تكون قد اندثرت قبل عام ١٥٠٠ بدليل أن البرتغاليين لم يذكروها أو يشيروا إليها فى وثائقهم وسجلاتهم . وفى تاريخ لاحق كان رئيس تومباتو شيها Sheha مستقلا رغم اعترافه بزعامة سيد زنجبار الأكبر .

ويؤرخ ياقوت فى معجمه للجزيرة الخضراء — التى يظن أنها جزيرة بمبا Pemba — فيقول « انها جزيرة هامة تنتمى إلى إقليم الزنج بالمحيط الهندى ويوجد بها مدينتان تسميان متنبى Mtnby ومكنبلو Mknblw ولكل منها سلطان مستقل . » أحدهما كان عربياً .

وعندما جاء البرتغاليون وجدوا خمسة رئاسات على جزيرة بمبا ، وفى تاريخ لاحق لذلك ، اعترفت تلك الرئاسات برئيس واحد أطلقوا عليه لقب ديوانى، وهناك إشارات متكررة فى وثائق البرتغاليين إلى رؤساء من النساء فى بمبا يطلق عليهن Mwana Wa Mwana وقد تزوجت إحداهن فى بداية القرن التاسع عشر من « حسن » سيد زنجبار الأكبر .

(١) ياقوت ــ المعجم ص ٣٦٦ .

وأحياناً كان يصل السكان من سلالة العرب إلى السيطرة على العائلات « الأموية »[1] بسبب نظام الوراثة التقليدى ، وكان من الممكن أن تصل النساء فى قبائل الحاديميين والتومباتو إلى السلطة إذا كن من الوريثات المباشرات حسب التقاليد ، وفى ذلك قيل إن وريثة أسرة حاكمة من الحاديميين تزوجت عربياً من اليمن[2] . كما وصل روجا Ruga منشىء ديوانية فومبا Vumba إلى السلطة عن طريق أمه التى كانت أخت الحاكم وتزوجت والد روجا عام ١٦٧٠[3] . وعندما يتم مثل هذا التغيير فى السلطة ، كانت الأسرة التى ابتعدت عن الحكم تحتفظ بوظائف معينة لها طابع دينى مرتبط بالدولة نفسها مثل رسامة الحاكم الجديد . وفى حالة هذه الأسرة ، فإن رسامة الديوانى الجديد كان يقوم بها كبير أسرة باأميرى . وقد مارس حاكم فومبا الجديد نفس نوع السلطة الغير مباشرة المعتادة على المنطقة الساحلية من كيلينديني إلى كوالى ، كما كانت قبائل الديجو والسيجيجو تدفع له الضرائب والجزية .

وعندما زار فاسكو داجاما المدن الساحلية وجزر المنطقة وما حولها فى عام ١٤٩٨ وجد أن سكانها كانوا من الزراع الافريقيين تحكمهم طبقة متميزة من المسلمين الذين يعيشون حياة رغدة سهلة يحيط العبيد بهم ، كما كانت هنـاك

(١) النظام الاموى matrilineal هو النظام الذى تسيطر فيه الام على العائلة وينسب الاطفال إليها دون الاب حسب التقاليد المعروفة (المترجم)

(٢) هذه الملـكة الحاديمية أبعدت مؤقتا عن مدينتها مع ابنها (أوحليقها ؟) ملك أوتندو بواسطة كابريرا فى عام ١٦٥٣ وخلفها اينها يوسف ولم يعرف ما اذا كان أبوه هو هذا اليمنى الذى تزوجته ، فالزواج من عربى لم يكن بالضرورة يعنى قيام فرع جديد طالما أن فرع الام هو فرع السلطة وهناك شواهد على دولة ثنائية فعندما مات يوسف تولى ابنه بكر حكم الدولة الجنوبية التى عاصمتها كيزى مكازى أما ابنته فاطمة فتزوجت من عبد الله ملك اوتوندو فى الدولة الشمالية J.L, Kraph: Travels p.265

(٣) الاسرة الحاكمة الاصلية فى فومبا كانت تسمى نفسها Bä Amiri ، أى الشيرازية وقد أصبحت بعد ذلك من شجرة حضرمية . وكان الرؤساء يسمون mwana chambi أما بعد تغيير الأسرة تحت حكم روجا فقد أصبح اللقب هو Diwani

محلات تجارية غنية بالبضائع يملكها هنود من جيزورات Gujerat وكوتش Cutch وغيرها ، يبادلون بضائعهم المستوردة بالعاج وعظم السلحفاة وغيرها من المنتجات المحلية ، كما كانت المزروعات هي أشجار جوز الهند التي تستخدم أليافها في صناعة الحبال ، والبرتقال وغيره من الموالح وقصب السكر والسمسم والأرز . أما الحيوانات فكانت المواشي والأغنام ذات الرؤس السوداء الفارسية الأصل ، والماعز والدجاج .

وفي ذلك الوقت كانت زنجبار ذات أهمية اقتصادية ضئيلة بدليل أن البرتغاليين في تحديدهم للجزية التي تدفعها كل دولة من دول المنطقة فرضوا عليها مائة مثقال فقط في الوقت الذي طالبوا فيه كيلوا بدفع ألفي مثقال ، وفرضوا على ممباسا ألفاً وخمسمائة مما يدل على أن كيلوا وممباسا كانتا تمران بفترة من الازدهار والتقدم والانتعاش ، في الوقت الذي كانت زنجبار تمر فيه بفترة من الانكماش والانحسار !

٣ — الفاصل البرتغالي وما تلاه

تعطل التوازن والاستقرار اللذان كانا يسودان كلا من الحياة التجارية والعلاقات الداخلية بين المستوطنات المختلفة في نهاية القرن الخامس عشر بوصول البرتغاليين[١] . وفي عام ١٤٩٨ أقاموا علاقات صداقة مع حاكم ماليندي الذي

(١) قبل وصول البرتغاليين بقليل كان هناك نشاط لبعض المماليك من مصر على الساحل. ففي عام ١٥٠٨ وجد تريستاو دا كونها Tristao da Cunha أن مشايخ ممباسا واوزي يعترفون بالمماليك كأسياد المنطقة ، فاتبع سياسة تأييد مشايخ كيتاو Quittau وماليندي ضد مشايخ ممباسا وأوزي ليساعد على ابعاد التجارة المصرية . وقد جاء تأييد العثمانيين الاتراك لهم بعد ذلك للسيطرة على المحيط الهندي متأخراً فقد وجدوا البرتغاليين قد استقروا فعلا وأصبح نفوذهم يطوق شرق افريقيا . وكانت هناك محاولة لمواصلة نشاط المماليك ، اذ يسجل مونكلارو إغارات تركية وصلت حتى ماليندي قبل عام ١٥٦٩ ثم جاء الغزو الشهير الذي قام به الامير على بك ووصل الى ممباسا وبمبا في ١٥٨٧ — ١٥٨٩ الذي نتج عنه ابعاد البرتغاليين مؤقتا ، وكان هذا النشاط سببا في تمسك البرتغاليين بالساحل وقيامهم ببناء قلعة المسيح فوق جزيرة ممباسا بعد ذلك

رأى فيهم وسيلة تساعده ضد شيخ ممباسا . وفى عام ١٥٠٥ استولى دالميدا d' Almeida على كيلوا ونهب ممباسا وأحرقها ، ولم يأت عام ١٥٣٠ إلا وكان الساحل كله تحت سيطرة البرتغاليين .

وفى تلك الفترة ظهر فريق من المغيرين النهابين من قبيلة تدعى قبيلة زمبا Zimba قادمين من جنوب زمبيزى ، وقد أتوا على كل ما فى المناطق العربية والبرتغالية فى سينا Sena وتيتى Tete ، ثم اتجهوا شمالا . وفى عام ١٥٨٧ قاموا بمذبحة بين أهالى كيلوا وهى كارثة لم تفق منها تلك المدينة أبداً ، وقد وصلوا إلى حدود ممباسا قبل أن يحطم البرتغاليون أسطول على بك بقليل ، وكانوا هم المسئولين أيضاً عن مذبحة ممباسا ، وبعد عامين ، عندما كانوا يهاجمون مدينة ماليندى خرجت قبيلة السيجيجو بمساعدة البرتغاليين وقاتلوهم وهزموهم وبذلك اختفوا تماماً من تاريخ شرق أفريقيا .

وقد أثرت تلك الأحداث تأثيراً خطيراً على المنطقة ، فقد كانت سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندى سبباً فى تدهور التجارة فى مدن الساحل ، كما أن عدوان الزمبا Zimba كان عدواناً تخريبياً مدمراً . وكذلك الحروب الداخلية والعمليات الانتقامية التى كانت تتم فى أعقاب الثورات ، سببت بدورها الكثير من الخراب المادى ، كما تأثر الجزء الشمالى أيضاً بتقدم قبائل الجالا Galla ، وقد بدأ ضغطهم منذ حوالى عام ١٣٥٠ على قبائل النييكا وكانوا وقتها يقطنون جنوب الصومال (فى شونجوايا Shungwaya). وفى عام ١٥٧١ كانت قبائل السجيجو خارج ماليندى وتحالفت مع البرتغاليين ثم مع كل مدينة من مدن الساحل ضد المدينة الأخرى . وفيما بين ١٦١٠ و١٦١٢ غزا موسونجولوس Mossungulos من قبيلة زيجولا ، جزيرة ممباسا ودمرت قبائل الجالا مدينتى أوزى وكيليفى Kilifi بين ١٦٠٠ و١٦٥٠ وحولت ماليندى إلى

كومة من الاطلال . كل ذلك أدى إلى تدهور الثقافة الشيرازية ومهد الطريق للحضارة الحضرمية لتدخل المنطقة وتسودها .

وكانت ممباسا أهم دولة تركزت فيها مقاومة الاحتلال البرتغالى فى تلك الأيام،وبرغم أنها تدهورت مرات عديدة،لكنها كانت دائماً تقف على قدميها وتعيد من جديد ازدهارها . وبعد هزيمة الزيمبا قرر البرتغاليون أن يجلوا منها نقطة ارتكاز فى الشمال ، فأقالوا شيخها الشيرازى عام ١٥٩٢ ونصبوا عليها الشيخ أحمد شيخ مالبندى وأقاموا فيها قلعة قوية سميت بقلعة المسيح ، وقد وسعت ممباسا نطاق نفوذها تحت حكم مشايخ مالبندى ، وشمل هذا النفوذ جزيرة بمبا التى كانت مصدراً هاماً لخشب البناء والحبوب ، وبالإضافة إلى التحصينات التى أقيمت عليها فقد كانت تقع خارج نطاق غزوات وغارات قبائل الجالا . وكان لباتى أيضاً مركز هام باعتبارها النقطة التالية للمقاومة .

ومع أن البرتغاليين لم يحتفظوا لأنفسهم بوظائف عديدة ولم يحكموا حكماً مباشراً ، لكنهم سيطروا على الساحل برغم الثورات المتعددة حتى عام ١٦٥٢، ولتلك السنة دلالة معينة ، فقد جلبت معها أول تدخل لعرب عُمان الذين طردوا البرتغاليين من أراضيهم عام ١٦٥٠ وأصبحوا قوة ملموسة فى المحيط الهندى . وفى عام ١٦٥٣ ساند إمام عمان حكام كل من بمبا وزنجبار واوتوندوا فى الثورة ضد البرتغاليين ، وفى عام ١٦٦٠ طلبت باتى المساعدة فقام أسطول عمانى بالاستيلاء على فازا Faza وحاصر قلعة المسيح ، واستمرت الحرب حتى سقطت ممباسا فى عام ١٦٩٨ بعد حصار طويل، ونصبت سيف بن سلطان ، نصر بن عبدالله المزروعى حاكما لها ، وبعد ذلك بقليل استطاع العرب أن يضعوا قوات فى كيلوا وزنجبار وبمبا ففقد البرتغاليون نتيجة لذلك سيطرتهم على الساحل .

وكانت العلاقات بين العمانيين والمدن الساحلية مختلفة وغير محددة ، فقد

كانت الصراعات الحزبية المتصلة التى كانت من العلامات البارزة المتوطنة فى السياسة العمانية سبباً فى الإقلال من نفوذ العمانيين ، فاكتفوا بتعيين عملاء أو وكلاء عنهم لرعاية مصالحهم والمحافظة عليها دون السعى وراء الحكم أو السيطرة المباشرة، وقد استجابت أسرة يعروبى، وهى الأسرة الحاكمة بعد عودة البرتغاليين القصيرة الأمد إلى ممباسا (١٧٢٧ — ١٧٢٩) إلى رجاء وفد من كل من زعماء ممباسا وقبائل النييكا وعينت محمد بن سعيد المميرى حاكما على ممباسا (١) . وفى عام ١٧٣٩ عين فى هذا المنصب أحد أفراد أسرة المزروعى هو محمد بن عثمان ، وبعد زمن قصير ، فى عام ١٧٤١ انتقلت السلطة فى عمان من أسرة اليعروبى إلى أسرة بوسعيد ، إلا أن الحاكم المزروعى احتفظ بولائه لليعروبيين وظلت ممباسا مستقلة حتى عام ١٨٣٧ .

وفى نفس الوقت دخل المزروعيون فى صراع على السلطة مع حاكم باتى النابهانى ، مما أثر على المنطقة الشمالية كلها واستطاع أحد المزروعيين الاستيلاء على جزيرة بمبا حوالى (١٧٤٨ — ١٧٥٠) . ولم يعد هناك غير زنجبار التى اعترفت بسيادة عمان، فعينت عليها حاكما وأعطته حق جمع الضرائب ، وفى عام ١٨٧٠ حدث تغير واضح فى سياسة عمان وأصبحت كيلوا أكثر أهمية بسبب تجارتها مع فرنسا (٢) فعينت عليها حاكما فى عام ١٧٨٤ .

أما الشيرازيون فى كثير من المستوطنات على سواحل تانجا وبانجانى ومريما ، فقد قل عددهم أو اختفوا تماماً فى بعض المواقع نتيجة للحروب والمجاعات

(١) Arabic History of Momhassa, quoted in W.F.W. Owen Narrative.

(٢) يوضح التاجر الفرنسى موريس أنه كانت هناك تجارة لابأس بها فى العبيد والعاج تجلب الى مواقع على الساحل خصوصاً كيلوا ، وكتب فى ١٧٧٥ يقول « فى مارس وأبريل كان العرب و المراكشيين (المور هم جنس من المسلمين المختلطين بالبربر ويقطنون شمال غرب أفريقيا) يحضرون إلى كيلوا للتجارة فى العبيد لانها نقطة التجمع للعبيد الذين يجلبون من داخل القارة . »

والأوبئة ، إلا أن غيرهم من الشيرازيين المقيمين فى جهات أخرى جاءوا للاستيطان فى هذه الاماكن المهجورة فى الفترة التى أعقبت الحكم البرتغالى ، وعملوا على إحياء فومبا وغيرها من مدن وقرى الساحل . ويقول السكان الحاليون فى تونجونى Tongoni (عشرة أميال جنوب تانجا) — حيث توجد أطلال بعض المقابر والمساجد[١] — إنهم من أصل شيرازى ليس نتيجة لانتمائهم إلى السكان الأصليين وإنما نتيجة الهجرة من أماكن شيرازية أخرى ، ويطلقون على أنفسهم Makameuma نسبة إلى قائدهم الأول الذى بدأ باستيطان المدينة وهو «ماكامى ابن نعمانى » قاضى كيلوا المنفى الذى جاء هو وأسرته وأتباعه واستوطن المدينة المهجورة[٢] .

ولقد كان الشيرازيون فى ساحل تانجا (مثل متانجاتا ومكواجا (Mtangata, Mkwaja) يعيشون فى مجتمعات تتكون من أسر وعائلات تحت قيادة كبير منها يسمونه چومبى Jumbe وتنتقل وظيفته من بعده من شخص إلى آخر فى دائرة أقاربه وأسرته، ولا يتوارثها أبناؤه وأحفاده ، وكان فى إقليم تانجا وحده خمسة عشر زعيما من هؤلاء الزعماء (Jumbe) ، وفى باجامويو إثنا عشر ، وفى بانجانى Pangani خمسة يعرفون « بالمقاعد الخمسة » إذ كانوا يجلسون فوق مقاعد تشبه العروش العربية مصنوعة من الأبنوس المطعم بالعاج ، ويتم تنصيب الزعيم فى احتفالات غاية فى الدقة ، يعتكف قبلها لمدة سبعة أيام .

ويعمل تحت رئاسة كل چومبى مجموعة من الشباب يطلق عليهم Maa Kida ومفردها Akida (عقيد) يختارهم رؤساء الأسر ، وكانوا يؤدون دوراً هاماً

---

(١) R. F. Burton in F.R.G.S. xxviii 201

(٢) E. C. Baker, « Notes on the Shirasi of East Africa » T.N.R. No 11.

وقياديا فى تجارة العبيد والعاج . وينتخب « الديوانى » من بين « الجومبى » ولا بد أن تكون ثروته تسمح بالاتفاق على متطلبات وظيفته ومظهرها ، فإن الثروة أمر لازم وحيوى للديوانى نفسه ولا يستطيع بدونها القيام بوظيفته أو الاستمرار فيها . ففى فومبا انبعث النظام الديوانى منذ عام ١٧٠٠ عندما استولت عائلة مهاجرة من جزر القمر على الحكم عن طريق الزواج من الأسرة الحاكمة، وبعد عام ١٧٢٩ تغيرت الاسرة الحاكمة واعترفت فومبا بأسرة المزروعى التى ظلت تتوارث الحكم حتى عام ١٨٧٨ عندما أنتخب منها « ديوانى » عجزت ثروته عن تحمل نفقات تنصيبه فانهارت الاسرة وضاع الحكم منها بانتخاب حاكم جديد من أسرة أخرى .

ويعتبر تجدد الهجرة من الجزيرة العربية من الملامح المميزة لتلك الفترة التى تلت الحكم البرتغالى . كذلك استوطن الغرب — الذين استؤجروا كمرتزقة لمحاربة البرتغاليين — مدن الساحل المهجورة ، كما وفدت إلى زنجبار عائلات أفريقية عربية من مستوطنات أخرى مثل عائلة مفازى التى جاءت من باتى وعائلة شاتيرى التى جاءت من مافيا . ولقد كانت هجرة الحضرميين الشافعيين — وليست هجرة العمانيين — هى صاحبة الاثر الاول فى تحول الثقافة السواحلية وطبعها بالطابع الذى تحمله حتى اليوم ، كما أدت هالة المهابة التى أحاطت بالجنس العربى وعروبة الحضرميين وقوة تأثيرها ، إلى سيادة العنصر العربى واستسلام التقاليد الغريبة الاخرى التى كانت سائدة قبل ذلك وخروجها من الميدان لكى تفسح المجال أمام ثقافة العرب الممتزجة بثقافة البانتو !

٤ — تغلغل الإسلام وانتشاره داخل القارة

عندما ارتقى السلطان سعيد بن سلطان عرش مسقط ، كانت سيادة عمان

معترفاً بها فى كل من زنجبار وكيلوا وفى جزء من جزيرة بمبا ، وواحدة أو اثنتين فقط من المدن الصغيره. ولتأكيد سيطرة بلاده على المناطق الأخرى خاض صراعاً طويلا ضد الوهابيين ، وجهد للقضاء على القرصنة فى الخليج الفارسى ، ووفق بالفعل عام ١٨١٣ فى فرض سيطرته على لامو ، وعلى باتى عام ١٨٢٢ . وعندما ثار الأهلون على الحاكم المزروعى للجزء الغير خاضع لسلطان مسقط من جزيرة بمبا ، وتدهورت العلاقات بينه وبينهم ، زار زعماء من الجزيرة ، السلطان فى مسقط عام ١٨٢١ ووعـــداه بتقديم الولاء له إن استطاع تخليصهم من أسرة المزروعى ، فأصدر تعليماته إلى والى زنجبار بغزو بمبا ، فهربت هذه الأسرة وتركت الجزيرة . وفى عام ١٨٢٨ بدأ غزو ممباسا وقام بزيارته الأولى لجزيرة زنجبار . وفى عام ١٨٣٧ سيطر نهائياً على ممباسا وبعد ذلك بقليل ، فى عام ١٨٤٠ نقل بلاطه إلى زنجبار ،وبذلك فرض سيطرته الفعلية على الساحـــل : من وارشيخ war Shaikh إلى رأس دلجادو Cape Delgado عدا مناطق البانتو والبربر التى لم تعترف بتلك السيطرة ، وعين نوابا عنه فى المدن الرئيسية ، لكن ظلت المدن تتمتع بالحكم الذاتى الذى حظيت به ولكن مع تأديتها لجزء من حصيلتها من الرسوم الجمركية .

وبعد وفاته تقاسم ولداه وراثة العرش من بعده ، فورث ابنه الأكبر عرش مسقط ، وحصل ماجد ابنه الأصغر على عرش زنجبار التى ظلت تتمتع بالحكم الذاتى حتى فرض الحماية البريطانية على الجزيرة فى عام ١٨٩٠ .

وكان لكل قرية شيخها ، وفوق المشيخة كان « العقيد » الذى تضم سلطته الإشراف على مجموعة من مشايخ القرى ، ثم رئيس المقاطعة هـــو الوالى Liwali ، وكان تحصيل الضرائب من أهم واجباته ، وظل هذا النظام سائداً حتى عام ١٩٢٨ عندما حل لقب « مدير » محـل « العقيد » وأصبح المشايخ

« رؤساء » يتقاضون مرتبات واتسعت مناطق نفوذهم ، وحدث تغير كامل فى نظام الحكومة وتحول من النظام القبلى إلى إتباع النظام الحديث .

ويعتبر هذا العصر هو العصر الذهبى لتجارة العبيد، فبينما كان الساحل الغربى لأفريقيا يشكل المصدر الرئيسى للمسيحيين من تجار الرقيق ، كان الساحل الشرقى وقفاً على التجار العرب، ولم تعرف الأسباب التى أدت إلى وصول العرب من الساحل إلى داخل القارة ، فلم يكن هناك طلب غير عادى على العاج أو على العبيد يدفعهم إلى التغلغل فى تلك المناطق ، إلا أنه يمكن القول أن وصولهم إلى الداخل كانت له صلة بارتباطات دولة عمان تحت حكم سعيد بن سلطان وجلب الأسلحة الرخيصة وبعض المنتجات الأخرى ، فقد تطورت زنجبار فى عهده وأصبحت ميناء هاماً به سوق كبرى للرقيق وتجارة رائجة للعاج والقرنفل والصمغ .

وهناك مدن على الساحل مثل باجامويو وسادانى وبانجانى تعتبر محطات هامة فى الطريق المؤدى إلى البحيرات الكبرى، فيكتوريا ونياسا وتنجانيقا ، التى تم الوصول إليها فى عام ١٨٤٠ ، وانشئت نقاط دائمة أخرى أهمها كازح Kazeh [تابورا Tabora الآن] حيث يتفرع الطريق متجهاً إلى موانزا واوجيجى Ujiji على البحيرتين، وكان طريق تجارة العبيد يبدأ من جنوب بحيرة نياسا إلى كيلوا ، ولم يكن العرب السواحيليون يشتركون فى إغارات اقتناص العبيد ، بل انحصر جل اهتمامهم فى التبادل التجارى وليس فى الإغارة على سكان القرى والغابات وهو ما كان يقوم به متخصصون مهمتهم صيد العبيد وتسليمهم إلى الرؤساء المحليين أو إلى وكلاء التجار، مع أن تفوقهم فى الاستعداد العسكرى كان من الممكن أن يساعدهم فى السيطرة على الطرق ، إلا أن موقفهم كان حرجاً ، فقد كانت سيطرة السلطان محدودة بالحزام الساحلى ولم يكن نوابه الذين عينهم فى المدن يزيدون عن مجرد قناصل وظيفتهم فقط هى رعاية مصالحه

وجمع الضرائب التى كان يفرضها . أما التجار الذين استقروا فى الداخل فقد كانوا يسيطرون على التجارة دون اعتبار لقلة نصيب الأهالى المحليين منها وبالتالى كانوا يعيشون على حساب فقرهم وضعف حصتهم من التجارة ، فاضطر الأهالى رغم تفككهم وعدم تماسكهم -- مثل قبائل الجوجو Gogo — إلى فرض ضريبة الترانزيت على القوافل[١] وكانت علاقة العرب والسواحيليين بهذه القبائل تتوقف على مدى مواظبتهم على دفع تلك الضرائب .

والواقع انهم لم يحاولوا نشر الإسلام بين تلك القبائل مع أن تلك الفترة كانت هى فترة بدء انتشاره فى الداخل ، بمعنى أن رحلاتهم لم تكن هى السبب فى وصول الإسلام إلى الداخل ، بل كان السبب فى ذلك هو استقرار سلطة عمان على زنجبار وسيطرتها على الساحل حيث قامت عدة مزارع عربية مما أدى بدوره إلى استقرار الأوضاع فى القبائل المجاورة من تانجا حتى الجنوب ، فبدأ الإسلام يشق طريقه إلى قبائل الديجو Digo وقبائل الزارامو والقبائل التى تقيم حول دلتا نهر روفيجى Fufiji[٢] ، وأصبح للزعماء المحليين فى الأقاليم الجبلية الداخلية القريبة من ساحل تانجا حيث كانت تمتد الطرق التجارية ، مناطق نفوذ واسعة بسبب تعاونهم مع العرب وتسمى بعضهم بأسماء

---

(١) كتب الاستاذ R. F. Burton فى كتابه :
The Lake Regions of Central Africa. 1860
« إن العرب يعتمدون الآن فى حياتهم هناك (منطقة أو نيامويزى) ليس على نفوذهم أو ، بيتهم وانما على حساب افقار الاهالى فيما يتعلق بنصيبهم من التجارة » .

(٢) كتب الأستاذ W. Beardall فى كتابه :
Exploration of the Rufiji River 1881 p. 647
يقول « معظمهم (اهالى روفيجى) كانوا يرتدون الزى الساحلى ويجاهرون بأنهم مسلمون ولكن ليس لديهم مساجد ولم أر أياً منهم يمارس اى طقوس دينيه ابداً ومازالوا يتبعون عاداتهم القديمة وغالبيتهم يفهمون للغة السواحيليه ولهم علاقات بالساحل عن طريق كيلوا ، وبرجال السواحل الأخرين الذين يصلون لشراء الارز »

المسلمين مثل سعيد تشيمولا زعيم Ukagunu . أما القرى الواقعة على طول شاطىء نهر بانجانى pangani[1] فقد كانت تدخل ضمن دائرة نفوذ كيمويرى Kimweri زعيم أوزامبارا Usambara[2] المستقل ، وكان وثنياً يمارس جميع أشكال السحر ولكنه سمح لبعض أولاده باعتناق الإسلام والمجاهرة به ، وقد زار الأستاذ كرابف Krapf تلك المنطقة عام ١٨٤٨ و ١٨٥٢ وكتب يقول عن هذا الزعيم الوثنى : « كان يحيط به بعض السواحيليين الذين يكتبون له رسائله، وله ولدان أصبحا مسلمين وتعلما القراءة والكتابة ولم يضع والدهما أية عقبات أمامهما عندما قررا ترك الوثنية . وقد زارنا السيد عثمان وهو مسلم من زنجبار كان يشغل منصب طبيب الملك وكبير السحرة ومضحك البلاط ؛ وقبل ذلك بسنوات عديدة استدعاه كيمويرى من جزيرة كيزيمانى الواقعة على نهر بانجانى ليعد له بعض التعاويذ الفعالة ضد كيزوما Kisuma زعيم Mafe ومثل هؤلاء الرجال يستغلون تلك الفرص التى تسنح لهم فى محاولة تحويل الوثنيين الجهلة إلى الإسلام[3] » .

شرع الإسلام يرسخ أقدامه بين الشعوب المفككة القريبة من الساحل والتى قامت بينها وبين التجار صلات بسبب التعامل بصورة أو بأخرى معهم ، ولقد تمت بعض حالات التحول إلى الإسلام من خلال تجارة الرقيق عرضاً وبصورة لم تكن مقصودة ، فالعبيد عندما تنقطع علاقاتهم بأسرهم وقبائلهم بعد اقتناصهم

---

(١) J. L. Krapf, Travels 1860 P. 373.

(٢) كانت هذه هى الدولة الوثنية المنظمة الوحيدة فى الاماكن المحيطة بالساحل وأنشأها عام ١٧٥٠ مهاجر يدعى مبيجا كان الشامبالا قددعوه ليحكموه فى نزاعاتهم . للمزيد من المعلومات عن تنظيم تلك الدولة أنظر « Shambala » للاستاذ E.V. Winans

(٣) أنظر المرجع السابق للاستاذ كرايف : Travels ص ٢٧٩ــ٣٩٠ . كذلك يقول الاستاذ ريتشارد بيرتون أن بعض ابناء كيمويرى قد أسلموا مع أنه لايوجد أى دليل على أن الاسلام قد أحرز أى تقدم حتى أصبحت المنطقة تحت حكم الألمان .

يبتعدون عن طقوسهم وشعائرهم التى كانت تشبع احتياجاتهم الروحية، وهنا يغدو الإسلام هو البديل الروحى الوحيد أمامهم تحت ضغط امتزاجهم بحياة المسلمين سواء التجار الذين يبيعونهم أو السادة الذين كانوا يشترونهم . كذلك كان بعض الأفراد من القبائل التى كانت لها بالتجار علاقات مثل قبائل النياموىزى والياو Yao يعملون كحمالين أو وكلاء لهؤلاء التجار، وقد اعتنقوا الدين الإسلامى لكى يتمشى مظهرهم العام مع مظهر التجار المسلمين الذين يعملون معهم .

وبرغم ظاهرة عدم الإكتراث التى عمت السواحيليين تجاه الدعاية للاسلام ونشره فى الداخل ، كان لهم نشاط كبير فى هذا المجال فى أوغندا حيث وجد العرب أمامهم دولة متقدمة جداً هى دولة بوجندا فاتجهوا إليها من الجنوب الغربى حول شواطىء بحيرة فيكتوريا ، ويقال أن أول عربى وصل إليها كان فى عام ١٨٤٤[١] ولم تكن هناك فى ذلك الوقت مستوطنات عربية دائمة ؛ وفى عام ١٨٦٢ وجد المستكشف سبيك Speke أن أقصى المستوطنات العربية الدائمة شمالا كانت فى مدينة كافورو Kafuro فى مقاطعة كاراجوى Karagwe وهجرها سكانها فى عام ١٨٨٥ ، وقد حصل التجار العرب على بعض النفوذ فى بلاط موتيسا Mutesa ملك بوجندا بسبب الأسلحة التى كانوا يجلبونها له والتى ساعدته على زيادة سلطته المطلقة وسطوته على الشعوب المجاورة . ونتيجة لهذا النفوذ استطاعوا فى عام ١٨٧٥ تحويل بعض الأهالى إلى الإسلام ، إلا أن أحكام الدين حول الطعام وتحريم انواع

(١) J. M. Gray «Ahmed bin Ibrahim» Uganda Journal (1947) 80–97.

منه والختان وغيره سببت انتكاسة أدت إلى استبعاد الإسلام والعودة إلى القديم ، وأصبحت الدعاية الإسلامية موضع شك وريبة .

ولقد وصلت أولى بعثات التبشير المسيحى C.M.S.[1] فى عام ١٨٧٧ ، فبدأ صراع مرير بين ثقافتين أجنبيتين غير أفريقيتين (الإسلام والمسيحية) كانت ترجح فيه كفة هذه الديانة أو تلك على منافستها مما جعل الأمر يظل معلقاً فى الميزان مدة طويلة حتى ارتقاء موانجا Mwanga عرش بوجندا فى عام ١٨٨٤ وقد سقط بسببه عدد من الشهداء بين كل من المسيحيين والمسلمين فأقاموا تحالفاً بينهم أطاح به فى عام ١٨٨٨ وخلفه كيويوا Kiwewa فلما رفض قبول الإسلام وتقاليده وعاداته نادى المسلمون بكاليما Kalema الذى اعتنق الإسلام وحاول فرضه فى البلاد ، وهنا استعان المسيحيون البروتستانت بموانجا Mwanga مرة أخرى فعاد الصراع بين الديانتين وأخذت الكفتان تتأرجان من جديد ! .

فى تلك الأيام ، وصلت مؤثرات إسلامية من نوع آخر عن طريق القوات السودانية التى تحالفت مع مسلمى بوجندا لتعزيز موقف الإسلام فى أوغندا ، فبعد أن اعترض موتيسا على خطة جوردون لبناء مواقع حربية عبر أوغندا وقع لوجارد معاهدة مؤقتة مع موانجا فى عام ١٨٩٠ استخدم بمقتضاها القوات السودانية التابعة لقيادة سالم بك — الذى كان قائداً لعدد كبير ممن تبقى من قوات أمين باشا — للعمل فى خدمة أوغندا وأصبحت تلك القوات فى وقت ما بمثابة العمود الفقرى للقوات الحربية والمدنية فى محمية أوغندا . وفى عام ١٨٩٢ وقع لوجارد معاهدة نهائية خصصت مقاطعات أو رئاسات لكل من الأحزاب

---

(١) Church Missionary Society (المترجم) .

الدينية الثلاث من بينها ثلاثة رئاسات للحزب الاسلامى تحت زعامة مبوجو Mbogo عم موانجا ، وبذلك قوى مركز المسلمين بمساندة السودانيين .

كذلك كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر هو فترة تغلغل الأوروبيين ، فقد جاء المكتشفون ، ومن بعدهم الاداريون والمفاوضون وصانعو المعاهدات ، ولم تأت نهاية القرن إلا وكانت الحكومات الأوروبية قدسيطرت على المنطقة بأسرها .

وقد بدأت السيطرة الألمانية على تنجانيقا فى عام ١٨٨٤ بنشاط كارل بيترز باعتباره وكيلا لإحدى جمعيات تعمير المستعمرات . وفى عام ١٨٨٨-١٨٨٩ قامت ثورة فى باجامويو بقيادة عربى يدعى بشير بن سليم أدّت إلى تدخل الحكومة الألمانية واستيلائها على المنطقة ، وقد كان هناك حزام ساحلى طوله عشرة أميال تابع لزنجبار ، إلاّ أن الحكومة الألمانية حصلت فى عام ١٨٨٨ على حق جمع الضرائب فيه . وفى عام ١٨٩٠ استولت عليه تماماً . وانشغلت الحكومة الألمانية لفترة ما بقمع الثورات ، فمن عام ١٨٩١ حتى عام ١٨٩٤ كانت هناك حرب مع الهيهى Hehe فى منطقة الهضبة حول ايرنجا Iringa .

وفى عام ١٩٠٥ قامت ثورة عنيفة عرفت بثورة ماجى ماجى Maji—Maji امتدت فى جنوب تنجانيقا من بحيرة نياسا إلى المحيط(١) ، ومع أن هذه الثورة بدأت كحركة وثنية ، إلاّ أن محركيها من قبائل النجيندو Ngindo اعتنقوا الإسلام واستخدموا السحر الإسلامى فى ثورتهم مما أدى إلى انتشاره بين تلك القبائل كلها فتحول جميع أفرادها إلى الإسلام .

وقد أدى قيام الحكم الأوروبى والغاء تجارة العبيد إلى انتشار الدين الإسلامى

(١) R. M. Bell, "The Maji — Maji Rebellion in the Liwale District", Tanganyika Notes and Records (T. N. R.) No 28 (Januay 1950) 38—57 ; and A. R. W. Crosse-Upcott, "The Origins of The Majiwaji Revolt" 1960, 71—73.

بصورة لم يسبق لها مثيل ، ذلك أن حالة السلام وفتح الطريق إلى المناطق الداخلية ، أعطى للتجار منفذاً إلى مناطق كانت مغلقة من قبل ، كما استخدمت كل من الإدارتين الانجليزية والألمانية المسلمين فى البوليس وفى الجيش ، وكموظفين ومدرسين وفى غير ذلك من الأعمال الحكومية . واختلاط هؤلاء الموظفين بالأهالى وحده يعتبر من العوامل الهامة لتعريفهم بالإسلام وعاداته ، ولم يكتف المدرسون بذلك ، بل عملوا على الدعوة لهذا الدين بين قبائل البوندى Bondei والديجو digo ،[١] وقد امتدهذا النشاط إلى المناطق الداخلية، ونما فيها واتسع بعد إخماد ثورة ماچى ماچى فى عام ١٩٠٥[٢] ، وأصبحت الأرض مهيأة للدعوة الإسلامية التى زحفت فى اتجاه الخطوط الحديدية وتبعتها وانتقلت معها ، وحيث تمر الطرق التجارية ومناطق عبور القوافل ، وانتشر عبر تنجانيقا إلى البحيرة ، وشمالا من أوزامبارا إلى مقاطعة كيليمنجارو ، وجنوباً إلى بحيرة نياسا[٣] ، وقد أشار الأستاذ كلارموث Klarmoth إلى أن منطقة غرب أوزامبارا كانت مازالت ممتنعة فى وجه الإسلام فى عام ١٨٩١ ، ذلك أن زعماءها وأهاليها ، قويت فى نفوسهم كراهية أولئك الذين عرفوهم كتجار للعبيد ، وأصبحوا ينفرون منهم ولا يطيقون التعامل معهم ، فلم يسمحوا إلا للبعثات التبشيرية المسيحية بدخول منطقتهم ، إلا أنه عندما قامت إدارة أوروبية منظمة ، وأصبح موظفوها مسلمين وخصوصاً منهم من كانت لعمله صلات

---

(١) O. Baumann, Usambara and Seine Nochbargebiete, Berlin 1891.

(٢) C.H. Becker, «Islam in Deutsche-Ostafrika» Der Islam (1910)

(٣) M. Klarmoth, Der Islam in Deutsche Ostafrika, 1912 p.p. 14—28.

مباشرة بالجماهير[١] ، وفد المسلمون إلى تلك المنطقة ، وقد اضفت ثقتهم بأنفسهم واعتدادهم بدينهم جلالاً على حضارتهم ، فكان أن شاع الإسلام بين العديد من الزعماء والأهالى إعجاباً منهم بهذا الجلال وتلك الهيبة وأخذوا بدورهم يبثون الدعوة ويدعون إليها ، ووصل الأمر إلى أن أصبح الأهالى فى كيليمنجارو يرحبون بالشيخ الذى يزورهم ليبصرهم بأمور الدين الجديد وعاداته وشعائره ويستمعون لما يقول ويقدمون الأرز اليه [٢] .

ولقد تزايدت سرعة انتشار الإسلام ومعدّله خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وبعدها عام ١٩٣٠ عندما أخذ انتشاره يقل ويتباطأ إلا فى عدد قليل من المناطق . وفى خلال الثلاثين سنة الماضية وصل إلى قبائل الهيهى Hehe وأخذ ينتشر بينهم ، كما شرع تأثيره ونفوذه يتزايدان فى منطقة

---

(١) فى المناطق الشمالية القريبة من أوزامبارا دخل الاسلام لاول مرة مع الوظفين الحكوميين الملونين ثم جاء بعد ذلك تاجر يدعى ايزانيكا Isanika من ديجو وقام بمحاولاته نشر ديانه القرآن وتم تختين الصبية الوطنيين الذين كانوا يساعدون هذا التاجر فى عمله وادخالهم فى مدرسة لتحفيظ القرآن ، وبدأ الاسلام ينتشر أكثر وأكثر خصوصاً من مقر الحكومة فى Wihelmstal فقد كان صغار الموظفين كلهم تقريبا من المسلمين فى الوقت الذى أوحى فيه للزعماء المحليين أن الذى يسعى الى علاقات طيبة ويريد أن ينجح فى معاملاته مع هؤلاء الموظفين يحسن أن يكون مسلما . إن أكثر (نواب) الزعماء نفوذا فى غرب اوزامبارا اليوم من المسلمين ، وكان يطلق على زعماء القرى الذين لم يسلموا كلمة Makafira (الكفار) فلما سئموا تلك التسمية اعتنقوا الإسلام تحت هذا الضغط الاجتماعى ، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد اقيمت اية مساجد هناك (١٩١١) ومع ذلك فقد كان الاهالى يصلون خمس مرات بانتظام يوميا طيلة شهر رمضان ، وفى ملالا قامت مدرسة جديدة للقرآن ، ومازال كبار السن مترددين فى الاشتراك مع الشباب المتحمسين الذين تحولوا الى الإسلام.

Moslem World iv (1914) p.280
J. L. Krapf, Travels p.p. 117—118

(٢) تصحيح : الإسلام بين الهيهى Hehe : كتبت الآنسة اليسون ردمين Alison Redmayne التى عاشت وعملت بين الهيهى لمدة عامين ، للمؤلف تصحيح ما سبق له أن نشره فى كتبه عن قوة الإسلام فى تلك القبيلة ، قالت « اننى اعتقد أن الايحاء بأن

موروجورو وفى التلال المحيطة بتانجا ، اما الموقف فى الجنوب الشرقى لتنجانيقا وخصوصاً مقاطعة الماساى Massai فقد تغـــير بسبب تدفق مسلمى قبائل ميتو Wa Meto من شرق أفريقيا البرتغالى ، ذلك أنه باستثناء الجزء الغربى كان هناك عدد ضئيل جداً من المسلمين فى تلك المنطقة فى عام ١٩٣٠ ، وبسبب هذا التـــدفق لم يأت عام ١٩٤٥ إلا وأصبحت أكثرية السكان من المسلمين .

وكان النفوذ البرتغـالى حتى نهاية القرن التاسع عشر محصوراً فى مواقع قليلة على الساحل مثل إيبو Ibo ، أما المنـاطق الساحليـة الشمالية فـكانت إسلامية يعارض زعماؤها الكبار مثل الحاج موسى زعيم شانجانى Changane وسعيد على بالقرب من إيبو ، سلطان الاحتلال البرتغـالى وامتداده ، أما فى الداخل فلقد أعلن بعض زعمـاء قبيلتى ماكوا وماكوندى إسلامهم ، وحتى قبائل الياو عبر نهر لوجندا Lujenda كانوا فى ذلك الوقت وثنيين رغـــم ما اشتهر عن تفضيل بعض زعمائهم للاسلام ، ولـكنهم عندما انتشروا من النهر إلى الشاطىء الجنوبى لبحيرة نياسا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر بعد أن سلبوا قبائل نياسا وجردوهم ، تغلغـــل الإسلام فى صفوفهم واستقر بينهم .

وقد كتب سير الفريد شارب Sir Alfred Sharpe حاكم نياسالاند يقول فى عام ١٩١٠ : « منـذ عشرين عاماً عندما عرفت نياسالاند لأول مرة ،

---

[١] الإسلام قوى فى أوهيهى Uhehe يرجع بعضه إلى أن اثنين من زعماء القبيلة المعروفين كانا مسلمين ، كما أن كثيراً من رجال الهيهى كانوا يلبسون نوعا من العباءة والعمامة وهوزى يجعل كثيراً من الناس يظنون انهم مسلمون ، وأعتقد أن الإسلام لم يكن قويا مطلقا بين الهيهى ، وربما باستثناء مدينة ايرنجا Iringa فان الإسلام أخذ فى التدهور وترجع بعض اسباب ذلك الى أن التعليم فى جميع مستوياته فى هذه المقاطعة خاضع للبعثات التبشيرية » .

كانت « المحمدية » (أى الإسلام) لا وجود لها إلا فى موقع أو اثنين حيث جلبها العرب. ومنذ ذلك الوقت انتشرت بصورة عظيمة خصوصاً فى الثمانى أو العشر سنوات الأخيرة ، وكان الياويون (قبيلة الياو Yao) هم أكثر السكان تمسكا بتعاليم الإسلام ، ومن ناحية أخرى فإن « المحمدية » لاتوجد بين القبائل غرب بحيرة نياسا ، وقد تعاظمت الدعوة دون أن تُبذل أية دعاية وتم الأمر كله عن طريق أرض الياو ، أو بمعنى آخر ، من بحيرة نياسا إلى الساحل الشرقى حيث كان يوجد فى كل قرية مسجد وتاجر مسلم[1] . »

وبرغم أن الإسلام قد انتشر بهذه السرعة الكبيرة بين الياو ، فان امتداده بعد ذلك فى نياسالاند توقف خلال العشرينات كما حدث بصفة عامة فى تنجانيقا، ومنذ ذلك الوقت ظل ثابتاً على حالة لم يتقدم ولم يتأخر . وقد انتشر الإسلام بين سكان المقاطعات المحيطة بالمستوطنات خصوصاً قبائل اتشيوا

---

(١) برغم أنه من الناحية التاريخية كان نشاط المسلمين فى نياسالاند ملموساً إلاأنهم لم يحاولوا بث الإسلام ، فقد كان تجار العبيد يمرون من الساحل فى الاراضى البرتغالية جنوب روفوماثم إلى نهاية بحيرة نياسا من الجنوب وعندما زار ليفنجستون المنطقة عام ١٨٦٤ ، ١٨٦٦ لم يكونوا قد وصلوابعد، ولكن فى عام ١٨٧٥ وجدت مجموعة من بعثة ليفنجستون مستوطنات فى mponda (قنعة جونستون الآن) على الذراع الجنوبى الشرقى لبحيرة عند كوتا كوتا kota—kota على منتصف الطريق إلى الشاطىء الغربى وفى شمال البحيرة بين الكوندى وعلى الساحل الشرقى عند قرية ماكانجيرا. وكان اتباع التجار غالبا من الياو الذين انتشر الإسلام بينهم ، وكان الغرض من تلك المستوطنات هو تسويق العبيد الذين كان الزعماء الأفريقيون وحملات الاقتناص يحضرونهم ، ولم يكن لها سوى قوة سياسية محدودة ، وكان حاكم كوتا كوتا ، وهو سواحيلى من سلالة نياموبزى ـ ياو يعتبر ممثلا لسلطان زنجبار برغم أنه كان مستقلا إلى حد بعيد. وفى عام ١٨٨٩ وضع هذا الحاكم منطقته تحت الحماية البريطانية وقد جلب مجىء الحكومة البريطانية السلام وحرية الحركة ، وادى تفتح مجالات جديدة للعمل إلى مجىء الياو المسلمين من جانبى البحيرة إلى مناطق زومبا وبلانتير Blentyr حيث يوجد اليوم عدد كبير من المسلمين . أنظر :

A. Hetherwick, 'Islam and Christianity in Nyassaland' Moslem World XV11 1927 p.p. 184-186

Achewa فى مقاطعة كوتا كوتا عن طريق سلالة السواحيليين الذين كانوا يعودون إلى الساحل .

أما الموقف فى كينيا فقد كان مختلفاً، ويسجل الأستاذ كرابف عن زيارته للمنطقة فى عام ١٨٤٣ فيقول : « ان المناطق المنخفضة تقع فى الغالب فى أيدى السواحيليين المحمديين،أما المناطق المرتفعة فهى فى أيدى القبائل الوثنية (قبائل نييكا[١]). ولم تكن هناك طرق تجارية تمر بالبلاد إلى ما وراء قبائل نييكا خوفاً من خطر قبائل الماساى والجالا والصوماليين [٢] . ولقد كانت قبائل الجالا Galla تشكل قوة يعمل حسابها فى الشمال ، إلاّ أن ميلهم إلى الهجرة دفع معظمهم إلى الحبشة ، كما ان غارات الماساى والصوماليين قد قللت من تأثيرهم، وأخيراً حطّم الصوماليون قوتهم فى الجنوب . وطالب السلطان سعيد بساحل البنادير (تنجانيقا) حتى وار شيخ War Shaikh ، وفى عام ١٨٢٣ عين والياً على مقديشو ، وبعد « وليمة المحبة Love feast » الشهيرة فى الصومال عام ١٨٤٨ التى ذبح فيها عدد كبير من زعماء قبائل الجالا ، قيل أن الصوماليين

(١) J. L. Krapf, 'Tsavels' p.p. 117—18

(٢) كان النيكا Nyika حتى عام ١٨٦٧ يقومون بدور الوسطاء فى التجارة بين الكامبا والساحل (R. Burton, Zanzibar 1872 ii 67) ويقول تومسون أن القوافل لم تكن تذهب إلى داخل كينيا فى الثمانينات (١٨٨٠) بسبب غارات الماساى . انظر (Thomson, "Through Masailand") الطبعة الثانية ص١٢٧ . كذلك Travels للاستاذ كرابف ص ١٥٥ — ١٨٠ . ويوضح كرابف أن قبائل الكيكويو كانوا يكرهون العرب السواحليين ، كما أن الكامبا كانوا يعتبرون أنفسهم محتكرين للتجارة الداخلية ويرفضون السماح للسواحيليين بالتجارة فى الداخل .

بقرب الساحل عقدوا اتفاقاً مع السلطان اعترفوا بمقتضاه بوضع ساحل جوبالاند Jubaland تحت حمايته ، كما أرسلت حامية عربية إلى كيسمايو Kisimayu وقد انهارت قوة الجالا على الساحل تماماً في عام ١٨٧٢ . وفي عام ١٨٨٨ تولت شركة شرق أفريقيا الانجليزية إدارة هذه المقاطعة . وفي عام ١٩٠٩ وصلت مجموعات كبيرة من الصوماليين إلى نهر تانا ، ونتيجة لذلك حولوا المنطقة إلى حالة من الرعب والفزع ، وفي عام ١٩١٢ قررت الإدارة إبعادهم عن النهر ».

الفصل الثانى

قسمات الإسلام فى شرق افريقيا

أولا المجتمعات الإسلامية المعاصرة :

سنوجه عنايتنا بالذات إلى الشعوب الملاصقة للساحل وأهالى الجزر البعيدة عن الشاطىء فى كل من كينيا وتنجانيقا ، فانها المنطقة التى تمكن منها الإسلام ورسخ فيها بعمق ، كما أن طابع الثقافة الإسلامية السواحيلية هو نفسه الطابع الذى انتشرت به الثقافة الإسلامية فى الداخل بين البانتو . كذلك فان مصطلحات البانتو الإسلامية كلها سواحيلية ، ولكنهم احتفظوا بقوانينهم وعاداتهم ومحافلهم الثقافية الأصلية كما هى دون أن تغيرها العقيدة الخارجية . والإسلام فى المناطق الداخلية يختلف من حيث تأثيره وعمقه فى النفوس وليس فى طبيعته أو أسسه الرئيسية ، ولذلك فاننا ، فيما يتعلق بالمناطق الداخلية ، سوف نشير إشارات بسيطة فقط إلى شعوبها التى انتشر الإسلام بينها .

المنطقة الساحلية والجزر الممتدة من نهر جوبا Juba فى الصومال إلى رأس الجادو Cape Delgado فى شرق إفريقيا البرتغالى .

المجموعات الناطقة باللغة السواحيلية :

المشكلة هى فى كيفية تحديد من هم السواحيليون . فأصل لفظ « سواحيلى » استعمله العرب فى الاشارة إلى « سكان السواحل » وسكان المستوطنات، وبمرور الزمن أصبح اللفظ يشير إلى المسلمين الذين يتكلمون اللغة السواحيلية

Ki-swahili [١] للتمييز بينهم وبين البرابرة الذين يشـــار إليهم بـكلمة Wa—Shenzi [٢] التي أصلها زنجي أو وحشي Zanji or Whahshi ويستعمل هذا اللفظ نادراً بين تلك المجموعات نفسها، فالذين يسمون أنفسهم بالسواحيليين أو الذين أشـير إليهم فى عمليات إحصـاء السـكان بهذه التسمية هم عموما Wa Zalia وهم إما من سلالة عبيد سابقين ، أو نتيجة لامتزاج واندماج Assimilation بعض أفراد القبائل التى تعيش بالقارة . وهم يستعملون عادة أسماء قبائلهم ، عربية كانت أو شيرازية ويعرفون بها ، كما يستعملون أيضاً أسماء عائلاتهم مثل Mkilindini وهناك ألفاظ محلية أخرى كثيراً ما أطلقت على السواحيليين على امتداد الساحل مثل Wa Mrima الذى يطلق على سكان الساحل بين فانجا Vanga ، ومصب نهرروفيجى وسوف نستعمل كلمة «سواحيلى» كاصطلاح ثقافى للتعبير عن هؤلاء الذين انضموا تحت لواء حضارة الساحل . وفيما يلى بعض المجموعات التى يشملها :

(أ) الشيرازيون .

وقد اشتقوا تلك التسمية من الطبقة الحاكمة السابقة للمستوطنات فى كل من المناطق الساحلية والداخلية للتمييز بينهم وبين الزراع من البانتو ، وهم أهالى غالبية دول للمستوطنات صاحبة التاريخ الساحلى الشبيه بالأساطير . ولقد اختفت الثقافة الأسيوية التى ظهرت فى الآثار الباقية من مدنهم وتركت وراءها طابعاً ضئيلا فى حياتهم ، وأصبح تراثهم البانتو — إسلامى الذى صبغه النفوذ

---

(١) يستعمل لفظ Ki للدلالة على الطريقة. فكلمة Swahili وحدها معناها السواحيلى أى الانسان السواحيلى ، وتضاف إليها Ki للتعبير عن الطريقة التى يتكلمون بها (المترجم) .

(٢) يستعمل لفظ WA للدلالة على الشعب أو السكان . فكلمة mrima مثلا معناها سكان ساحل مريما (المترجم).

العربى بصبغته ، يشكل الثقافة السواحيلية، كما أصبح لفظ «شيرازى» يستعمل للتمييز بينهم وبين من يسمونهم « بالعرب السواحيليين » . هذه الثقافة نشأت أصلا على ساحلى الصومال ولامو Lamu ثم انتقلت بعيداً إلى الجنوب ، ومنه إلى جزز زنجبار وبمبا ومافيا حيث طرأ عليها بعض التغيير — من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث منذ البداية — نتيجة لتأثير الاريستوقراطية العربية فى كل من الناحيتين الدينية والسياسية .

وقد عانت المجموعات الشيرازية الساحلية من الظروف الغير مستقرة ، وهى تتكون اليوم من العائلات المتبقية والمتفرقة على طول الساحل وفى الجزر المجاورة ، وهم قلة بصفة عامة بين السواحيليين فى المدن والقرى[1] . وبعضهم يقولون الآن أنهم من سلالة العرب المهاجرين الأول . وفى كل من زنجبار وبمبا حيث كانت الظروف أكثر استقراراً، سادت الثقافة الشيرازية بين الأهالى الافريقيين قبل القرن التاسع عشر ، وقد هاجر الحاديميون Wa Hadimu (٤١٢٠٠ نسمة) والتمباتيون Wa Tumbatu (٤٦١٠٠ نسمة) والبمبابيون Wa Pemba (٥٩٨٠٠ نسمة) من القارة قبل وبعد نشأة الثقافة الشيرازية، وهم بصفة رئيسية من أصل بانتو سواء فى تركيبهم الجسمانى أو فى عاداتهم برغم تأثرهم بالإسلام وغيره من المؤثرات الخارجية . ويشغل الحاديميون القرى على الساحل الشرقى ، وأجزاء من المناطق الوسطى وأقصى الشمال والجنوب من جزيرة زنجبار . والتمباتيون يعيشون فى جزيرة تومباتو فى جنوب بمبا ، وفى جزيرة زنجبار فى المنطقة الواقعة شمال طريق Mkokotoui—Kinyasiui

(١) فى تعداد السكان فى تنجانيقا عام ١٩٤٨ سمى ١٤٠٥٠ نسمة انفسهم شيرازيين ، ويوجدون بصفة رئيسية فى مقاطعتى إتانجاومانيا ، ويضم هذا العدد سكان جزيرتى kwale [احداها شمال تانجا والاخرى بالقرب من kisiju] وكذلك مجموعات مثل Mtangata و Mkwaja على الساحل .

أما البمبابيون فهم البانتو من سكان جزيرة بمبا . واللهجات السواحيلية التى تتكلمها تلك المجموعات الثلاث تختلف عن بعضها بصورة كبيرة،وقد اختلفت الاقاويل حول مدى تأثير لغة اونجوجا Ki Unguja السائدة فى زنجبار فى تلك اللهجات بهدف توحيدها ، ففى زنجبار كان هؤلاء القوم يشغلون مناطق أوسع ولهم تنظيمهم السياسى القبلى ، ولكن جلب القرن التاسع عشر معه سيطرة العرب العمانيين الذين كان وضع أيديهم على الأراضى — ليعمل العبيد بها ويحولوها إلى مزارع— سببا فى أضعاف سيطرتهم. وقد اتخذوا لفظ (الشيرازى) Wa Shirazi للتمييز بينهم وبين أولئك الذين وفدوا من القارة. وفى السنوات الحديثة ، وكنتيجة لليقظة السياسية بين الأهالى فى جميع تلك الجزر، برز اللفظ للتعبير عن الملاك الحقيقيين للارض .

وبسبب تغير الظروف وتشتت الأسر نتيجة للحروب وعدوان قبائل الجالا Galla ثم سيطرة العرب ، ومحاباة الانجليزلهم ، ادعى كثير من الشيرازيين الشماليين إنتماءهم إلى أصل عربى ليعززوا موقفهم فى المجتمع الطبقى الذى كانوا يعيشـــون فيه ، وعلى العموم فقد احتفظ أفراد الفروع المختلفة باسماء مدن الإستيطان التى جاءوا منها كألقاب لهم ، وهكذا ، وعن طريق تعريب الإنسان أصبحت كلمة «طائفة» بديلا لكلمة Mji (مدينة) التى كانت الأسر المختلفة تعرف بواسطتها . وكانت الرغبة فى الإنتساب إلى العرب أقوى فى كينيا منها فى تنجانيقا ، ففى تنجانيقا اختارت العائلات المقيمة فى ساحل مريما الانتماء إلى الأفارقة وكان من الممكن أن تنسب نفسها إلى العرب لو أنها تقيم فى كينيا . بينما فى كينيا ، فاننا نشير هنا إلى اثنى عشر أسرة من إقليم ممباسا تجمعت لدينا الوثائق الخاصة بها(١) . وقد صنفت تلك العائلات فى عنقودين أحدهما يشمل

---

(١) انظر Chi Jomvu and Kingare للاستاذ H.E. Lambert طبعة ١٩٥٨

ثلاث أسر ، والثانى تسعة . والثلاثة هى : أسرة شانجاموى Changamwe نسبة الى قرية تقع على أرض القارة فى مواجهة جزيرة ممباسا وهم بنو أمية .

وأسرة كيلنيديني Kilindini نسبة إلى ميناء بهذا الاسم فى النهاية القريبة للجزيرة وهم بنو كيندا . وأسرة تانجانا Tangana فى ممباسا مزيج من الشيرازيين والمولا Mola وهم بنو شيبا .

ويقال أن تلك الأسر الثلاث كانت تعيش أصلا فى مبارا كى Mbaraki المواجهة لبوغاز كيلنيديني ، بينما كان المهاجرون الأول من العائلات التسع التالية يعيشون فى مدينة وا كالى Wakale على الناحية الأخرى من جزيرة ممباسا فى مواجهة Freretown :

١ — مفيتا Mvita ممباسا ، وهم أسرة المنباس .

٢ — كيليفى Kilifi وهى مدينة شمال ممباسا ويدعون أصلا شيرازيا وهم أسرة الكوفى .

٣ — باتى Pate وهم أسرة البتعاوى .

٤ — بازا Paza أوفازا Faza وهى أيضاً على جزيرة باتى وهم أسرة المغازى .

٥ — شاكا Shaka وهى مستوطنة شيرازية بالقرب من مصب نهرتانا وهم أسرة البحرى .

٦ — متوابا Mtwapa وتقع على الخليج بين ممباسا وتاكا ونجو وهم أسرة المتوافى .

٧ — جومفو Jomvu أو جوندا Junda على خليج ميناء تيودور وهم أسرة الجوفى .

٨ — جونيا Gunya أو باجون Bajun وهى أسرة أصلها من أهالى الساحل يعيشون شمال مجموعة جزر لامو وهم أسرة الباجون .

٩ — كاتوا Katwa من أصل صومالى وهم أسرة نوفايلى .

(ب) العرب الأفارقة :

ويكونون مجموعة طبقية تستند على الادعاء بانتسابهم إلى اسلاف عرب[(١)]، وينقسمون إلى مجموعتين طبقاً لفترتين من فترات الهجرة :

المجموعة الأولى : تتكون من هؤلاء الذين يقولون بأن جدهم العربى الأول استوطن قبل تدخل العصر العمانى فى الساحل بعد انهيار الحكم البرتغالى، ويدخل فيهم الشيرازيون الذين اختاروا انتسابهم إلى العرب وكثير منهم جاءوا إما من أصل حامى Hamitic أو من البانتو ، ولذلك ينظر إليهم العرب الأصليون بالشك فى عروبتهم[(٢)] «فهم شعب يدل مظهرهم على أنهم أبناء أمهاتهم.» كما يشملون سلالة العرب المهاجرين الذين أصبحوا عبر القرون جزءاً من الحضارة الشيرازية ويعرف منهم حكام باتى النبهانيون والمعاوى Ma awe أقدم عائلات لامو . ومن الواضح أنه بسبب عدم اصطحابهم النساء معهم وقت هجرتهم الأولى ، وتزوجهم من الافريقيات لم يعد من الممكن تمييزهم عن البانتو من الناحية الجسمانية .

المجموعة الثانية : تتكون من عدد من الفروع يقولون بانتسابهم إلى المهاجرين الذين قدموا أثناء العصر العمانى منذ منتصف القرن الثامن عشر . ومن أشهر

(١) العرب الذين يتكلمون اللغة العربية يدخلون تحت نوع آخر مثل المهاجرين المسميين Wa Shibiri و Wa Manga.

(٢) W.H. Whiteley, (Kimvita) June 1955 P. II

هذه العائلات المزروعى ، وآل بوسعيد وكلاهما معروف فى تاريخ الساحل. ويبلغ عدد « الإباضيين » فى زنجبار ستة آلاف أى ٣ ٪ من مجموع سكانها حيث كانت « الإباضية[1] » هى الطريقة السلطانية ، وهم مكروهون عند العرب العمانيين الذين وصلوا بعد ذلك ويعرفون باسم المانجا Manga[2] ، وفى زنجبار كذلك يوجد عدد من المجموعات السابقة على العصر العمانى مثل آل شاتيرى والمفازى Mafazi الذين جاءوا من باتى وغيرها من المواقع الساحلية .

وثمة مجموعة أخرى من العائلات كان لها تأثير إسلامى ، ولذلك لزم التعريف بها على حدة ، وهؤلاء هم الشرفاء أو الأشراف [اللفظ السواحيلى Wa Sharifu] وهم سلالة النبى (صلعم) وليس هناك فرق بين سلالة الحسن وسلالة الحسين ، ولقد لعبت هذه العائلات دوراً ملموساً فى الإسلام السواحيلى ومن بينها آل حسين وآل جديد ، وباعلوى ، وبافقيه ؛ وباسوكموت، وآل جمال الليل ، ومهدى، والسقاف وشاتيرى . وبالإضافة إلى ذلك توجد عائلات من المشايخ تستمد هيبتها وجلالها من علم أفرادها وتفقههم ، أكثر مما تستمدها من نسبتها إلى الاسلاف . وترجع هجرة اسلاف العديد من تلك العائلات إلى منتصف القرن السادس عشر أو قبل ذلك ، وقد حافظ أفراد هذه العائلات الدينية على علاقاتهم بمسقط رأسهم فى حضرموت والكثيرون منهم يذهبون إلى تاريم لحضور « الرباط » وهو مركز الدراسات الصوفية لدراسة العلوم الإسلامية .

وبهذا ينقسم العرب إلى مجموعات اجتماعية عديدة ، بعضها احتفظ بمظهره ولم يغيره ، ذلك أن الرجال رغم حريتهم فى الزواج من أى امرأة ، فان النساء

---

(١) طريقة دينية مركزها الساحل الشرقى للجزيرة العربية (المترجم) .

(٢) انظر R. F. Burton, Lake Religions p. 30—31

لا يتزوجن إلا من رجال تلك المجموعات ، وبالتالى فان الطابع العربى فى حياتهم الاجتماعية أصبح أكبر منه فى حياة غيرهم من السواحيليين .

(ج) المستوعبون أو الذائبون (المشاكليون) The Assimilated

وبخلاف الشيرازيين والعرب ، تضم الحياة السواحيلية أنواعاً مختلفة من المشاكليين من البانتو الذين فقدوا أثر نسبتهم القبلية ولم يدّعوا إنتماءهم لسلالة عربية[1] ، وينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الأهالى من سلالة العبيد ويشار اليهم دائماً بلفظ Wa Zalıa أى عبيد المنازل أو بلفظ (Wa Mungu) masikini أى العبيد المحررون .

الثانى : الأفريقيون الساحليون من القبائل الساحلية ، ومازالوا يسمون أنفسهم بأسماء قبائلهم ، وفى بعض الأحيان يحتفظون بخط رفيع لنسبهم القبلى ، وفى ساحل كينيا يطلق على الأهالى المشاكليين حديثاً لفظ Mahaji ومفردها mhagj ومعناها « الذين تحولوا إلى الإسلام ». أما النجومبيون Ngombeni والكيدوتانى Kidutani والكيليو Wa kilio من سكان جزيرة باتى فهم من قبائل النييكا Nyika الذين تم استيعابهم منذ زمن بعيد . وكثير من سواحيلى تانجا ومنهم الواجومبى Wa Jombe الذين يعيشون فى شمال المدينة فهم من قبائل الديجو ، أما سواحيليو لندى Lindi فهم إما من قبيلة makua

(١) من بين تعداد سكان جزيرة زنجبار الافريقيين البالغ عددهم ١١٨٧٠٠ نسمة عام ١٩٤٨ ، أعتبر ٨١١٠٠ نسمة من الشيرازيين الوطنيين و ٣٧٦٠٠ من أرض القارة نفسها ونصفهم تقريبا يعيشون فى المناطق الريفية . وبالاضافة إلى ذلك ١٤ ألف نسمة اعتبروا عرباً و ٢٨٠٠ من جزيرة القمر ، وفى جزيرة بمبا كان هناك ٦٧٤٠٠ نسمة شيرازيون و ١٣٨٠٠ من أرض القارة و ٣٠٦٠٠ عرباً .

أو الياو Yao وجميعهم فقدوا صـــــلاتهم القبلية ولـكنهم ما زالوا يتمسكون بأصلهم القبلي .

الثالث : الأفريقيون من داخل القارة الذين استوطنوا الساحل بصورة دائمة . ويوجد أفراد من أكثر من سبعين قبيـلة منهم فى زنجبار أكثرهم عدداً هم نياموزى Nyamwezi ونياسا Nyasa وياو وماكوندى Makonde وكثير منهم برغم أنهم لم يستوعبوا تماماً ينتمون إلى الحياة السواحيلية اكثر من انتمائهم لقبائلهم (١) .

وفى الفصول التالية فان كلمة « سواحيلى » ومعها — عند الضرورة — اسم المجموعة التى ينتمى اليهـا الشخص ، سوف تستعمل فى الإشارة إلى جميع هؤلاء الذين ينتمون إلى الحضارة الساحلية . إنهم ليسوا شعباً بل مجتمع مرتب الطبقات أو مجموعة من الناس تجمعهم ثقافة واحدة ويتبعون الطريقة الإسلامية فى الحياة. وفى المدن الساحلية مزيج كبير من جميع تلك المجموعات ،فمثلا أهالى باتى Pate — وقد اخترناها لأنها لم تتأثر نسبياً بالحياة الحديثة — يتـكونون من الوا باتى WaPate وهم شيرازيون ، والنبهانى Nabhani وهم شيرازيون عرب ، ومجموعات عربية مثل (أسرة عبد السلام) والوا كيليو Wa Kilio وهم من قبائل النييكا ، والوا بوكومو Wa Pokomo وهم من قبائل النييكا أيضاً، وذلك بخلاف السكان المشاكليين — والذين لم يدخلوا تحت أىٍّ من هذه الأقسام — من سلالة العبيد أو المهاجرين .

(١) تعداد سكان جزيرة مافيا البعيدين عن دلتا نهر روفيجى يبلغ ١٢ ألف نسمة من بينهم ١١٤٠٠ أفريقيون من جميع الاجناس اصبحوا سواحيليين غير متبلورين ، ٤٠٠ عربى.

(د) وأخيراً ثمة فريق أصبحوا سواحيليين لغة وثقافة وإن احتفظوا بطابعهم الأصلى المميز .

فالباچون bajun : ويسمون في اللغة السواحيلية Wa GuuyaوWa Tikuu يعيش منهم على الساحل وعلى الجزر الممتدة جنوب الصومال ٣٥٠٠ فرداً وفى شمال كينيا ٩٣٥٤ فرداً فى مقاطعة لامو ، وهناك ٩٥٠ فرداً يعيشون منتشرين فى تنجانيقا وقوام حياتهم الملاحة والصيد ويدعون أنهم من نسل عربى ومن ثم فقد اعتبرتهم الحكومة الكينية عرباً وكما فى الصومال فإن الأصل العربى معناه مسلم ، ويتكلمون لهجة سواحيلية تسمى Ki Tikuu وهم أساساً بانتو امتزجوا بالحاميين والعرب وهم من الناحية الثقافية مسلمون ، بانتو مثل السواحيليين ، حاميون مثل الصوماليين .

— والسيجيچو Segeju : (١١٥٧٥ فى تنجانيقا وحوالى ١٨٠٠ فى كينيا) يشغلون الساحل من ڤانجا Vanga بالحدود الشمالية لكينيا إلى موامبا فى Mwambani حوالى سبعة أميال جنوب تانجا Tanga (تنجانيقا) ، وكانوا فى الأصل يعيشون فى منطقة أكثر شمالا ولهم صلات وثيقة بقبائل جالا . وقد ورد ذكرهم فى وثائق البرتغاليين والمعتقد أنهم إحدى القبائل التى تفرقت من Shungwaya وقد استقروا فى منطقتهم الحالية فى بداية القرن السابع عشر ثم أصبحوا مسلمين فى القرن التاسع عشر وهم يتكلمون السواحيلية نتيجة لاتصالهم بالشيرازيين فى بعض المستوطنات مثل Vumba ، وكان للاسلام فيهم تأثير أعمق من تأثيره فى قبائل الديجو الذين يعيشون خلفهم فى الأراضى الواقعة وراء الساحل .

— ويعتبر نهر روفيچى Rufiji طريقاً رئيسياً للعرب كما تدل على ذلك

الطرق التى تظللها أشجار المانجو وسكانه (١) أنفسهم الذين يعيشون على طول النهر وفى دلتاه ، وهم مهاجرون منذ تاريخ حديث نسبياً ، من قبائل ساحلية متعددة وقد أصبحوا سواحيليين مسلمين .

— أما سكان مجموعة جزر القمر Comoro (الماسيوا Massiwa) : فتجدر الإشارة اليهم كذلك طالما انهم موجودون فعــــلا على ساحل شرق أفريقيا . وقد أشار الجغرافيون العرب إلى تلك الجزر باسم « جزر القمر » وهى تتـكون من أربعة جزر :

Ngazija أو القمر الـكبرى وأنزوانى Anzwani (Johanna) ، وموالى Mobilla وجزيرة ماوتوى (Mayotte (٢)) . وهى جزر بركانية صخرية وبها قليل من الماء ، ونتيجة لذلك يهاجر الـكثير من أهلهـا إلى زنجبار والساحل حيث يشتغلون خدماً أو بالتجارة ، ولغتهم — وخصوصاً لغـة سكان جزيرة القمر الـكبرى — قد تشعبت إلى حد كبير من اللغة السواحيلية السائدة على الساحل مع أن القمريين يؤكدون أنها لغة وليست لهجة من اللهجات وثقافتهم الأصلية هى ثقـافة البانتو ولـكنهم يكرسون أنفسهم للاسلام بعمق وإيمـان حتى أن منهم مجموعات تخصصت فى دراسة الشريعة ، وغـيرهم انتشروا بين السكان كمعلمين للقرآن وعمـلوا على تقوية دعائم الإسلام وترسيخ أقدامه فى الساحل .

---

(١) قال R.G.P. Lamburn Cannon للمؤلف أنه لاتوجد قبيلة تنسب للنهر وتسمى روفيجى Wa Rufigi . وهذا اللفظ يطلق على السكان من أى قبيلة كانت من الذين يعيشون بالقرب من النهر كما لاتوجد لغة تسمى Ki-Rufiji . وسكان تلك المنطقة هم فى الغالب ماتومبى وقليل من النجيندو وأقل منهم من الياو ولغتهم Ki-matumbi .

(٢) كان تعداد سكان جزر كومورو عام ١٩٣٧ هو : نجازيجا ٦٥١١٨ — أنزوانى ٣٧٥٠٤ — موالى ٥٩٦٥ — ماوتوى ١٥٨٠٠ — المجموع ١٢٤٣٨٧ نسمة .

القبائل التى تعيش فى الداخل كجيران للسواحيليين واعتنق أفرادها الإسلام بدرجات مختلفة

ويعيشون فى جنوب الصومال وهم : البوكومو Pokomo ، النييكا Nyika ، بونديى Boudei ، زيجولا Zigula ، زارامو Zaramo ، ندنچيريكو Ndengereko ، ندوى Ndoe ، مويرا Mwera ، ماتومبى Matumbi ما كوندى Makonde .

البوكومو Pokomo :

قبيلة نهرية من الصيادين والزراع يشغلون وادى نهر تانا فى شمال شرق كينيا وعددهم حوالى ٢٠ الف نسمة ويعتبرون فرعاً من النييكا[١] ، إلا أن الظروف المحيطة بهم قد غيرتهم إلى حد يمكن معه فصلهم عنهم . وفرع النييكا هذا الذى قدموا منه ، كانت تحكمه قبائل الجالا ومنهم أخذوا التنظيم الذى استقر بينهم عمراً طويلا ثم حكمه بعد ذلك العرب السواحيليون المقيمون فى المستوطنات الواقعة فى منطقة تانا السفلى ، وعندما توقفت هجرة الجالا ، استقروا على امتداد النهر فى القرى ، الأمر الذى يخالف العادة المتبعة بصورة عامة عند قبائل النييكا .

وبالرغم من خضوعهم للحكم الإسلامى واتصالهم بالمسلمين مئات السنين[٢]

(١) على الاقل المالاتشينى Malachini من بوكومو السفلى ، والوانتو وادزو Wantu Wa Dzuu قد اختلطوا بالجالا .

(٢) شملتهم سلطنة أوزى . وكانت المستوطنة الاولى وتقع عند مصب نهر أوزى Ozi الذى يشكل الآن ـ منذ انشاء قناة بلزون Balzone ـ الجزء الذى يحدث فيه المد والجزر من نهر تانا ، ومن بقاياها أطلال مدن أونجوانا ومِوانا ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان البوكومو من رعايا رئيس ويتو Witu

فإن الإسلام انتشر بينهم فى القرن الماضى فقط . وقد بدأت البعثات المسيحية عملها فى الثمانينات من ذلك القرن (١٨٨٠) ووجهت نشاطها فى أول الأمر لقبائل الجالا ثم لجميع الوثنيين بعد ذلك وعندما ثبت أن الأخيرين غير قابلين لهذا النوع من التبشير اتجه عمل تلك البعثات إلى البوكومو ومنهم الآن ٦٠٪ مسلمون و ٣٧٪ مسيحيون و ٣٪ وثنيون . ونجد قرى مسيحية برمتها ، وأخرى إسلامية بكاملها وذلك لأن التحول ، سواء للإسلام أو للمسيحية كثيراً ما كان يتبع نظام غرب أفريقيا حيث يتم تحول مجتمع القرية بكامله كوحدة واحدة فإن التماسك أو التضامن الاجتماعى أهم من المظهر الدينى الخارجى إلا أن هناك كثيراً من القرى يختلط فيها المسلمون بالمسيحيين . والقرى الأقرب إلى الساحل بين تشارا Chara وكاو Kau على نهر أوزى قرى مسلمة ويسمى أهلها Mahji وهم ليسوا بوكومو حقيقيين ، ثم تأتى بعد ذلك منطقة مسيحية ممتدة من Golbanti إلى Garsen وبعدها تأتى منطقة بوكومو العليا Wantu Wa Dzuu إلى جازولى Gazole (هولا سابقا) وهى منطقة إسلامية توجد بها مجموعات قليلة من المسيحيين أو الوثنيين . أما الطائفة الحاكمة السابقة فقد ظلت وثنية تمارس قوتها من خلال السحرة ويطلق عليهم الكيجو Kijo ويخشى بأسهم باعتبارهم من رجال الدواء والعلاج كما أن الجوشى Goshi وهى طائفة صغيرة لا شأن لها من البانتو أسلمت وتوجد فى منطة نهر تانا .

مجموعة النييكا أو ميجى كيندا Miji Kenda

يستعمل السواحيليون كلمة « نييكا » Nyika للاشارة إلى قبائل البانتو الشمالية الشرقية التى تشغل « النييكا » أو « مدرج الغابات » الواقعة وراء الحزام الساحلى لكينيا . وهم أنفسهم — بشعور البدائيين — يعتبرون تلك التسمية غير لائقة بهم ومحطمة لكرامتهم ويفضلون أن يطلق عليهم Miji Kenda

أى « سكان المدن التسع » كتعبير أعـــم وأشمل ، وهذا التعبير يشير إلى الـكاياس Kayas (ومفردها كايا kaya) وهى القرى التى تحيط بها أسوار من قوائم خشبية مدببة والتى كانت تستعمل كمراكز تحتمى فيها القبائل الصغرى أيام كان على تلك القبائل أن تحمى نفسها من البرتغاليين والعرب والجـالا والماساى . وهم يشكلون مجموعة مكونة من تسعة قبائل ، أربعـة كبيرة هى الجيرياما Giryama والرابای Rabai والدوروما Duruma والديجـو ، وخمسة قبائل صغيرة هى كاوما Kauma ، تشونيى Chonyi وجيبانا Jibana وكامبى ورايب أو ريهى Ribe or Rihe . وبين لهجات قبائل نييكا واللغة السواحيلية تشابه مذهل سواء فى التـكوين اللغوى أو فى معـــانى الـكلمات نفسها وما تشير اليه .

وجميع أعضاء هذه المجموعة يقولون بانهم هاجروا من مكان يسمى شونجوايا Shungwaya وهو الإسم السابق للسهول الواقعة على الشاطىء اليسارى لنهر تانا (١) وقد حدثت تلك الهجرة تحت ضغط قبائل الجالا فيما بين سنة ١٣٠٠ حتى ١٦٠٠ عندما خفت حدة هذا الضغط بهجرة الجالا أنفسهم إلى الحبشة . ويدعى الدوروما Duruma (٤٦ الف نسمة) أنهم وصلوا إلى منطقة ممباسا قبل عام ١٥٩٠ وأنهم امتزجو بالموا كوا Makua الذين أحضرهم البرتغاليون من الجنوب ، والسيجيجو Segeju — وقد سبقت الإشارة اليهم فى الصفحات السابقة — يدعون أنهم من سلالة الصوماليين وأنهم أيضاً من أقرباء الجالا وأنهم امتزجوا بالسكان الأصليين الذين كانوا ثلاثة مجمـوعات من الوازى Wasi تشمل وامارا كا Wa Maraka ، وواماومبا Wa Maumba وواتوا Wa Twa .

---

(١) اعضاء هذه المجموعة الذين اصبحوا صوماليين يوجدون حول نهرى جوبا وشابلى فى جمهوريه الصومال

وقد اصبحت قبائل چيبانا Jibana مسلمة فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر وامتزجوا بالسواحيليين فور استقرارهم فى السهول الساحلية . ومعظم الديجو الذين استوطنوا السواحل بين ممباسا وتانجا بعد ان حلوا محل البوندي Bondei اصبحوا ايضاً مسلمين فى القرن الماضى . وفى القبائل الأخرى تاثرت بعض العائلات والأفراد الذين اتجهوا نحو التحرر من الرباط القبلى ، بالإسلام وذابوا فى السواحيليين . ومن قبائل الچيرياما Giryama (١٥٢ الف نسمة فى مقاطعة كيليفى Kilifi) حوالى ٨٠ ٪ وثنيون و ١٠ ٪ مسلمون و ١٠ ٪ مسيحيون . والديجو (٣٥١٣٤ فى تنجانيقا و ٤٠ الف فى كينيا) كانوا فيما مضى يشغلون الساحل ، ولكن الذين بقوا منهم فى السهل الساحلى اصبحوا سواحيليين مما نتج عنه تغيير فى تركيبهم الاجتماعى ، بينما احتفظ سكان الداخل منهم بميزاتهم القبلية ، وبالتالى فإن الإسلام كان له أثر ضئيل على تركيبهم الاجتماعى مع أنهم اعتنقوا مبادئه جنباً إلى جنب مع مبادئهم الدينية .

وبرغم أن قبائل نييكا كانت على اتصال قديم بالمسلمين لكنها قاومت اعتناق الإسلام . صحيح أن أفراداً منها تحولوا اليه ، لكن سرعان ما استوعبوا وذابوا ، أما السيجيچو فقد أصبحوا جميعاً مسلمين يتكلمون السواحيلية وتعدلت عاداتهم ، بينما الديجو الذين يعيشون من ورائهم مباشرة فقد اعتنقوا الإسلام ولكنهم يمارسونه كمراسيم جديدة أضيفت إلى ديانتهم الأصلية ، وما زالوا يسيرون أمورهم وفق عادات الديجو المعارضة تماماً للشريعة الإسلامية .

الزارامو Zaramo (١٨٣٧٦٠ نسمة)

(أ) أقرباؤهم وانسباؤهم ندنچيريكو Ndengereko وخوتو Khutu وكامى Kami ولوجورو Luguru .

والزارامو خليط من النـاس اتحدوا بسبب بنائهم الاجتماعى . والاقليم الذى يعيشون فيه ، فالسكان الأصليون فى ساحل مقاطعة دار السلام المعروفة الآن كانوا واموابآو Wa mwabau ، ووامبويرى Wa Mbwere (ومنهم بقايا أصبحوا سواحيليين يعيشون فى جزيرة مافيا والشريط الساحلى المواجه لها) . وقد استوطن الشيرازيون والخاديميون على الساحل وتزاوجوا وتزايدوا وأصبح يطلق عليهم Wa Shomvi ، وأدت الحاجة إلى الدفاع عن أنفسهم إلى بناء قرى تحيط بها الغابات أو السياج من الأسياخ ويطلقون عليها إسم Pongono ، وعادة ما كانت كل قرية من تلك القرى لعائلة واحدة ، وقد ظهرت مجموعات كثيرة منها تضم عائلات عديدة واعترفت بسلطان زعيم عليها يطلق عليه Mdewa وجمعها Wadewa(الزعيم فى قبائل الزارامو) ولم تظهر وحدات سياسية أو عسكرية أكبر من ذلك وأصبح الزارامو هم مجموعـة من مائتين أو ثلاثمائة أسرة منتشرين فى ١٨٠ قرية من تلك القرى ، وفى القرن الماضى عندما امتد نشاط العرب على طول الساحل ، تفتت نظام تلك القرى بعد أن أصبح الزارامو يعتمدون على تأييد العرب ، وكانت العـــلاقة بين العرب والزارامو وأمثالهم من السكان القريبين من السـاحل تقوم على أساس من الاحترام المتبادل ، وكان العرب لا يتدخلون إلا قليلا فى شئونهم الداخلية ، وظل زعماء الزارامو يمارسون سلطاتهم المحلية ، وقد أقام العرب واليين منهم فى كل من كيسيجو Kisju ، ودار السلام ولـكنهما لم يكونا سوى ممثلين

لسلطان زنجبار ، وقد استقر عدد قليل من الافريقيين العرب فى هذه المقاطعات[١] ومع ذلك فإنه فى تلك الفترة انتشر الاسلام وشمل معظم الزارامو .

أما الندنچيريكو الذين سكنوا المناطق الريفية جنوب مقاطعة كيساراوى Kisarawe بين الزرامو والروفيجى ، فقد أصبح جميعهم مسلمين منذ حوالى المائه عام .

(ب) اختلاف عمق تغلغل الإسلام من الساحل اختلافاً جوهرياً :

ففى مقاطعة تانجا بتنجانيقا يوجد تركيز كبير له أهميته ، وتداعت الطقوس الوثنية بين القبائل وأخذت فى الاختفاء بصورة واضحة وانتشر الإسلام والمسيحية انتشاراً إسميا واسع النطاق فى تلك القبائل وينتشر أتباع كل من الديانتين هنا وهناك ، مما أدى إلى صعوبة — وربما إلى استحالة — تقدير نسبتهم إلى بعضهم البعض حتى ولو من الناحية التقريبية . والتعصب غير موجود أو معروف ، وذلك أن بعض العائلات تضم أعضاء يعتنق بعضهم الإسلام وبعضهم الآخر يعتنقون المسيحية كما أن تغيير الديانة لا يثير المشاعر فى هذا المجتمع .

وفى منطقة جبال أوزامبارا Usambara وما حولها التى تسكنها قبائل الزيجولا ونجولو Ngulu وشامبالا Shambala ودوى Doe وكويرى Kwere وروا Ruwa والبونديى Bondei[٢] نسبة مرموقة من المسلمين .

(١) خارج مدينة دار السلام اليوم يوجد حوالى الخمسين فقط من العرب البالغين .

(٢) أجبرت قبائل الديجو قبائل بوندى Bondei (٣٢١٢٠ نسمة) على العودة بالقوة إلى سفوح جبال أوزامبارا حيث يعيشون اليوم بعد أن ذاب كثير منهم فى السواحليين. وهم يعيشون مثل الشامبالا وأصبحوا كذلك تحت حكم عائلة كيليندىفى وغالبيتهم الآن مسيحيون .

١ — الزيجولا أو الزيجوا Zigua (١٣٤ ألف نسمة) يشغلون السهول الواقعة حول نهر بانجانى وجبال أونجورو ، ومنطقة قبائل كامى وتشمل النسبة الكبرى من وادى نهر وامى Wami فى مقاطعة كوروجوى Korogwe . وقد تأثروا بالحياة السواحيلية ويقوم الاسلام بينهم على أسس قوية بعد أن أصبح ثلاثة أرباعهم تقريباً مسلمين .

٢ — النجولو Ngulu (Nguru) (٦٦ ألف نسمة) من جبال نجورو شمال موروجورو بتنجانيقا . وهم من نفس نوع الزيجولا ويتكلمون نفس اللغة ويتبعون نفس العادات ، ولكنهم قبيلة مختلفة من الناحية التقليدية ، فهم زراع ومربو ماشية يعيشون فى قرى صغيرة أو كفور متناثرة تضم الواحدة منها من عشرة إلى عشرين كوخا وكثيرون منهم يشتغلون بالتجارة(١) ومراكزهم التجارية هى نجيرا Ngera وسونجيا Songea فى الشمال ومزيها mziha وتوريانى Turiani ومفوميرو Mvomero وداكاوا Dakawa فى الجنوب ، وعن طريق نشاطهم التجارى ساد الاسلام حوالى ثلثى — إن لم يكن ثلاثة أرباع — الأهالى ، والباقى مسيحيون .

٣ — الشامبالا Shambla أو سامبا Sambaa وهى قبيلة كبيرة (١٩٣٨٠٠ نسمة) تشغل الجزء الأكبر من جبال أوزامبارا وتستوطن كذلك فى وادى بانجانى وفى الأراضى الواطئة الواقعة إلى الشرق فى لوشوتو Lushoto وكوروجوى Korogwe من مقاطعة كوروجوى وفى السهول اختلطوا بالزيجولا

---

(١) أشار Krapf فى كتابه Travels, 1860 ص ٣٧٣ — ٣٧٤ إلى أهالى منطقة جبال نجورو كتجار للعبيد والعاج .

وغيرهم « وغالبية الشامبالا مسلمون[١] » ولكن المسيحية كذلك تبدو على درجة لا بأس بها من القوة .

(٤) البارى Pare أو آزو Asu (١٢٦ ألف نسمة) يشغلون الجبال الواقعة شمال غرب أوزامبارا وقد نشأوا نتيجه لثلاثة موجات من الهجرة من كينيا ، وقامت زعامة بين العناصر الشمالية (أسرة زيجوا Zigua فى سامى Same ومجيما Mjema فى أوزانجى Usangi وأسرة جوينو Gweno فى أو جوينو Ugweno) .

أما الجنوبيون من Pare فقد وضعوا تحت حكم عقداء (حكام) شامبالا أثناء الحكم الألمانى ، ولكن فى عام ١٩٢٥ عين زعماء من بارى نفسها ، وفى العصر الألمانى أخذ الاسلام ينتشر جنبا إلى جنب مع المسيحية واختلط معتنقو كل من الديانتين معاً [٢] .

(٥) استطاع الاسلام أن يتغلغل إلى الداخل بين الشاجا Chagga (٣١٨١٦٠ نسمة) الذين يعيشون فى منحدرات كيليمنجارو (مقاطعة موشى Moshi) وكان اتجاهاً غيرعادى بين شعب يقطن بعيداً عن الساحل أن يتخذ السواحيلية كلغة قبلية له من ناحية وكوسيلة للتخاطب مع غيره من القبائل

E.V.Winans, Shambala. The Constitution of a Traditional (١) State 1962,

وقد وردت هذه العبارة فى أحد هوامش الكتاب فقط ، ولم يشر الأستاذ وينانز مرة أخرى إلى كونهم مسلمين ، والكتاب جميعه يبين قوة طقوس الأسلاف فى نظامهم العائلى .

(٢) تحول الجزء الشمالى من مقاطعة بارى ككتلة واحدة إلى الإسلام منذ عامين ، وفى المنطقة الجبلية من بارى كلها حيث يبلغ التعداد ٥٨ ألف نسمة تحول ثلاثون ألفاً على الأقل إلى الإســلام بينما البعثات البروتستانتية لم تستطع تبشير سوى ٤ آلاف بعد خمسة وعشرين عاما .

D. J. Richter, Tanganyika and its Future 1934 P 56.

lingua franca (1) من ناحية أخرى . وبرغم أن التجار السواحيليين كان لهم نشاط فى بلاط رندى Rindi (مدينة موشى الان بتنجانيقا) ، فإن المسلمين لم يتمكنوا من ترسيخ أقدامهم دائما فى بلاط الزعماء فى عام ١٩١٤ وقد بدأ التحول إلى الاسلام أثناء حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وتزايد حتى نهاية العشرينات(٢) ، ثم أخذ يتباطأ، ومع أن البعثات المسيحية قوية بامكانياتها إلا أن الإسلام بدوره قام على عنصر المعارضة للغربيين ، الأمر الذى كان يلقى قبولا فى نفوس الناس .

(ج) المنطقة التى مركزها موروجورو وتشمل ١٩٣٥٠٠ نسمة من اللوجورو luguru فى جبال لوجورو ، ٨٧ ألف كاجورو Kaguru فى الجبال الشمالية والغربية و١٧ ألف ساجارا Sagara أو Sagala فى السهول وسفوح الجبال . وكان هناك تغلغل اسلامى ملموس بين اللوجورو فى السهول بينما اعتنق أولئك الذين يقيمون فى الجبال الديانة المسيحية كما يتبين من الجدول التالى(٣)

---

(١) G.N. Shann «The Early Development of Education Among the Chagga».Tanganyika Notes and Records No45 December,1956.

(٢) فى عام ١٩٢٧ أسلم حوالى ٧٠٠ من الروم الكاثوليك على يد أحد المسلمين الأشراف .

(٣) R. Young and H. Fosbrooke, Land and Politics among the Luguru, 1960 p. 74.

المنطقة		نوعها	مسيحيون فى المائة	مسلمون فى المائة	وثنيون فى المائة
مجيتا	Mgeta	مرتفعة — جافة (غرب)	٨٦ ٪	٤ ٪	١٠ ٪
ماتومبو	Matombo	منخفضة — ممطرة (شرق)	٣٣ ٪	٦٢ ٪	٥ ٪
مكويونى	Mkuyuni	منخفضة — ممطرة (شرق)	٣ ٪	٩٧ ٪	—
تونونجو	Tunungo	سهول قاحلة (شرق)	٥٢ ٪	٤٠ ٪	٨ ٪
ميكيزى	Mikese	سهول قاحلة (شمال شرق)	—	١٠٠ ٪	—
ميليلا	Melela	سهول قاحلة (غرب)	١٩ ٪	٧٥ ٪	٦ ٪
ميليلينجوا	Mililingwa	سهول قاحلة (غرب)	١ ٪	٨١ ٪	١٨ ٪

ويقول الـكاتبان R. Young و H. Fosbrooke «هذا التوزيع يرجع فى الأغلب إلى ظروف تاريخية . فقد كان للعرب والسواحيليين صلات قليلة بالتلال ، وأخرى كبيرة بالسهول وذلك قبل أن يتغلغل الأوروبيون إلى الداخل ،وكان هؤلاء يفضلون الأراضى المرتفعة الصحية لاقامة مواقع بعثاتهم التبشيرية ، ومع ذلك فإن واحدة من أوائل تلك البعثات أقيمت فى السهول وهى تونونجو Tunuuguo التى انشئت عام ١٨٨٤ ، وفيها تتوازن المسيحية مع الاسلام تقريباً اليوم » .

أما القبائل الأخرى فى مقاطعة موروجوزو التى توجد فيها نسبةعالية من المسلمـــين فهى الـكامى kami (٣٢ ألف نسمة) وكوتو kutu أو Khutu (١٢٣٠٠ نسمة) .

(د)ولقد تغلغل الاسلام بشدة بين قبائل البانتو ضمن مجموعة القبائل شمال جوجوGogo فى منطقة Koudoa-Irangi من المقاطعة الوسطى. وكانت منطقة كوندوا ايرانجى تقع فى الماضى على الطريق الرئيسى لتجارة العبيد المؤدى إلى تابورا Tabora حيث لم تـكن السكك الحديدية قد انشئت عند تلك النقطة بسبب وجود الينابيع الدائمة . وكان التجار العرب يتجنبون المرور فى مناطق الجوجو بسبب المـكوس العالية التى فرضوها على قوافلهم . والقبائل التى تأثرت بالاسلام هى إيرانجى (١١٠٣٠٠ نسمة) ويشغلون التلال شمال مقاطعة كوندوا ، والنياتورو Nyaturu (١٩٥ ٧٠٠ نسمة) فى سينجيدا Singida والجزء الشمالى من مقاطـــعة مانيونى Manyoni والنيرامبا Nyramba (Iramba) (١٥٦٥٠٠ نسمة) ويقال أن ثلاثة أرباع هذه القبائل من المسلمين[١] ، ولم يؤثر الاسلام فى شعوب المنطقة الذين يتـكلمون اللغة الحامية

(١) ويقال أن الإسلام أقوى بين الإيرانجيين الشرقيين عنه بين الغربيين .

البربرية[١] أو فى قبيلة بانتو - جوجو الكبيرة[٢] .

(هـ) وتغطى المقاطعة الغربية بتنجانيقا مساحة شاسعة إلا أن توزيع السكان فيها غير متوازن بسبب انتشار ذبابة تسى تسى فى ٦٠ ٪ من تلك المساحة مما يجعل الحياه فيها عسيرة .

وقبيلة نياموىزى Nyamwezi (٣٦٣ر٢٦٠ نسمة) ثانى كبريات القبائل فى تنجانيقا ومن المحتمل أن يكون نصفها من المسلمين ، فقد كان أفرادها على صلة بالمسلمين منذ أكثر من مائة عام ، وكان هذا الاتصال يتم إما عن طريق التعامل مع التجار القادمين من الساحل أو عن طريق اشتغالهم كحمالين فى القوافل التجارية ، أو كمرتزقة فى الجيشين العربى والألمانى ، وكعمال فى المزارع سواء ما كان منها واقعاً فى الداخل أو على الساحل ، وقد ساعد تحول زعماء هذه القبيلة إلى الاسلام على ترسيخ أقدامه وتوطيدها وانتشاره بين أفرادها .

وقد أنشأ العرب مركزا تجاريا فى تابورا ، وكان النياموىزى معروفين جيدا للرحالة الأوروبيين الأوائل الذين كانوا يستخدمونهم كحمالين ، كما عملوا مع العرب والألمان كجنود مرتزقة . ونتيجة لذلك انتشر الاسلام فى تلك المنطقة وانتقل منها إلى المستوطنات خصوصا فى الاقليمين الغربى والشمالى . ولقد عزز هذا الانتشار الاسلامى فى موطن النياموىزى ، هجرتهم المؤقتة إلى

---

(١) قبـائل الجوروا Gorowa أو الفيومى Fiome (٧٠٠ر١٧ نسمة) الذين بهم دم حامى وحكامهم من المسلمين ، ظلوا وثنيين .

(٢) من النادر أن يتحول الجوجو إلى الإسلام ، والقليل منهم الذين أسلموا يعيشون فى المراكز التجارية وثلاثة أرباع سكان دودوما مسلمون . والجزء الأكبر من سكان المدن من الجوجو ونصفهم من المسلمين ومسلمو المدينة الآخرون من النياموىزى والهيهى والزارامو والعرب والصوماليين ومانييما Manyema .

الساحل حيث كانوا يشتغلون كعمال فى زنجبار وفى المزارع الساحلية ، وقد استقر بعضهم بصورة دائمة خارج موطنهم ، ولكن البعض الآخر عادوا كمسلمين لينشروا عناصر دعوتهم بين أقربائهم فى موطنهم الأصلى . وقد اعتنق الزعماء الإسلام بصورة عامة ، ويقال أن واحداً من سلالة أحد زعماء القرن التاسع عشر ، سيدى بن فونديكيرا Fundikira (عزل عام ١٩٢٩) عمل على أن يعتنق زعماء النياموىزى الإسلام « حتى يتمكنوا من تناول الطعام معا » . ومناطق النياموىزى التى يقال أن الاسلام فيها أقوى هى مناطق قبائـــل Unyanyembe و Uyuji و Usagare و Gnulu (وجميعها فى مقاطعة تابورا) و Uzega وكاهاما ، ومع أنها من قبائل نياموىزى الفرعية التى تعيش فى الداخل ، إلا أن أفرادها تأثروا بصورة غير عادية بالحضارة السواحيلية وانتشر الاسلام بينهم ، ومع ذلك لم يكن تغلغله عميقا لأنه من النادر أن يعمل معلموا الفقه داخل الغابات ، وبالتالى ظلوا محافظين على تركيبهم وأعرافهم الاجتماعية دون أن يكون للشرائع الاسلامية سوى تأثير ضئيل على قواعد زواجهم أو ميراثهم وما شابه ذلك .

وبرغم أن قبائل سوكوما Sukuma فى منطقة البحيرة هم فى المقام الأول الفرع الشمالى للنياموىزى ، إلا أنهم لم يتأثروا بالاسلام إلا قليلا ، وهم أكبر قبائل تنجانيقا (١٫٠٩٣٫٧٦٠ نسمة) وينتظمون تحت زعامات صغيرة نتيجة لهجرة عناصر من قبيلة باهيما البربرية ، ولأسباب دفاعية انشأوا قرى تحميها أسوار من الشوك تعيش بداخلها مجتمعات القرية جميعا ومعهم ماشيتهم ، إلا أن استتباب الأمن أيام الحكومات الأوروبية ساعد على تفرقهم خارج قراهم وتنقلهم فى المناطق المجاورة ، وأدى ذلك إلى اختلاطهم بصغار التجار من السكان الافريقيين العرب (حوالى ٢٥٠٠ فرداً) الذين كانوا منتشرين

فى انحاء مقاطعة البحيرة ، كذلك أثرت مدينة موانزا وهى من المستوطنات العربية الرئيسية فى المجتمعات التى تعيش فى المناطق المجاورة لهاومن بينها قبائل السوكوما . وقد ساعدت التغيرات التى طرأت على ظروف تلك المناطق ومن بينها نشاط بعثات التبشير المسيحية على وصول الدين المسيحيى إليها وانتشاره إلى جانب الدين الاسلامى ، فأصبح امتزاج المسلمين بالمسيحيين مشاهداً فى بعض القرى ، كذلك فإن التحول إلى الاسلام لم يكن صادراً عن إيمان عميق ولا يعنى بالضرورة هجر الاعراف أو العادات القديمة(١) .

وفى الشمال الشرقى لبحيرة تنجانيقا يوجد عدد من القبائل التى تأثرت بالتوزيين Tosi النيليين أو البرابرة المهاجرين ، وكونوا لأنفسهم أسراً حاكمة. وبعض هذه الأسر تأثرت بالإسلام الذى وصلت اشعاعاته من أوجيجى Ujiji أهم المراكز الإسلامية فى شرق افريقيا الأوسط. وفى حوالى ١٨٤٠ بدأ العرب وسكان ساحل مريما Wa Mrima فى زيارة أحد الأسواق المحلية فى هذا المركز على البحيرة(٢) لحوله إلى مستوطن فى عام ١٨٦٠ ، ثم تطور إلى مدينة صغيرة يسكنها حوالى عشرة آلاف من السكان جميعهم تقريباً من المسلمين، وهم عبارة عن مجموعة مختلفة الأجناس يرجع أصلهم إلى أكثر من خمسين قبيلة مختلفة كثير منها من أصل كونجولى من بقايا الحملات التجارية وحملات اقتناص العبيد. ولا توجد مدينة أخرى فى الداخل مثل أوجيجى فهى تعطى زائرها الإحساس بأنها سواحيلية انتقلت من المحيط الهندى إلى شواطىء بحر يقع فى الداخل ،

---

(١) عندما وصل المبشرون فى بداية عهد نشر الدعوة المسيحية إلى ضرورة الاقتصار على زوجة واحدة فى مجتمع تعد زوجات الزعماء فيه بالمئات ، أعرض السكان فوراً عن المبشرين وهجروا الكنيسة وعادوا إلى ما كانوا عليه . فاضطر المبشرون إلى إقناعهم بالزواج بواحدة فقط فى الكنيسة والسكوت عن باقى الزيجات (المترجم) .

(٢) R.F. Burton, "The Lake Regions of Central Africa 1860 ii : 56 — 57.

فالتقاليد الإسلامية والعادات والأساطير واللغة والحياة المادية نفسها ، كلها سواحيلية .

مقاطعة أوجيجي Ujiji : أن ثلاثة أرباع قبيلة واجيجي (٤٦٥٠ نسمة) من مرتفعات ما نيوفو Manvovu شمال كيجوما التي تشبه الها Ha [1]، من المسلمين . والباقي مسيحيون ، ويحكم مقاطعة اوجيجي زعيم له نواب هم رؤساء ضواحي مدينة اوجيجي وموانجا ، وبعد هم يأتي رؤساء القرى . وفي اوكارانجا ukaranga جنوب او جيجي — وهي من الناحية الإدارية تتبع نفس المقاطعة — لم يتبق من السكان الاصليين سوى عدد قليل ، أما السكان الحاليون فهم من المسلمين المشاكيين من قبائل من الكونغو ومن أجزاء أخرى من تنجانيقا . وفي افينزا uvinza يقدر سكانها بحوالى ٨ آلاف نسمة هم في الأغلب مهاجرون من الها Ha ولم يبق من أهالى اوفينزا نفسها سوى القليل ، فتاريخها خلال القرن الماضي عبارة عن مجموعة من الحروب القبلية والتشتت نتيجة لإغارات جمع العبيد بسبب مرور طريق تجارة الرقيق الرئيسى بها . وقد ازدهر الإسلام بها بصورة ملموسة منذ ١٩٣٦ عندما كان ٩٠ ٪ من السكان وثنيين ، وفي الوقت الحالي نجد أن ٤٥ ٪ مسلمون و٤٥ ٪ وثنيون و١٠ ٪ مسيحيون .

و — جنوب شرق تنجانيقا وشرق افريقيا البرتغالى :

تقوم الحياة السواحيلية فى جميع المدن الساحلية الحالية ، أما المدن القديمة

(١) حظى الإسلام بتقدم بسيط بين الها وهي قبيلة كبيرة (٢٨٩٧٩٠ نسمة) وللروم الكاثوليك إثنا عشر بعثة تبشيرية ويقولون أن هناك تحولا جماعياً للمسيحية ، والمسلمون يوجدون فقط فى مراكز قليلة مثل كازولو وهم من المهاجرين ، وهناك زعيم واحد يعتنق الإسلام ، وأى فرد من الها من الذين هاجروا الى أوفنزا واعتنق الإسلام ، يرتد عنه فور عودته إلى موطنه الأصلى . وكذلك لا يوجد مسلمون بين البندى Wa Bende سوى عدد قليل من المهاجرين .

مثل كيلوا كيفنجى [١] وميكندانى فقد أفل نجمها تماما وأصبح الاسلام يجد مركزه الرئيسى الاقليمى فى مدينة ليندى . ويعيش العرب القليلون (حوالى ٢٥٠ فرداً) المقيمون فى جنوب تنجا نيقا فى تلك المدن الساحلية . ومن الساحل نفذ الإسلام إلى الأراضى الداخلية فيما وراء الساحل . وكثير من الشعوب فى جنوب تنجانيقا تشتت فى القرن التاسع عشر بسبب اغارات قنص العبيد من من ناحية وغزوات واغارات كل من النجونى Ngoni والهيهى من ناحية أخرى ، ولكن الإسلام كان إلى حد ما عاملا من العوامل التى ساعدت على جمع الشمل واعادة تشكيل القبائل .

والنجيندو Ngindo (٨٨٫٤٠٠ نسمة) الذين يعيشون فى الداخل بعد كيلوا مباشرة مسلمون، وعدد كبير منهم من الذين يسكنون وراء مويرا مسلمون أيضا. ولقد كان قادة ثورة ماجى ماجى عام ١٩٠٥ — ١٩٠٧ من صغار الزعماء والسحرة من النجيندو والبوجورو Pogoro ، وقد استعانوا فى ثورتهم بكل من الطقوس السحرية الإسلامية والوثنية .

كذلك الحال فى القبائل الأخرى فقد تأثرت أقسامها المجاورة للساحل بالإسلام أكثر من غيرها ومنهم المويرا Mwera (١٣٨٫٢١٠ نسمة)التى تغلب فى مقاطعتى ليندى و ناشينجويا Nachingwea ومنها عدد كبير فى مقاطعة كيلوا، وتشغل الماكوا makwa بصورة رئيسية منطقة برتغالية بين لوجندا Lujenda والمحيط ، وجميع المعلومات التى أمكن جمعها بشأن تلك القبائل توضح أن الإسلام قد أثر بصورة كبرى فى بعض المناطق ، ولكنه يضعف فى

(١) توجد ثلاث مدن باسم كيلوا : ا — كيلوا كيسوانى Kisiwani وهى المدينة التاريخية على الجزيرة وقد تهدمت . ب — كيلوا كيفنجى Kivinje على الساحل الرئيسى للقارة وتعدادها الآن ٢٠٠٠ نسمة وكانت مركزاً إدارياً حتى عام ١٩٤٩ عندما أنشئت الثالثة وهى كيلوا مازوكو . ج — كيلوا مازوكو masoko (وتعدادها ٢٠٠ نسمة) .

مناطق أخرى إذا حكمنا بالظواهر الخارجية السلبية مثل ظاهرة عدم وجود مساجد أو عمائم إسلامية . وفى تنجانيقا يعيش الماكوا (١٢٣ر٣٢٠ نسمة) فى مقاطعتى كيلوزا kilosa وتوندورو Tunduru ويغلبون فى مقاطعة الماساى وهناك بعض المسلمين القليلين بين العجائز من الماكوا فى مقاطعة الماساى ، ولكن الواميتو Wameto الذين جاءوا بالآلاف عبر نهر روفوما Rovuma فيما بين ١٩٤٥ و ١٩٥٥ جميعهم اما مسلمون اومن الماكوا ، باستثناء اقلية صغرى من المسيحيين . وثلاثة أرباع الماكوندى makonde (٣٣٣ر٩٠٠ نسمة فى تنجانيقا) الذين تجمعوا فى الهضبة المسماة باسمهم ويعيشون بصفة رئيسية فى تنجانيقا ، وكذلك فى جنوب نهر روفوما فى الأرض البرتغالية كنتيجة لاغارات الساكالافا Sakalava المنتظمة ، من المسلمين وربعهم من المسيحيين. ولم يؤثر الاسلام نسبياسوى فى المناطق المجاورة لميكيندانى والساحل البرتغالى، وبينما الماتومبى matumbi الذين يعيشون فى المناطق التى يمكن الوصول إليها من دلتا نهر روفيجى Rufiji اصبحوا مسلمين فان اولئك الذين يعيشون فى المناطق الشوكية البعيدة لم يكن للمؤثرات الخارجية سوى تاثير ضئيل عليهم .

والقبيلة المسلمة الغالبة هى الياو، فان ثمانين فى المائة منها على الأقل مسلمون [1] وسنجد الاشارة إليهم مفيدة فى توضيح تأثير الاسلام على قبيلة تحولت إليه بسرعه كبرى ، فقد عدل الاسلام من حياتهم المادية ومن نظرتهم الدينية ، ولكن لأنهم شعب تضع تقاليده الأم — وليس الأب — فى مكان الصدارة بكل ماهذه التقاليد من نتائج ، فلم يكن للاسلام تأثير كبير على حياتهم

(١) الياو المانجوشى Mangoche yao هم فى الأغلب مسيحيون ، والماشينجا machinga ثلثهم مسيحيون وثلثاهم مسلمون .

الاجتماعية مع انهم مسلمون متحمسون فى الغالب ويشعرون بالاسلام شعورا قويا ويتخذونه علامة تميزهم عن غيرهم من القبائل .

ويعيش الياو الآن فى أراضى ثلاثة دول : البرتغاليون (١٨٠الف نسمة) وفى نياسا لاند (٢٨١٠٠٠ نسمة) ، وفى تنجانيقا (١٤٤٢٠٠ نسمة) ويشغلون المنطقة الواقعـــــة بين نهرى لوجندا Lujenda وروفوما Rovuma وبحيرة نياسا ، ولقد كانوا متمركزين فى الأراضى البرتغالية — حيث يعيشون — شرق نهر لوجندا ، الا انهم هاجروا منذمنتصف القرن التاسع عشر إلى الغرب والشمال الغربى والجنوب الغربى . وقداثرت ثلاثة مجموعات منهم فى جنوب نياسالاند واختلطوا بشعوب أخرى منها المارافى Maravi الذين اتخذوا لأنفسهم لغة الياو وأسلوب حياتهم (١) . وهاجروا بالألاف إلى مقاطعة توندورو فى تنجـــــانيقا فيما بين١٩١٠ ، ١٩١٢ ومازالت هجرتهم مستمرة .

والندنديولى Nedendeuli (٣١٫٧١٠ نسمة) من مقاطعة سونجيا songea هم مجموعة من خليط من شعوب استعبدهم النجونى Ngoni تحت زعامة مشوبى Mshope فى منتصف القرن التاسع عشر لفلاحة الأرض ، والغربيون منهم اعتنقوا المسيحية بينما اعتنق سكان الجزء الشرقى الدين الاسلامى وبذلك كان الدين هو العامل الرئيسى فى التفريق بينهم وجعلهم قبائل منفصلة (٢)

(١) فى نياسالاند « الإسلام قوى حول شاطىء البحيرة والحدود الشرقية للمحمية ولـكن حتى هناك فالإسلام يوجد فى المراكز الساحلية القديمة لتجارة العبيد » . ولقد رحل الياو الى الجزء الجنوبى والى مقاطعة زومبا (ومنها المركز الإسلامى القديم فى تشيكالا) وهى أكبر مقاطعة إسلامية فى المحمية فالنسبة بين الأهالى هى ١ : ٥ ، وبين القبائل الأخرى الى الغرب من تلك المراكز على البحيرة ، فان الإسلام لم يحظ بتقدم .
A.Hetherwick, "Islam and Christianity in Nyassaland", Moslem World Xvll (1927)

(٢) أنظر : P. H. Gulliver, "A Tribal Map of Tanganyika" : T. N. R. No52 1959.

ولا تزيد نسبة المسلمين بين القبائل الرئيسية الثلاث في منطقة سونجيا ، وهي النجوني والندنديولي الغربيون والماتنجو Matengo عن ١٠٪ .

ويمكن ضم قبائل الهيهي Hehe ، وهم من الشعوب « الأبوية » التي لا تضع الأم في مكان الصدارة ويعيشون في مقاطعة ايرنجا Iringa في المرتفعات الوسطى وتعدادهم يبلغ ٢٥١٦٢٠ نسمة ، وقد اصبحوا وحدة سياسية بفضل أحد زعمائها ويدعى مويو جامبا Muyugamba (١٨٧٩) الذي اشتهر ابنه مكواوا Mkwawa (١٨٩٨) بمقاومته للحكم الألماني ، هذا وقد ازداد إنتشار الإسلام بينهم خلال العشرين أو الثلاثين عاماً الماضية .

ز — أوغندا وغرب كينيا :

في تعداد سنة ١٩١١ لسكان أوغندا — وكانت تضم وقتها مقاطعة نيانزا الكينية — ظهر أنه من بين السكان البالغ عددهم ٣٫٧٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ٤٣٠ ألف نسمة من المسيحيين أي ١١٪ من مجموع السكان ، بينما كان المسلمون ٧٨ ألف نسمة أي ٢٪ من مجموع السكان ، والوثنيون ٣٫١٩٢٫٠٠٠ نسمة أي ٨٧٪ .

وفي تعداد سنة ١٩٣١ — بدون مقاطعة نيانزا — كان عدد السكان ٣٫٥٢٥٫٠٠٠ نسمة من بينهم ١٢٢٫٠٢٥ نسمة مسلمون أي ٣٫٥٪ ، وفي عام ١٩٦٢ بلغ التعداد ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة من بينهم ٣٥٠ ألف نسمة مسلمون أي ٥٫٤٪ من مجموع السكان .

وفي إقليم بوجندا Buganda الذي يسكنه ١٫٨٣٥٫٠٠٠ نسمة من بينهم ١٫٠٤٥٫٠٠٠ نسمة من الجاندا ، يوجد ٤٤٪ من مسلمي أوغندا كلها[1] .

(١) في تعداد ١٩٥٩ كان مجموع المسلمين ٣٣٥٫٠٠٠ نسمة (٥٫٢٪ من السكان) منهم ١٤٧ ألفاً أي ٤٤٪ في بوجندا .

ومنذ الأيام الأولى للصراع الدينى ، كان الإسلام ينتشر بين الجاندا بسبب الولاء للعائلة والارتباط بها ، ويبدو أنه لا يوجد هناك سوى عدد قليل من القوى ذات الديانة الواحدة ، فإن الطابع الغالب هو مزيج بنسب مختلفة من الروم الكاثوليك والإنجيليين والمسلمين . واتباع هذا الدين أو ذاك والتحول إليه يرجع فى المقام الأول إلى التقاليد العائلية والولاء لها .

ويتضح الإسلام قويا فى منطقة بوزوجا Busoga حيث انتشر فيها عن طريق نفوذ بوجندا وبسبب وجود القوات السودانية ، ونسبة المسلمين فيها ١٣ ٪ وتتساوى تقريبا مع نسبتهم بين الباجاندا Baganda . وفى منطقتى بوكيدى وبوجيزو[١] Bukedi & Bugesu شرقى أوغندا يشكلون ٤ ٪ و ٥ ٪ على التوالى ، وتقل النسبة فى شمال مبالى Mbale بصورة ملحوظة ، فبين الإتيزو Iteso مثلا ، وهى ثانى أكبر قبيلة فى أوغندا (٥٢٤ر٧٠٠ نسمة) لا يوجد مسلم واحد . والقلة الذين يوجدون فى هذه المنطقة هم من الآسيويين أو من المهاجرين من مناطق أخرى ، وينطبق ذلك على المناطق الشمالية الأخرى (لانجو Lango — انشولى Achol . . . الخ) الذين يرجعون إلى أصول مختلفة من القبائل الجنوبية ، ولا يوجد مسلمون بينهم كذلك . وفى الشمال يوجد المسلمون فى مقاطعة النيل الغربى فقط (١٠ ٪) حيث يوجد أكبر عدد من المستوطنات النوبية ، وفى مقاطعة مادى Madi (٣٧ ٪) والمقاطعة التى بها أكبر نسبة من المسلمين (٨٠ ٪) هى أرينجا Aringa حيث توجد ثلاثون أو أربعون مدرسة لتحفيظ القرآن . ويقال أن هناك عدداً لا بأس به المسلمين فى مقاطعة تيراجو Terago ، وعن طريق المستوطنات الإسلامية انتشر

---

(١) سكان مقاطعة مبالى mbale هم فى الغالب Gisu ، وفى منطقة بوكيدى توجد قبائل صغيرة مثل جويلى ونيورى وداما وتيزو وساميا وجيوى .

الإسلام بين بعض اللوجبار Lugbara والـكاكوا Kakwa ، ولـكنه لم يصل إلى أعماق نفوسهم مما كان له تأثير على استمرار اشتراكهم فى ممارسة طقوس دياناتهم الأصلية .

وفى مقاطعة نيانزا بـكينيا الغربية توجد نسبة صغيرة من المسلمين ، كما يوجد بعض السواحليين والصوماليين فى المدن والمراكز التجارية ، وغالبية سكان مدينة ماميا Mumia فى شمال نيانزا على الطريق الرئيسى من أوغندا إلى الساحل ، من المسلمين (سواحيليون وصوماليون ونوبيون وبعض الذين تحولوا إلى الإسلام من الوطنيين) وأصبحت تلك المدينة المركز الإسلامى الرئيسى فى المنطقة ، ولـكن المسلمين قلة بين السكان الوطنيين وهم غالبا من الجوليو النيليين Nilotic Joluo ومن الأبالويا البانتو Bantu Abaluyia ويقوى الإسلام جداً بين السكان الوطنيين فى وانجا Wanga بسبب النفوذ السواحيلى المطرد ، والماراجولى Margoli وبعضهم تحول إلى الإسلام أثناء خدمتم فى الجيش أو اشتغالهم كحمالين ، ويوجد عدد قليل من الأسر المسلمة بين الحاميين النيليين Hamitized Nilotes ، والناندى Nandi (١٢٠ ألف)والـكيبسيجيز Kipsigis من مقاطعة كيريشو Kericbo ،والتوجين Tugen إلى الشرق والشمال الشرقى وهم جميعا يتـكلمون لغة واحدة ويعيشون فى ظل نفس العادات .

ويمكن أن نضم هنا مقاطعة بوكوبا Bukoba الواقعة غرب بحيرة فيـكتوريا فى أراضى تنجانيقا ، والقبيلة الرئيسية فيها هى قبيلة الهيهى التقدمية فالمسلمون يشكلون أقلية ولـكنهم يتزايدون ببطء .

ح — أعداد متناثرة :

سودانيون أو نوبيون : ويوجدون فى مجموعات متفرقة فى أنحاء المنطقة ،

وهم إما من السودان الشرقى أو المجاور للنيل ، وبرغم أنهم فى بعض الأحيان يسمون بالنوبيين إلا أنهم لا يرتبطون بالنوبيين الأصليين بصلات حقيقية ، ويبدو أن التسمية جاءت من كلمة « نوبى » التى تطلق على الفرد من سكان جبال النوبة فى مديرية كردفان وأصبحت تطلق على أى سودانى .

ويتضح من تعداد عام ١٩٥٩ أن ٢٣٫٣٣٩ سودانيا يقطنون أوغندا وكثير منهم هاجروا إليها حديثا(١) — وتلك التسمية تبين كيف ظلوا متميزين ولم يذوبوا فى الأهالى ، وقد كان اسلامهم كافيا لكى يميزهم عن الوثنيين الذين استوطنوا بينهم وهم من سلالة جنود أمين باشا المسرحين وغيرهم من عناصر القبائل المتفككة من السودانيين الجنوبيين ، واللغة الوحيدة التى كانت تربط بينهم هى نوع من اللغة العربية المستعملة فى الجيش التى مازال كبار السن منهم يتذكرونها ، ومنهم مجموعات تقطن فى مستوطنات يطلق عليها « ملكى » وتوجد فى مقاطعة النيل الغربى شمال أروا Arwa على حـــدود الكونغو ، وفى جولو Gulu وكيتجوم Kitgum فى أتشولى وفى بعض الجيوب الأخرى ، وهناك فريق آخر من النوبيين من سلالة قبائل سودانية جندتهم مصر منذ عام ١٨٨٩ وجميعهم يتكلمون الآن السواحيلية ، كما أن البريطانيين جلبوا بعض السودانيين للخدمة فى شرق أفريقيا ، وسلالة هؤلاء الجنود السابقين يقيمون فى مدن مقاطعة نيانزا والمقاطعات الوسطى فى كينيا ماميا Mumia وكاكاميجا Kakamega ومبالى Mbale وميرو Meru ونيرى Nyeri وناكوروونيروبى (قرية كيبرا Kibera وبها مدرسة ابتدائية) وفى تنجانيقا فى دار السلام(٢) ، وفى بوما لانجومبى

(١) بعد إخماد ثورة أغسطس سنة ١٩٥٥ هرب كثير من السودانيين الجنوبيين الى أوغندا ، إلا أن هؤلاء لا علاقة لهم بالمستوطنين السودانيين القدامى .

(٢) تبلغ تلك السلالة فى دار السلام حوالى مائة فرد ولهم جمعية تعتبر الجمعية المركزية للسودانيين المتفرقين فى الأماكن الأخرى من تنجانيقا ، وما زالوا يحتفظون بالرقصة السودانية المسماة بالدلوكة وثلاثة رقصات روحية أخرى ، التومبورا والبيورى والجوندو ، ولسوادنيى نيروبى أيضاً جمعية ولكنها أخذت تضعف بعد أن عزف الجيل الأصغر عن إبراز تميزهم الوطنى .

Boma-la-Ngombe من مقاطعة موشى Moshi وغيرهم منتشرون فى أماكن متفرقة أخرى كثيرة .

والمانيما Manyema (٢٦٫٨٨٠ نسمة) عبارة عن كونغوليين مختلفين (مانيما هى مقاطعـة فى شرق الكونغو) من سلالة جنود العرب والعبيد ويوجدون حول شواطىء بحيرة تنجانيقا فى كيجوما Kigoma واوچيچى وعلى طول طريق تجارة العبيد فى أماكن مثل تابورا ، بينما الكثير من العبيد المحررين والعمال استقروا فى المناطق الساحلية وجميعهم مسلمون ، وقد وصفوهم لى على أنهم يشكلون فى مراكز مثل كيجوما العمود الفقرى للاسلام تقريباً .

ط — الحاميون الرحل : الجالا Galla والصوماليون

أما السكان الذين يقطنون المناطق الصحراوية فى شمال كينيا فلا يدخلون إلا قليلا ضمن هذه المعاينة لمسلمى شرق أفريقيا لأنهم ينتمون فى المقـام الأول للمسلمين فى القرن الشرقى . لكننا سنحتاج للاشارة إلى تأثيرهم فى منـاطق الحدود خصوصاً على المشاعر الوطنية الحديثة فى الصومال ، فالواقع أن الوحدة القبلية لم تعرف أبداً بالصومال ولم تكن العوامل المشتركة الداخلية ، من طرق المعيشة والعادات والإسلام كافية لكى تخفف من حدة القوى المركزية الطاردة فى حياة الصوماليين ، حتى محمد بن عبد الله حسن الزعيم الدينى لم يستطع وحده أن يجمع شملهم ، ولكن القومية الحديثة والاسلام مجتمعين ، يستطيعان الاتيان بما كان من قبل يبدو مستحيلا .

وبخلاف البقعـة المعروفة الآن باسم جمهورية الصومال ، ينتشر الرعاة الصوماليون جنوبا فى مقاطعة الحدود الشمالية لكينيا حيث يبلغ عددهم حوالى ١٢٠ الف ومعظمهم الدارود Darod والهاويا Hawiya ولا يوجدون جنوب

نهر تانا حيث أوقفتهم الحكومة عام ١٩٠٩ ، وبينما أهالى جنوب جمهورية الصومال هم من المزارعين المقيمين الذين اختلطوا فى الغالب بالجالا والبانتو فان صوماليى المقاطعة الشمالية لكينيا الذين وفدوا حديثاً نسبياً قد ظلوا بدواً . وبالاضافة إلى ذلك توجد مجموعات صغيرة من الصوماليين استقروا فى المراكز التجارية على طول الساحل الشرقى وفى الداخل (فى تنجانيقا يوجد منهم ٣١٥٢ فرداً) وهم ينتمون إلى عائلة اسحق وكثير منهم جاءوا إما من ساحل البنادير أو من عدن وهم بخلاف العرب لا يختلطون بأحد سوى أعضاء قبائلهم . وفى تنجانيقا اعتبر جميع الصوماليين أفريقيين ، ولكن الإسحاقيين احتفظوا لأنفسهم بحق اعتبارهم من غير المواطنين كما هو الحال بالنسبة لهم فى كينيا .

والجالا الذين اتجهوا جنوباً تحت ضغط الصوماليين يوجدون فى مجموعات صغيرة من الرحَّل فى المقاطعة الشمالية من كينيا (١٨ الف) وفى مقاطعة نهر تانا يوجد منهم أربعة آلاف ، والبوران Boran فى الشمال — وتوجد منهم أعداد كبيرة حول مارسابيت Marsabit وجاربا Garba وتوللا Tulla وموبالى Moyale — هم قبيلة كبرى فى اثيوبيا ، وقد هاجرت هذه العناصر الكينية منها عبر الحدود فى نهاية القرن الماضى . وفى جنوب نهر تانا توجد مجموعات غير ذلك مثل باراريتا Bararetta وكوفيرا Kofira ووارتشوب War Chob وكوكوبا Kokuba وهم عادة يشار اليهم باسم أورما Orma أو واردای Warday (Warra Daya) وهى التسمية الصومالية لتلك العناصر من الجالا ، ولقد اختلطوا بالصيادين من السانيا Sanya والبوكومو الذين كانوا من

الوثنيين تماماً قبــــل سبعين عاماً ثم أسلم معظمهم بسبب الاختلاط الطويل بالصوماليين ، إلاّ أنهم ما زالوا يحتفظون بمظهرهم وعاداتهم الوثنية ، فعبادة الإله واك Waq برغم أنها آخذة فى الضعف نتيجة لبعدهم عن زعمائهم الدينيين (الـكاللو Quallu) الموجودين فى مقاطعة بورانا الاثيوبية من ناحية ، وتأثير الاسلام من ناحية أخرى ، إلاّ أنها ما زالت موجودة على كل حال .

ويتصل بهؤلاء ، الريندايل Reudile (٨ آلاف) من مقاطعة مارسابيت وهم من دم صومالى تغيروا فى نظامهم الاجتماعى والثقافى بسبب اختلاطهم بالسامبورو Samburu وهم من الحاميين النيليين ويتكلمون الصومالية وقد ظلوا وثنيين مع وجود قشرة خارجية من الاسلام ، والجابرا Gabbra هم من الحاميين أيضاً ويتكلمون البورانية من مقاطعة الحـــدود الشمالية . والساكويا (٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠) وهم من أصل غامض غير معروف ويقال أنهم الآن بورانيون .

ى — المستوطنون الشرقيون :

العرب الذين احتفظوا بلغتهم ولم يندمجوا فى مجموعة أو طائفة أخرى :

وهم لا يعرفون فى شرق أفريقيا كعرب ، فكلمة موارابو Muarabu تستعمل فقط فى الاشارة إلى العرب السواحيليين ، وقد بحثنا أمرهم فى موضع آخر من هذا الكتاب ويعرف أفراد المجموعة الرئيسية باسم « الشيحيريون » نسبة إلى مدينـة « الشحيرة » بجنوب الجزيرة العربية ، وفى الواقع فإن تلك التسمية تشمل كل عربى من الساحل الجنوبى ، عدن وحضر موت وموكالا وسوكوترا عدا عمان . وفى زنجبار وتنجانيقا يطلق الأفريقيون كلمـــة « واشيحيرى » Wa Shihiri على جميع أصحاب المحلات التجارية الصغيرة

الذين يبدون عرباً أكثر منهم أفارقة . وقد كتب الأستاذ بيرتون يقول عن زيارته عام ١٨٥٧ «العرب الأكثر فقراً الذين يتجمعون فى زنجبار خلال الموسم هم حضرميون يعملون كثيراً ويعيشون حياة صعبة مثل حمالى استامبول[(١)]».

ولقد استجلب العديد من الحضرميين إلى حاميات السلطان المختلفة كما أن عدد المهاجرين تزايد بعد عام ١٨٨٢ عندما فر نقيب الشيحيريين ومعه أتباعه إلى زنجبار فى أعقاب انقلاب على الأسرة الحاكمة ، وليست هناك عوامل مشتركة تجمع بين الشيحيريين والعمانيين (الواماجا) الذين يشعرون باحتقارهم لهم[(٢)].»

وكثير منهم (من الشحيريين) يمارسون أعمالا دنيئة مثل دفع العربات وبيع الماء والجزارة وما شابه ذلك ، كما يعملون فى السفن التى تجلب الحيتان المجففة والملح وغيرها من المنتجات الرخيصة أو ذات الرائحة وهم ينتحلون أسماء قبلية مثل التميمى والكتحيرى واليافعى . . . الخ ويعارضون تسمية الشحيرى ولم يشتركوا فى تجارة الرقيق أو فى عمليات الاستيطان على الساحل خلال القرن الماضى لأنهم نادراً ما يكونون من ملاك الأراضى ، واليافعيون من المحمية الغربية يحتفظون بمعظم وظائف جنود الميناء فى ممباسا ولقد تزايدت هجرتهم خلال السنوات الأخيرة[(٣)] .

R. F. Burten, Zanzibar i 378 (١)

(٢) كتب الأستاذ R. B. Serjeant يقول « ينقسم الشيحيريون الحضرميون الى فريقين ، قبلى وغير قبلى ، فالقبليون منهم يحصلون على وظائف مثل الجندية أما غير القبليين فيقومون بالأعمال الأخرى ولكن من الممكن أن بعض أفراد الفريق القبلى وخصوصاً من كان منهم من القبائل الحضرمية المستوطنة يفقدون مركزهم الاجتماعى نتيجة لاشتغالهم بالتجارة . . الخ الأمر الذى يجعلهم بلا شك موضع احتقار من العمانيين » .

(٣) توجد معلومات عن الحضرميين فى شرق أفريقيا فى :
"A Report on the Social, Economic and Political Conditions of the Hadramaut" 1936 p. 151.
للاستاذ W.H. Ingrams

والعرب الذين يدخلون تحت لفظ مانجا Wa Arabu Manga عرب عمانيون لم يولدوا فى شرق أفريقيا وبالاضافة إلى ذلك يوجد عرب من أماكن أخرى هم فى الغالب من الشافعيين إلا أن منهم بعض الشيعة من اليمن والبحرين.

ق— الهنود المسلمون Pak—Indian Muslims

وُجد الهنود سواء منهم المسلمون أو الهنادكة منذ وقت طويل فى ساحل شرق أفريقيا، وقد شجع السلطان سيد سعيد نشاطهم الاقتصادى واستيطانهم فأصبحوا عنصراً هاماً فى حياة تلك المنطقة، وينظر المسلمون إلى أنفسهم حسب مذاهبهم، وقد عولجت مذاهبهم الاسلامية وملامحها المميزة فى مكان لاحق من هذا الكتاب، وهذه المذاهب هى :

١ — الاثنا عشرية أى الجعفرية أو الامامية .

٢ — الاسماعيليون وينقسمون إلى نزاريين وأتباع الاغاخان وبهرة .

٣ — المأمونيون (حنفيون) .

٤ — هنود سنيون (حنفيون غالباً ومنهم بعض الشافعيين فى نياسالاند)

٥ — الاحمدية .

ثانياً : انتشار الإسلام

ثمة فترتان :

الاولى هى فترة قيام مجتمع إسلامى أفريقى جديد على الساحل والجزر المقابلة له .

والثانية فترة انتشار الاسلام من الساحل وتلك الجزر إلى الدخل خصوصاً فيما بين ١٨٨٠ و ١٩٣٠ .

١ — الانتشار عن طريق عمليات الامتزاج بين الأجناس Assimilation

برغم أن نتيجة اختلاط الحضارة العربية الإسلامية بحياة البانتو وثقافتهم أدت إلى قيام ثقافة أفريقية — إسلامية اقليمية، إلا أن الجذور الثقافية ومظاهر الحياة ظلت غير أفريقية ، فالإسلام لم يتخذ الطابع الوطنى حتى يمكن النظر اليه كديانة أفريقية ، وهذا المجتمع الذى تكون لم يمتد إلى الخارج ، فكانت الوسيلة الوحيدة لنموه هى عن طريق امتصاص الأفراد وتذويبهم. وكان انتشار الإسلام بين بعض المجتمعات الساحلية فى القرن التاسع عشر مثل الچيبانا Jibana والسيجيجو Segeju والروفيچى Rufiji تقاس بمدى تحول تلك المجتمعات إلى الحضارة السواحيلية وانضوائها تحت لوائها .

ولقد قاومت غالبية قبائل النييكا Nyika الذين يقطنون فى الغابات الداخلية الاسلام إلى يومنا هذا ، وترجع مقاومتهم إلى أن التحول إلى الاسلام هو عمل فردى معناه الخروج عن القبيلة والذوبان فى المجتمع السواحيلى ، ويطلق على هؤلاء الأفراد اسم Mabaji [(١)] ، وهذا اللفظ ليس له ما يقابله فى غرب أفريقيا حيث التحول الفردى ليس هو الطابع العام . والمستخرج التالى المأخوذ من القضية المدنية رقم ٦٠ لسنة ١٩١٣ بمحكمة ممباسا العليا ، والذى يشير إلى الچيبانا Jibana ينطبق على غالبية الذين تحولوا إلى الاسلام من القبائل الساحلية : « أعضاء القبيلة الذين تحولوا إلى الاسلام (Mahaji) إذ أصبحت لهم صفة فردية لا تتلاءم مع الحياة الاجتماعية القبلية العادية ، ولكى يتمكنوا

---

(١) هذا اللفظ مشتق من الكلمة العربية « حاج » . بمعنى أن الفرد قد حج الى نطاق الاسلام اى تحول اليه . ومن جهة اخرى قد يكون له صلة بكلمة « حاجة » العربية وهى فى السواحيلية Uhaji وربما تشير الى عملية الختان ku—ingia uhaji التى تعنى أيضا « لكى يصبح الفرد مسلماً » وكلمة mahji مستعملة فى الساحل فقط وكانت غير معروفة فى زنجبار . وفى بعض الجهات مثل tongoui يسمى الذى تحول الى الاسلام mirihaji

من العيش بالقرب من أولئـك الذين يعتنقون مذهبهم الدينى ، فهم دائماً يتركون أرض القبيلة ويتوجهون للاقامة بالقرب من الساحل . وقد نشأت مستوطنات من هؤلاء الأفراد فى كل من كيدوتانى Kidotani وتشنجونى Chengoni » .

وبرغم أن سكان شرق أفريقيا كانوا أكثر قرباً للبقعة التى ولد الاسلام فيها وعلى صلة بجنوب الجزيرة العربية والخليج الفارسى بسبب العلاقات التجارية فإن تغلغل الاسلام وتأثيره كان أضعف بكثير منه فى السودان جنوب الصحراء، والمسلمون فى ساحل شرق أفريقيا ما زالوا حتى هذا القرن يعيشون فى الظروف الاقتصادية التى خلقتها الملاحة فى المحيط فى القرون الماضية ، وقد عنى تاريخهم بحكام الموانى التجارية وبعلاقاتهم الداخلية ، ومنازعاتهم ، وصلاتهم بالجزيرة العربية ، وبإقامة مجتمع جديد ، وبذلك فان الاسلام فى شرق أفريقيا ظل يحمل كثيراً من صفات الديانة الأجنبية .

وأما فى غرب أفريقيـا ، فإن انتشار الاسلام يرجع فى المقـام الاول إلى التجارة والدعوة له بواسطة التجارة الافارقة . ولقد كانت هناك مرحلتان تأثر بهما الاهالى هناك :

الاولى : دخوله فى بناء المجتمع السودانى التقليدى كدين لطبقة أو فئة معينة من الشعب .

والثانية : انتشاره عن طريق الجهاد أيام غلبة رجال الدين الافارقة .

بينما فى شرق أفريقيا لا نجد أياً من هاتين المرحلتين ، ولهذا سببان رئيسيان:

الأول :

طبيعة المسلمين الساحليين ، وتفكيرهم وشعورهم بجنسهم العربى ، فهم فى

مستوطناتهم كانوا دائماً يتجهون بأنظارهم صوب البحـــر الذى يأتى عبره المهاجرون من الأراضى التى تربطهم بها روابط عائلية وثقافية وتجارية ، فلم تنشأ بينهم وبين الداخل صلات مباشرة ، ولم يقيموا طرقاً للقوافل وبالتالى لم يخلقوا مراكز للتسويق . وعلى الساحل كونوا مجتمعاً أفريقياً إسلامياً نما عن طريق استيعاب الأفراد ، ثم أنشأ المهاجرون الآسيويون مجتمعات منفصلة ، ولم يتوسط هؤلاء وهؤلاء مجتمع افريقى يمكن عن طريقه اثبـات أن اعتناق بعض المذاهب الإسلامية لا يؤدى إلى تمزيق المجتمع . ولم يقم أى من العرب الشافعيين أو من مجموعات الإباضية[1] أو الشيعة بأية دعاية بين البانتو . ولم يبدأ انتشار الاسلام فى الداخل إلا فى القرن الماضى عندما بدأت القوافل تسير هناك ، وكان انتشاره يتم تحت الظروف التى سادت فى أيام الحكم الأوروبى .

الثانى :

هو طبيعة مجتمعات البانتو ، فالبانتو الساحليون يعيشون منتشرين فى كفور عائلية متناثرة وليس فى قرى بالمعنى المفهوم كما فى غرب أفريقيا ، فمثلا نرى العادة بين قبائل النييكا Nyika أن الرجل عندما يتزوج يبنى بيتا فى مزرعته أو بالقرب منها ، كما أنه يشيد لـكل زوجة جديدة بيتاً آخر عند كل زواج ، وبالتالى تربط الصلات العائلية سكان كل مجموعة من هذه المجموعات التى تقوم بجوار المزارع ، ويكونون مجتمعات محلية لا قرى . ومع أن تجمعات قبائل النييكا هذه كانت على اتصال قديم بالمسلمين إلا أن أفرادها قاوموا اعتناق الاسلام ، وكان الفرد الذى يعتنق تلك الديانة منهم سرعان ما يندمج فى السواحيليين .

---

(١) الاباضية فرع من الخوارج وهم بعيدون عن الشيعة. وفريق منهم جاء إلى شرق افريقيا وذهب فريق آخر الى الجزائر .

ولقد كان التنظيم السياسى فى الجزء الأقرب إلى الساحل أبسط منه عند البانتو الذين يعيشون فى الداخل بعيداً عن الساحل، فلم تكن الأسر الحاكمة عندهم تدوم طويلا ولم يكن لديهم دول أو مدن بالمعنى المعروف، ولم يكونوا قبائل تجارية كما هو الحال فى غرب أفريقيا .

وكانت الدول المركزية — ولها نظام للحكم وتركيب طبقى معين والتى قامت فى شمال وغرب بحيرة فيكتوريا حيث كان من الممكن أن ينتشر الإسلام — كانت بعيدة عن الاتصال بالمسلمين، كما أنه لا يبدو أنه كانت لهم صلات حيوية بالمسلمين جنوب الزمبيرى ومونوموتابا Monomötapa حيث كان الذهب يأتى . وفى القرن التاسع عشر — وهى فترة وقوع التغير — ظهر زعماء ذوو سلطان واسع مثل كيمويرى Kimweri زعيم أوزا مبارا Usambara، وميرامبو Mirambo زعيم نياموبزى، وموبوجامبا Muyugamba ومكواوا Mkwawa من الهيهى. وكون هذه الدول لم تتفكك جميعاً لا يرجع إلى نظمها هى وإنما يرجع إلى الاستقرار الذى ساد بسبب النظام البريطانى فى الحكم غير المباشر، والمعتقد أن رئاسات مماثلة قامت فى الماضى بواسطة الزعماء الحربيين، ولكنها لم تتطور إلى دول مستقرة .

وفى غرب أفريقيا، كان الزعماء الذين ظهروا فى القرن التاسع مسلمين، فأدى نشاطهم إلى انتشار الإسلام . أما فى شرق أفريقيا فقد كانوا وثنيين . فلم ينتشر الإسلام عن طريقهم وإنما انتشر بعد الاحتلال الأوروبى . ولم يكن تجار شرق أفريقيا يكونون جزءاً من التركيب الاجتماعى وقتها، إلا أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر تغير الموقف بكامله وساد المسلمون فى جميع المراكز التجارية .

٢ — الانتشار فى الداخل

قلبت أحداث القرن التاسع عشر الأوضاع بالنسبة للاهالى فى كافة أنحاء تنجانيقا فالى جانب الاغارات المتكررة لاقتناص العبيد وصيدهم ، كانت هناك قبائل النجونى Ngoni فى الجنوب وغارات أفرادها على جيرانهم مما أدى إلى تناقص السكان وهجرتهم وتشتتهم ، فنشأت الحاجة إلى ظهور زعماء أقوياء يجمعون الشتات ويعيدون الأوضاع فى القبائل إلى ما كانت عليه ، فلو أن الإسلام كان موجوداً وقوياً وقتها ، أو لو أن الزعماء الذين ظهروا كانوا مسلمين ، إذن لكانت المنطقة كلها قد أصبحت الآن مسلمة . حقاً تغلغل المسلمون بعيداً فى الداخل ، لكن كان للتجارة الغلبة على تفكيرهم وأنماط حياتهم فشغلتهم بالتالى عن الدعوة للدين الجديد ، ولم تأخذ تلك الدعوة صورتها الحقيقية إلا بعد قيام الحكم الأوروبى . كما أن الفظائع التى ارتكبت خلال إغارات صيد العبيد لم تكن من العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام ، فلم تكن كلمة دين[1] بمعناها المفهوم معروفة فى عالم البانتو ، ولم يكن العرب بأى حال المغيرين الأصليين فى عمليات قنص العبيد بل هم الذين خلقوا الحاجة وقام الأفارقة باستيفائها .

---

(١) لم توجد كلمة واحدة فى لغة البانتو تعبر عن نظام دينى متكامل تشمل الإيمان والممارسة معاً مثلما كان عند الاغريق والرومان . والكلمة اللاتينية Religio كان لها فى الاصل معنى أضيق بكثير مما لها الآن وهو « الارتباط بالله » ولم يتسع معناها الا فى القرن الخامس الميلادى ، كذلك فإن لغات شرق أفريقيا لم يكن بها كلمة تعبر عن « الدين » ولذلك اتخذت اللفظ العربى « دين » فأصبح فى اللغة السواحيلية « dini » ويقول الاستاذ ويلبورن F.B. Welbourne «أن حكومة بوجندا تصف الوثنيين بأنهم abatalina ddini أى الذين لا دين لهم »

Makarere Journal No 4 1960 p. 37

A. Jeffery "The Foreign Vocabulary of the Quran, 1938" pp. 131—3

الا أنه بعد الغاء تجارة الرقيق وقيام الحكم الأوروبى ، حدث تغير كبير واستقرت الأوضاع فأخذ الإسلام ينتشر بسرعة من الساحل ومن المراكز التجارية التى كانت موجودة فى الداخل وخصوصاً فى تنجانيقا حيث ساعد انفتاحها والتخفيف من حدة القيود القبلية فيها على سرعة انتشاره . أما حيث ينعدم وجود مثل تلك المراكز التجارية كما هو الحال فى كينيا فلم ينتشر الإسلام وكان انتشاره البسيط فى غرب كينيا عن طريق النواة الإسلامية التى نشأت فى تنجانيقا . وحتى يومنا هذا نجد المسلمين فى داخل كينيا اما من المهاجرين أو أفراداً تحولوا الى الاسلام عندما كانوا يعلمون على الساحل وقد اعتنق المسلمون القلائل من قبيلة الكيكويو **Kikuyu** الاسلام عن هذا الطريق. أما فى نيروبى فتوجد مناطق يسكنها عدد من الأفريقيين المسلمين منفصلة عن المناطق التى يسكنها الآسيويون. وفى أوغندا كان الموقف له طابع خاص ، فرغم أن الظروف كانت مهيأة لانتشار الاسلام ، الا أن الصراع الدينى الذى قام بين المسلمين وبين البعثات التبشرية المسيحية والذى سبقت الاشارة اليه ، تغلب على تلك الظروف وعرقل انتشار الاسلام فلم يصل الى الحد الذى وصل اليه فى تنجانيقا .

الدّعاة :

كان جميع العاملين فى الادارة الأوروبية من موظفين ومترجمين ومرشدين وجنود وخدم ، من المسلمين ، فأصبحت كل بقعة استوطن فيها أوروبى ، وكل معسكر حربى أو مركز حكومى ، وكل مزرعة ، مركزاً للاشعاع الاسلامى ، كما كان الجنود الذين استخدموا فى فتح المقاطعات ، وفى بناء الحاميات أو الاشتراك فى رجالها ، والذين اشتركوا فى البوليس والأمن فى الداخل

مسلمين ارتبطوا بالادارة الجديدة، والنظام الذى انشأته الحكومة الألمانية وهو نظام الولاة والعقداء الذين كانوا فى الغالب سواحيليين من الساحل، كان يعنى ادارة من المسلمين ، لأن عدد الموظفين الألمان كان قليلا ، فأصبح المسلمون هم وسيلة الاتصال بالادارة ، ومن هنا أخذ الزعماء والرؤساء واتباعهم فى التاقلم الظاهرى ليأخذوا نفس طابع الأهالى المشتركين فى البوليس والجندية والادارة . وأخذ معلمو القرآن يقيمون فى المناطق التى بها مراكز تجارية أو ادارية برغم أن دورهم كان أقل أهمية عنه فى غرب أفريقيا بسبب قلة سكان الريف وعدم اهتمامهم بالدعوة للاسلام . وكان التجار جميعهم مسلمين وأصبحوا يستطيعون الآن التوطن فى مناطق كانوا من قبل لا يستطيعون الوصول اليها ، ولم يكن كل التجار من القائمين بالدعوة ومع ذلك فإن مجرد وجود الأفريقى المسلم فى مجتمع ما هو فى ذاته من عوامل الدعوة من حيث كونه يعرف المجتمع بمظاهر الاسلام الخارجية ويفتح الباب أمام اللاوعى لكى يعمل متأثراً بها .

والخلاصة ، كان تجمع التجار وغيرهم فى المدن دون أن تكون لهم علاقات وطيدة بالمناطق المحيطة ، من العوامل التى حدت من ذيوع الاسلام ، والأهم من ذلك أن العديد من سكان المناطق الداخلية استفادوا من حرية التنقل بعد أن عرفوا النقود فى معاملاتهم الاقتصادية فتركوا مواطنهم الأصلية للعمل فى المراكز الجديدة على الساحل أو فى مزارع المستوطنين الألمان ، وكثير منهم — وخصوصاً من الايرامبا والنياموىزى — عادوا الى أوطانهم مسلمين . كما أن مدناً مثل تابورا تقوم فى مقاطعة انتشر الاسلام فيها بسبب تنقل النياموىزى فى القرن الماضى ، أصبحت نقطة اسلامية ومركزاً للاشعاع الاسلامى .

وكان انتشار السواحيلية كلغة مشتركة عاملا هاماً فى تسهيل الاتصال ، ولقد جعلها الألمان اللغة الرسمية فى المنطقة كلها كما أنها ذاعت فى المناطق البريطانية حيث كانت اللغات القبلية الهامة هى الوسيلة الرسمية للاتصال .

عوامل ذاتية :

(ا) عواعل مهدت الطريق :

بتفاعل تراث قبائل البانتو الدينى مع العوامل النفسية وطريقة الحياة التى تحكمهم ، نشأت لديهم القوى الاجتماعية التى تربط بينهم ولذلك لم تكن عندهم حاجة إلى اعتناق دين آخر ، وعلى كل حال فلم يكن هناك دين آخر تصل أيديهم إليه لأن مسلمى الساحل عزلوا ثقافتهم الدينية وحجبوها عن الأفريقيين .

فلم يكن الإسلام — والأمر كذلك — قادراً على فتح الطريق أمامه إلا إذا وقع تغير كبير فى الظروف السائدة وهو ما حدث فى القرن التاسع عشر ، فلما تم له ذلك ومهد أمامه الطريق كان من الممكن للقيم الدينية والثقافية التى يقدمها الإسلام أن تجد لنفسها صدى فى النفوس . وكانت فترة المهادنة والتماسك أيام الحكم الأوروبى هى الفترة الأساسية التى أخذ الإسلام ينتشر فيها خصوصاً فيما بين ١٨٨٠ و ١٩٣٠ .

(ب) القيم الدينية :

والعامل الدينى عامل هام فى المدى الطويل ، لكن قوته لا تتضح إلا فى المراحل المبكرة ، والتحول إلى الإسلام معناه اكتساب الصفات التى تساعد على التمييز بين المسلم والوثنى ، وبرغم أن كثيراً من هذه الصفات أو المميزات هى مادية أو اجتماعية ، إلا أنها تدخل فى دائرة الشرائع الدينية ، فالذين

يتحولون إلى السلام يرتدون زياً إسلامياً ، وبذلك يصبح عليهم أن يقبلوا نظرياً القواعد التى تتعلق بأى جزء من أجزاء الجسم يمكن الكشف عنه ، وهكذا فإن الحياة الروحية تتغير عن طريق اتخاذ مثل هذه الأمور وغيرها من العناصر الدينية التى تعززها الأساطير .

والعامل الدينى عامل هام أيضاً بين العوامل أو الدوافع المؤدية إلى اعتناق الاسلام فى شعب يحتفظ بتماسكه الاجتماعى ، وهو أكثر أهمية لدى هؤلاء الذين يفتقدون الأساس الروحى نتيجة لأحداث خارجية ، فمثلا بالنسبة لفرد من قبيلة نياموېزى ترك أسرته وقام برحلات طويلة ليعمل فى أماكن بعيدة ، فإن الاسلام هنا يقابل احتياجاً دينياً محدداً فى نفس هذا الفرد ، الأمر الذى يجعل من الصعب عليه عند رجوعه إلى أسرته أن يعود كما كان إلى حياته العادية ، بل أنه يؤثر فى غيره من أفراد القبيلة ، وهكذا بمضى الزمن ياخذ العامل الدينى فى التاثير فى المجتمع . وأهم الصفات الدينية الواضحة التى يمثلها الإسلام هى المظاهر الخارجية لطقوسه . وكل أنظمة العبادة فى الإسلام تتعارض وتتناقض مع مقدسات البانتو ، فالصلاة عندهم لا وقت لها وغير محددة وهى فوق كل ذلك عمل جماعى مقصود به التماسك الاجتماعى ، وبالتالى لا تتم إلا فى أوقات الكوارث والقلق . أما العبادة فى الإسلام فلا تخضع لظروف معينة ، وتتم بلغة غير مفهومة[١] ، وهى عمل فردى واتمامها بصورة جماعية ليس فرضاً دائماً ، وفى شرق أفريقيا يجب أن تتم داخل مبنى[٢] وفى أوقات محددة ، كذلك فإن السنة الهجرية تعطى توقيتاً متميزاً للحياة قد يتفق مع

---

(١) المقصود انها لاتسير وفق التقاليد المعروفة فى القبائل الافريقية وتتم بلغة لايفهمها البانتو (المترجم)

(٢) يقصد المسجد وذلك فى صدد نظرة البانتو الى الاسلام (المترجم)

بعض التغيرات الخارجية[١] ولكنها لا تعنى سوى القليل بالنسبة للزراع . أما شعائر الموت والمحرمات من الطعام والختان ، فهى قريبة من الأذهان وكان من السهل اتباعها والخضوع لقواعدها .

(حـ) عوامل ثقافية واجتماعية :

كان اعتزاز العرب بثقافتهم الدينية وأثره على احترامهم لأنفسهم وشعورهم بالتفوق والتسامى ، من الأمور التى خلقت انطباعاً هاماً . فبعد أن وطد الاسلام أقدامه على الساحل ، قامت مراكز إسلامية لها أهميتها مثل زنجبار وأصبحت الحضارة الاسلامية تعرف بنوع الحياة التى يحياها العرب Ustaarabu[٢] كنقيض لحياة البربر Ushenzi ، ومن هنا تغلب الطابع العربى على الاسلام فى شرق أفريقيا وذلك فى الوقت الذى لم ترسل فيه المسيحية مبشريها إلا فى عام ١٨٨٠ فقط وكان عليها أن تواجه عقبات أشد من تلك التى واجهها الاسلام ، وعلى كل حال فإن الحضارة الاسلامية لم تعد هى صاحبة الأثر الأكبر فى نفوس الأهالى فى شرق أفريقيا فى أيامنا هذه .

(د) سهولة اعتناق الاسلام :

ولم تكن تلك السهولة معروفة ملموسة يشعر الناس بها أيام كان الاسلام محصوراً فى الساحل ، ذلك أن اعتناقه كان يعنى هجر الحياة القبلية والانصهار فى حضارة جديدة ؛ إلا أنه عندما امتد إلى الداخل واكتسب أراض جديدة بعيدة عن الساحل انعدمت المعوقات ، فالاسلام لم يكن معناه أن يحل محل

---

(١) يقصد أن النتيجة الهجرية تتفق مع حالة شروق وغروب وحجم القمر ولا علاقة لها بالدورة الزراعية (المترجم)

(٢) فى الاوقات الحديثة اتسع معنى هذا اللفظ وأصبح يشير إلى الحضارة العربية .

الطقوس الدينية المحلية ، بل كان يعنى مجرد إضافة طقوس جديدة[1] تحمل فى طياتها آفاقاً أوسع ، وعندما كان النازحون للعمـل يعودون إلى مسقط رأسهم ، كانوا يعودون كمسلمين وليسوا فى الواقع كغرباء ، فهم لم يدركوا أن عبادة الله واسترضاء أرواح السلف هما أمران متعارضان، كما لم يفهموا أيضاً أن قبول الاله الذى يدعو الاسلام إليه معناه أيضاً قبول صيغه الاجتماعية وبالتالى نراهم قد أخذوا مكانهم الطبيعى فى حياة القبيلة دون أن يستحدثوا قانونا غريباً فيها قد يكون متعارضاً مع القواعد العائلية ، وأصبح ينظر إلى عاداتهم الدينية الجديدة على أنها فطرة فردية بحيث لو اعتنقها أفرادآخرون من القبيلة لا يصبح تأثيرها على حياة القبيلة ملموساً تقريباً ، فالقيم الدينية العائلية تمارسها الجماعة وترتبط بها ، وما دامت تلك الجماعة تحتفظ بتماسكها فإن تلك القيم تظل قائمة ، وبهذا فقد خفف هذا التغيير التدريجى بين الأفراد من قوة تأثير الاسلام فى تفتيت القبيلة .

وعمليـة التحول إلى الإسـلام تتم عن طريق التدرج فى مراحل ثلاثة : التفريخ فالتفاعل ، ثم التوجيه التدريجى .

فالتفريخ يبدأ فى أعمق المستويات بين أفراد المجتمع فيصبح فى أول الأمر بذرة فى الوعى الاجتماعى — وتلك هى المرحلة الأولى — وبالتـدريج تعمل البذرة على تفجير المشـكلة — وهذه هى المرحلة الثانية — وينتج عن ذلك موقف جديد يتخذ قوته بمضى الوقت فيعدل من سلوك الفرد ثم يعدل من سلوك

---

(١) يريد المؤلف أن يقول بأن المسلم قد يستمر فى مشاركة قبيلته فى طقوسها الدينية والاجتماعية العادية التى لا تتعارض مع الاسلام ، اذ لا يعقل ان المسلم بعد ايمانه بالله واحد خالق كل شىء يظل يقدس المعبودات الوثنية إلى جانب عبادته للاله الواحد سبحانه وتعالى لانه فى هذه الحالة يعتبر مرتدا (المترجم)

المجتمع نفسه ، فيصبح فى المرحلة الثالثة ، الا أنه فى المرحلة الأولى لا يبـدو أن الإسلام يعارض استمرار الاحتفاظ بدين القبيلة ، إذ تتميز تلك المرحلة بوجود ديانتين متوازيتين ، مع انتفاء نزعة التعصب للطقوس القديمة وتؤدى الصلاة كعمل فودى جنباً إلى جنب مع العقيدة العائلية ، فرجل الدين إن وجد ، قد يقوم باتمام الزواج ، ولـكن هذا الزواج تصحبه الطقوس المعتـادة من قرابين وغيرها ، وهم لايعارضون زواج بناتهم من وثنيين . وحتى فى المرحلة الثانية ، وبرغم أن هذه الطقـــوس تـكون شمسها قد بدأت فى الغروب وأصبحت متجاهلة ، الا أنها لا تختفى تماماً بل تظل تحت الطلب لـكى تعود أن حدثت شدة أو وقع ضغط ، وذلك فى الوقت الذى يبدأ فيه الاتباع الظاهرى للاسلام يسير جنباً إلى جنب مع المشاعر الداخلية والاستقلال فى الفـكر .

وفى داخلى شرق افريقيا — بعيداً عن الساحل — لم يذهب المسلمون أبعد من المرحلة الأولى ، أما على الساحل أو بالقرب منه ، أصبحت قبائل مثل الياو والسيجيجو فى المرحلة الثانية ، بينما شعوب الجزر والمدن الساحلية فقط هم الذين تخطوا المرحلتين الأوليين وأصبحوا فى المرحلة الثالثة حيث انطبع السلوك الاجتماعى بالطابع الإسلامى تماماً .

ولم يـكن إنتشار الاســـلام متساويا فى كل من سرعته أو فى تمييزه ، فانتشاره بالجملة فى تنجانيقا لم يبدأ الا فى بداية هذا القرن فقط ، ولقد قدر الألمان أنه فى عام ١٩١٣ كانت نسبة المسلمين مازالت ٣٪ فقط ، الا أنه ليس تقديراً حقيقاً ، بل من الواضح أنه أقل من الواقع ، ولقد تزايدت النسبة خلال حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ خصوصاً فى الفترة الأولى من الوصاية البريطانية وقدرت فى

عام ١٩٥٣ بـ ٢٧٪ من السكان بالمقارنة إلى ١٨٪ من المسيحيين[1].

ولقد حدث تحول المجموعات أول مابدأ بين البرابرة الرحل والصوماليين منذ قرون عديدة وبين الحالا فى خلال هذا القرن، ويمكن اعتبار انتشاره بين قبائل الياو تحولا جماعياً وليس فردياً، وبين الصوماليين غير تحول المجموعات من عناصر حياتهم الدينية وقوى من الوعى الوطنى لديهم وأعطاهم نظرة خارجية مختلفة، ولكنه لم يؤثر على تركيبهم الاجتماعى، ومع أن إسلام الصوماليين الرحل إسلام قوى فقد كانوا دائماً مستقلين ولم يقبلوا القواعد الإسلامية إلا فى مسائل العقيدة نفسها والوضع الشخصى للفرد، ولم يتأثر منهم بالإسلام تأثراً فعلياً فى كافة وجوهه سوى هؤلاء المقيمين فى المراكز التجارية على الساحل وحول نهر جوبا.

وتوجد بعض قبائل البانتو التى اعتنقت الإسلام بصورة جماعية بالقرب من الساحل حيث كان الطريق ممهداً للاسلام، مثل قبائل بوكومو السفلى،

---

(١) وهى فى الواقع تعبر عن معدل بطئ نسبيا فى تزايد المسلمين بالنسبة للمسيحيين فاذا اخذنا فى الاعتبار التباطؤ فى البدء بارسال البعثات التبشيرية وقلة التمهيد المسبق لذلك وطول المدة التى يستغرقها اعداد المسيحى قبل تعميده. ويجب أن نتذكر أن الارقام لاتعبر عن الواقع اذا قارنا بين قوة تأثير العقيدتين. فمع أن التعداد يشكل مصدر معلومات يعتمد عليه من حيث كونه يوضح حالة المجتمع من مواليد ووفيات وامراض. . الخ الا أنه لايعتبر كذلك فيما يتعلق بالعمل الدينى. فالسؤال المستخدم هو: «هل أنت مسيحى أو مسلم أو رجل؟» لأنه لوكان «ماهى ديانتك؟» فان الكثيرين لن يدركوا المقصود من ذلك وأن عرفوا فقليلون سوف يهتمون بالقول «لادين» فالاسلام والمسيحية فقط هما اللذان يطلق عليهما تلك التسمية لأنهم لاينظرون الى «طريقة الاباء» على انها ديانه، ومن الارجح ان الاجابة سوف تكون «مسلم» اذا كان الرجل على علاقة ايا كانت بمسلمين.

ملحوظة للمترجم: ابلغنى مسئول انجليزى فى الادارة الانجليزية فى تنجانيقا قبل استقلالها فى منتصف عام ١٩٦٢ أن المسلمين يشكلون ٢٢٪ بينما كان يجب على الاقل أن تكون أكثر من ٢٧٪ بعد مضى عشر سنوات على التقدير المشار إليه مما يدل على وجود رغبة فى اخفاء الحقيقة فى ذلك الوقت ليظل خريجو المدارس التبشيرية مستأثرين بالادارة. وقد اتضح اثناء اقامتى هناك أن النسبة تصل الى حوالى ٦٠٪. (المترجم)

والديجو والروفيجى Rufiji والزارامو والياو وتأثيره بينهم يختلف من قبيلة لأخرى ، فالياو كانوا تجاراً منذ القديم فى المنطقة بين الامتداد الساحلى من كيلوا إلى الجنوب فى موزمبيق ثم الداخل ، ولقد كانوا يقومون بدور الوسيط مع العرب الذين كانت حملاتهم التجارية تتعامل معهم ؛ وبسبب هذا الاتصال خرج قليل منهم عن قبيلته وأصبح سواحيليا ، واتخذ زعماء الياو وتجارهم زى السواحيليين لأنفسهم واتبعوا بعض عاداتهم مثل طريقة دفن الموتى دون أن يعتنقوا دينهم نفسه حتى نهاية القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين (١) ، وقد اهتم بعض الزعماء والرؤساء بالإسلام بسبب كونه يعارض النفوذ الاستعمارى (٢) ، وعند ما زالت العقبة ، أى عندما تبينوا أنهم يستطيعون السيطرة على نتيجة اعتناقهم الاسلام ، وفى نفس الوقت يمكنهم الاحتفاظ بعاداتهم الاجتماعية كما هى ، ارتفعت نسبة التحول إلى الاسلام حتى بلغت حد الطوفان ، وانتشرت المساجد ومدارس القرآن فى القرى ، وأصبحت الصلاة تؤدى ، وأخذ الأهالى يحتفلون بالأعياد الإسلامية ويصومون شهر رمضان (٣) ، وأصبح معظم رجال الدين من الياو أنفسهم وليسوا سواحيليين ، وبرغم قيام خلاف مرير بينهم حول بعض المسائل الدينية ، فلم تنشب خلافات حول سنن الاسلام الاجتماعية

(١) ابلغنى Cannon R.G. P.Lamburn انه حسب مايقول Mwenye Mtingala الذى توفى حوالى ١٩٥٠ عن ثمانين عاماً ، أن الاسلام وصل تونددورو قبل الحكم الالمانى مباشرة (حوالى ١٨٩٠) . مفومى بن كالينجامبى Mfaume bin Kalingambe أدخل الاسلام بين اهالى متاليبا ، ورجل آخر يدعى كومبو مفومى بن تورو ادخله بين باقى الياو . وفى مبدأ الامر كان على الراغبين فى التحول السفر إلى كيلوا لاشهار اسلامهم وبعد ذلك كان المعلمون انفسهم يأتون من الساحل .

(٢) كان المازانجا وهم فريق من الياو من تجار الرقيق القدامى والمعارضين الاقوياء لانشاء محميه نياسالاند ، كما صرف الانجليز اعواما ستة لاخضاع الماكا نجيلا فى الركن الجنوبى الشرقى من البحيرة والزرامى فى تلال المانجوشى .

(٣) انظر : R. Codrington, Geography Journal, xi 1898, p. 516

وعادات الياو ، ويبدو أن الياوعازمون على عدم السماح لرجال الدين السواحيليين بالتدخل فى حلافاتهم أو فى حياتهم الاجتماعية .

وكل من سكان دلتا نهر روفيجى — وغالبيتهم ما تومبى Wa Matumbi — والزارامو ، غير متجانسين ، وقد كونوا حديثا مجموعات منهم على الساحل سادت بينهم اللغة السواحيلية ووطد الاسلام أقدامه وكان انتشاره بينهم (الروفيجى — ماتومبى) سريعا ، ففى عام ١٩٠٩ اعتنق حوالى ثلث سكان هذه المنطقة المقدر عددهم بمائة ألف ، الديانة الاسلامية ، وفى عام ١٩١٣ قيل أن جميعهم أصبحوا مسلمين(١) . وفى الشمال دخل الهوكومو الذين يعيشون بقرب الساحل ، فى الاسلام ومن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث تحت ضغط ، وأصبحوا — إلى حد ما — سواحيليين ، وغيرهم من سكان أعالى النهر اعتنقوه مع جيرانهم من الجالا ، ويجب الا ننسى أن قبائل مثل الزرامو كان لهم إتصال كاف بالمسلمين الأمر الذى ساعد على تمهيد الأرض لاعتناق الاسلام على هذا النحو الكبير ، وتنطبق نفس الظروف على القبائل الأخرى المقيمة فى الداخل مباشرة بعد الساحل ، وبذلك تزايد عدد المسلمين بصورة ملحوظة فى اوزامبارا ، وأوكاجورا واوزاجارا وكوتو .

أما فى كينيا فكان نادراً أن تسير القوافل التجارية بداخلها كما أنه لم تنشأ بها أية مراكز تجارية بسبب حالة عدم الاستقرار التى سببتها قبائل الماساى ، وقبائل الجالا فى الشمال ، ونتيجة لذلك كان التجار يصلون إلى أوغندا وغرب كينيا من ناحية الجنوب حول بحيرة فيكتوريا . ويمكن اعتبار مستوطنة

---

(١) يقول الاستاذ F.S. Joelson فى كتابه The Taugnayika Territory 1920 «فى مقاطعة واحدة (روفيجى) هدم الجنود مدرسة تابعة للبعثات التبشيرية بايعاء من مسئول رسمى محلى وبعدها اقيمت مدرسة حكومية لها مدرس مسلم . ثم بدأ عمال المزارع فى اعتناق الاسلام فى مجموعات» Moslem World iv (1914) 281

ماميا Mumia جزءاً من أوغندا . وعلى هذا فإن أثر الإسلام فى كينيا كان محصوراً عند الساحل ، وحتى فى أيامنا هذه ، برغم وجود مستعمرات لكل من الافريقيين والأسيويين المسلمين فى جميع المدن تقريباً ، فإن انتشاره بين الافريقيين ضعيف ، فبمجرد أن يبتعد المرء عن المراكز الساحلية يختفى كل أثر للحياة الإسلامية ، والمناطق السكنية تتكون من مجموعات متناثرة من المنازل كل منها يقوم فى مزرعة خاصة ، وحتى المحلات التجارية الصغيرة متناثرة هى الأخرى لأن كل تاجر يقيم بيته وبه محله التجارى فوق أرضه هو الآخر ، وما زالت الوثنية منتشرة بين الجيرياما Giryama وغيرهم من قبائل النييكا .

وتعتبر دولة بوجنداً Buganda من مناطق شرق افريقيا القليلة التى كان من الممكن أن يصبح الإسلام فيها هوالديانة السائدة . وقد ظهرت العوامل التى كادت تؤدى إلى ذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، عندماتقابلت فى تلك الدولة تيارات مختلفة تمثلت فى مؤثرات إسلامية جديدة وفى التوسع الأوروبى الذى جلب معه مذهبين من الديانة المسيحية . وقد أدى كل ذلك إلى قيام صراع دينى خرجت منه المسيحية منتصرة ، وفى بوجندا يعتبر «الكاباكا» هو الدولة ، الشعار الذى تتمثل فيه القوة ، وهنا — كما فى غرب افريقيا — كانت الوسيلة الوحيدة الممكنة لتمكين الإسلام دون المساس ببناء الدولة نفسها أو شعار قوتها هى اتباع سياسة التوازى ، أى اعتناق الإسلام جنباً إلى جنب مع الاستمرار فى ممارسة الطقوس والعادات القديمة للعقائد المحلية ، ولو كانت بوجندا أصبحت مسلمة تماماً ، لما كان هناك شىء يمكن أن يحول دون أن يصبح الإسلام دين الأغلبية فى أوغندا ، فوقوعها فى جنوب وادى النيل يربطها بالسودان ومصر كما أن الديانة الإسلامية منتشرة فى كل من الكونغو وكينيا وتنجانيقا . والرابطة بين السودان ومصر من شأنها أن تجلب مؤثرات إسلامية

أخرى أكثر إصالة وقوة من الإسلام السواحيلى ذى الهيكل الضعيف . وكان الأفراد[1] الذين انتشر الإسلام على أيديهم فى أوغندا من التجار السواحيليين والنوبيين السودانيين وزعماء الجاندا المسلمين، ودعاة آخرين فى الأراضى المجاورة (بوزوجا وبوكيدى بوجيزو) .

ولما كانت الحدود الفاصلة بين الإسلام وديانة البانتو ليست واضحة تماماً فقد أصبح من العسير معرفة المراحل الأولى لتغلغله . ويرجع ذلك إلى عاملين :

الطريقة البطيئة المستترة التى ينتشر بها ، ثم كونه ينتشر فى صورة فردية أكثر منه فى صورة مجموعات . وكان انتشاره كثيراً ما ينتج عن المخالطة ، وفى مناطق عديدة — فى الماضى — كان انتشاره يسير قدماً وجنباً إلى جنب مع انتشار المسيحية الواضح العلنى ، ولكنه لم يكن ملحوظاً بواسطة البعثات التبشيرية . يضاف إلى ذلك أن المسلمين فى المرحلة الأولى لإسلامهم يصعب تمييزهم عن الوثنيين ، وقد تحولوا إلى الإسلام فى الواقع لأنه لم يتعرض لأساليبهم القديمة التى رغبوا فى الاحتفاظ بها . وهذا الوضع يختلف بطبيعة الحال عن حالة صبى تعلم فى مدرسة مسيحية ، ذلك أن ارتباطه بدين عالمى أعطاه مظهراً مغايراً ونظرة خارجية ذات مدى أوسع .

والخلاصة أن الأهالى لم يدركوا فى الماضى أن الإسلام ينتشر أمام أعينهم بسبب التدرج البطىء فى انتشاره ، فقد كان يبدأ أولا بتقليد المسلمين لكى يطابقوا أنفسهم معهم فيفتح ذلك الطريق أمامهم نحو الاعتناق الحقيقى للعادات الإسلامية ثم التمشى الأصيل مع ثقـــافة الدين الجديد ، ويمكن اقتفاء الأثر الذى انتشر الإسلام عن طريقه سواء من الساحل بين القبائل الغربية أو من المراكز التجارية

---

(١) يسميهم المؤلف «عملاء انتشار الاسلام» (المترجم)

فى الداخل ، أما فى المناطق التى لم توجد فيها مثل تلك المستوطنات أو المراكز الإسلامية ، وقامت فيها البعثات التبشيرية ، فقد أصبحت الديانة المسيحية هى الديانة الغالبة .

وهكذا يغدو لدينا فى معظم أركان المنطقة ، مسلمون ومسيحيون ووثنيون مختلطون ولا يتميزون عن بعضهم إلا فى القليل من العادات . وتختلف نسبتهم من منطقة إلى أخرى بطبيعة الحال . فبين السكوما Sukuma ، نجد أن الديانة القديمة مازالت قوية ، ولكن المسيحية قد رسخت أقدامها ، والإسلام ضعيف بينما النياموبزى برغم انتشار الديانة القديمة فإن الإسلام قد خلق لنفسه مركزاً قوياً ، والمسيحية بينهم أضعف .

وعندما كان معتنقوا الإسلام يندمجون فى السواحيليين ، يصبح أثره فيهم جذرياً وعميقاً ، ولكن استمر مسلمو الداخل كأعضاء فى مجتمعاتهم القبلية ولم يظهروا على حقيقتهم تماماً ، فأصبحوا أفراداً ذوى عالمين ، اهتمامهم الأكبر موجه فى المقام الأول إلى الارتباط بالأسرة والقبيلة ، فهم ما زالوا يشعرون باعتمادهم وتبعيتهم لآبائهم وأجدادهم ، ويشتركون معهم فى بعض طقوسهم ، وكل هذا يعطى الانطباع بعدم التحديد أو التميز الدينى ، ويجعل الصورة باهتة لكلا الجانبين صورة ليس بها احساس دينى محدد ، والنتيجة هى مجتمع وثنى دون ما نظر إلى الديانة التى يعتنقونها .

ويرجع ضعف تأثير الإسلام فى الداخل إلى أن الرجال الذين يصبحون من رجال الدين كانوا ينفصلون عن قبائلهم . أما فى غرب افريقيا فيظل هؤلاء مرتبطين بأهالى المقاطعة التى ولدوا فيها ، وحتى إن كانوا مهاجرين فهم يتزوجون من نساء محليات وعادة مايملكون مزرعة ما . وفى شرق أفريقيا ، فإن رجل الدين ينفصل تماماً عن الحياة التقليدية ، وبعد إتمام تعليمه على الساحل أو فى إحدى

المدن الإسلامية يصبح سواحيلياً يستوطن عادة فى أحد المراكز التجارية حيث يمكن أن يجمع بين التجارة والتدريس ، وواجبات رجل الدين ، فأصبح الموقف فى شرق افريقيا هو أن مسلمى القبائل ليس لديهم رجل دين يعيش بينهم ويقوم لهم بالأعمال الشرعية ، ولذلك فإن أفراد تلك القبائل يخضعون فى زواجهم للقانون القبلى أما هؤلاء القريبون من الساحل فيلجأون فى بعض الأحيان إلى قاض ليتمم لهم زواجهم .

أما الآن فقد تغيرت الظروف فى الداخل ولم يعد الزمن فى صالح إتمام التحول التدريجى للإسلام بين الذين ما زالوا فى المرحلة الأولى من تحولهم ، والتغيير الحقيقى يكمن فى أن أقدامهم أصبحت تخطو فوق طريق جديد . فهم يسمون أنفسهم مسلمين ، وبرغم أن تلك التسمية تغطى وراءها أسلوباً وثنياً فى الحياة ، إلا أنها على كل حال بداية كان يمكن أن نتوقع أن ينطلق منها التغير التدريجى البطىء نحو الطابع الذى يتخذه الإسلام فى شرق أفريقيا ، فلو كان بدء تحولهم للإسلام قد تم منذ قرون ، لما كان هناك مفر من هذا التغير، إلا أن الوقت الآن لن يسمح لهم بذلك ، فاليوم توجد هناك عوامل جديدة تتجمع ضد هذا التغير ، فبالإضافة إلى افتقارهم إلى رجال الدين ، فان المظهر العلمانى للغرب وأسلوبه فى الحياة إلى جانب هذا الافتقار سيعدلان من حقيقة واتجاه هذا التغير ، صحيح أن تأثير هذين العاملين بالنسبة للزراع مازال ضعيفاً ، إلا أنه بالنسبة لأولئك الذين اندفعوا إلى الاتصال أكثر بأساليب الحياة الجديدة ، وبالعمل وبالمنظمات السياسية ، فهو تأثير واضح وملموس .

ثالثاً : خصائص الإسلام فى شرق أفريقيا

الإسلام دين عالمى ، ونظام ثقافى اتجه دائماً إلى التوسع لكى يضم إلى حظيرته الشعوب على اختلافها وتباينها . وباستجابته للوقفة لتحدى العوامل الجغرافية المحلية ، والاختلافات العنصرية ، وللقوى الاجتماعية والسياسية ، وفق الإسلام فى إبداع ثقافات إقليمية واضحة ، ومع ذلك فإن الأقاليم على اختلافها تتخذ جميعاً طابعاً إسلامياً مميزاً ، فرحالة معروف مثل ابن بطوطة زار جميع بلاد العالم الإسلامى ، ومع ذلك لم يشعر أنه انتقل إلى عالم غريب عنه برغم الاختلافات الإقليمية بين البلاد وبعضها . وسبب هذا التشابه يرجع إلى الشريعة الإسلامية التى طوعت لإرادتها الشرائع كلها ومهدت الحياة وأبرزت للثقافة الإسلامية شخصية فذة وزودتها بدفعة الدوام ، وكما أن نوع الشعب وطبيعته ، والثقافة والاقليم وظروفه التاريخية التى دخل الإسلام إليه من خلالها ، هى العوامل التى طبعت الإسلام فى المغرب العربى وغرب أفريقيا وشرق السودان ، والحبشة ، بطابع خاص ، فإنها نفسها هى العوامل التى عكست فى شرق افريقيا خصائص إقليمية وتاريخية للإسلام ، ووحدت ملامحه وأوصافه .

ويمكن القول بأن الثقافة الإسلامية الإقليمية فى شرق افريقيا ، قامت بالصورة التالية : إسلام + ثقافة البانتو = جهد إبداعى = اصطناع الثقافة السواحيلية .

والحكم على كيفية نشأة تلك الثقافة يكمن فى فهم العلاقة بين الأعداد الضئيلة من المهاجرين وبين البانتو الذين خالطوهم . وبينما كانت الثقافة الافريقية هى العامل السلبى بين الاثنين ، جلب الإسلام معه عنصر التماسك ، فكان هو العنصر الغلاب دائماً ومع ذلك فإن مقاومة العنصر السلبى لسيطرة الشرائع

الإسلامية اتسمت بالقوة فكان تباين تأثير الشد والجذب المتبادل بين الطرفين على المجتمعات السواحيلية واضحاً وملحوظاً .

وبرغم الصلة القوية بين الساحل والجزيرة العربية ، فإن الثقافة السواحيلية قامت بعيدة عن التعريب الكامل ، فلقد اتخذ المهاجرون إحدى لغات البانتو الأساسية وسيلة للتعبير ، وأصبحت تعرف باللغة السواحيلية وتختلف عن لغات قبائل النييكا بسبب دخول بعض الكلمات العربية الكثيرة فيها بهدف وحدة التعبير برغم استعمالها فى صور متعددة من اللهجات المختلفة . واللغة السواحيلية الأدبية ، أو أدب اللغة السواحيلية ، نشأ بواسطة الافريقيين العرب ، ومن هنا أصبحت تلك اللغة تحوى كلمات عربية بنسبة أكبر من تلك التى تحويها لغة التخاطب .

وكان تأثير كل من الثقافة الإسلامية القادمة من جنوب الجزيرة العربية ، وثقافة البانتو ، كل منها فى الأخرى قائماً على أساس من التساوى والتماثل . فلقد حكم الإسلام الحياة فى المستوطنات ، وقام البانتو بدورهم بالتعديل من شكل الحياة فى الجماعة ، وقد انبثقت عن الإسلام نظرة إلى الحياة والجماعة ، خلقت مجتمعاً جديداً ، واحتفظت الثقافة الإسلامية بطابعها المحدد الذى يشير إلى موطنها الأصلى فى جنوب شبه الجزيرة ، خصوصاً فيما يتعلق بالعادات ، إلا أنه فى محيطها الجديد ونتيجة للتزاوج مع البانتو استوعبت تلك الحضارة الكثير من الحياة الافريقية بعد أن اختارت وعدلت فيما تمتصه بما يتلاءم مع أصول سنة الإسلام أما العناصر التى لم يمكن امتصاصها لتعارضها مع الإسلام — والجماعة فى حاجة إليها — فقد سمح لها بالبقاء على قدم المساواة مع نظام الحياة الإسلامى ، ومع ذلك لحتى هذه العناصر ، مثل الطقوس الروحية ، قد تطورت واتخذت أشكالا جديدة .

هذه الثقافة المنبثقة عن الثقافة الإسلامية امتدت من الباچون على ساحل البنادير إلى موزمبيق ، وعبر البحر إلى جزر القمر والساحل الشمالى لمدغشقر وأصبح المجتمع فى حالة من السكون والتوازن ، بمعنى أنه كان من ناحية يغذى بوصول أفراد جدد من الجزيرة العربية ، ومن ناحية أخرى كان يمتص الداخلين إليه من المحاچى Mahagi ، ولكنه لم يسع إلى توسيع رقعة ثقافته عن طريق نشر أخلاقياته المحددة بين مجتمعات البانتو .

ولتلك الثقافة علامة تحظى باهتمام خاص، فالإسلام نفسه ان كان قدإنتشر فى مناطق أخرى نتيجة لأحداث تاريخية محددة ، فإننالانجد تلك القاعدة تنطبق تماماً فى خلق مجتمع إسلامى مثل المجتمع السواحيلى ، بمعنى أن تغيير المجتمع الذى كان قائماً فعلا عن طريق اعتناقه الاسلام تم بتفاعل الثقافة الواردة كما جلبها المسلمون من المناطق ذات الثقافات الخاصة،مع شعب مختلفة ثقافته إختلافاً تاماً فخلقت شعباً جديداً . ويدل الامتزاج الذى تم بين الثقافتين الاسلامية والافريقية على التوتر والضغط الشديدين اللذين حدثا بين كل من هاتين الثقافتين ، فنرى أنه برغم أن الشواهد التاريخية التى أدت إلى تكوين تلك الثقافة الواحدة تختلف تماماً عن تلك التى أدت إلى تكوين الثقافة الاسلامية فى حزام السودان ، فى أن الاسلام فى شرق افريقيا لم يتغلغل فى مجتمعات قائمة فعلا ، بل أنه خلق مجتمعاً جديداً وأن الثقافة الافريقية الاسلامية الناتجة عن ذلك هى فى الغالب مشابهة لتلك التى قامت فى غرب افريقيا ، فلقد جلب الاسلام نفس القواعد والقوانين التى عدلت من حياة الافريقيين، وهى القواعد التى تجمعت حولها واندمجت فيها القواعد الافريقية المشابهة لها ، وذلك يحتاج إلى تناوله بالتفصيل فى دراسة أخرى[1]، وفى نفس الوقت فلا بد أن نحذر من

(١) للمؤلف دراسة أخرى عن الاسلام فى غرب افريقيا (المترجم)

سوء الفهم بأن نشير إلى أن الاختلافات بين ملامح الإسلام فى شرق إفريقيا وغربها إختلافات واضحة ، وذلك يرجع — من وجهة النظرالاسلامية—إلى إختلاف المناطق التى جاء التأثير الاسلامى منها (جنوب الجزيرة العربية — شمال إفريقيا) وهما المنطقتان اللتان جاءت منها الثقافتانالأساسيتان. وكذلك إلى الاختلافات بين الظروف المحلية المحيطة (البانتو — السودانيون) .

وتعكس الثقافة الناشئة قوة الشريعة وضعفها ، وهى المقابلة للكنيسة فى الدين المسيحى ، باعتبارها هى التى تحافظ على وحدة الاسلام وتحديد اخلاقياته وهى أقوى من الشرائع المتعارف عليها فى مجالات معينة فقط ، وقد تسبب « جمودها » فى ظهور التوازى[1] ، ففى بعض المجالات نجد أن الطقوس التقليدية قد الغيت تماما تقريباً مثل طقوس الوفاة مثلا، وفى غيرها— كالزواج— نرى أن الطقوس التقليدية هى الغالبة فى الوقت الذى تتبع فيه القواعد الاسلامية عند إتمام الزواج كعقد شرعى .

التوازية

عندما توقف تطور المد الثقافى الاسلامى ، ظهرت نظرية التوازية ، فإن ضغط الاحتياجات الانسانية أدى إلى الاحتفاظ ببعض العناصر الثقافية القديمة التى لاتتطابق تطابقاً مباشراً مع الاسلام أوالتى لاتتمشى مع نظرته إلى الحياة، ومثل هذه العناصر اما أنها تتجمد ، واما يسمح بوجودها على التوازى -جنباً إلى جنب — مع العناصر الأصلية للاسلام ، فالصوفية التى أدخلت أخيراً ضمن العلوم الاسلامية، جمدت ،لكن سمح بوجود الطوائف الصوفية برغم تعرضها

---

(١) أن تبقى قواعد أخرى قبلية تمارس على التوازى مع ممارسة احكام الشريعة الاسلامية فى المرحلة الاولى من التحول إلى الاسلام (المترجم)

للهجوم دائماً : هذه الطوائف ، مع جماعة الأولياء ، يمثلون طبقة ثانية بالنسبة للأفراد العاديين . ولأن الدين الاسلامى نفسه ليس به وظيفة الراعى — مثل راعى الكنيسة — وليس به وسطاء للشفاعة أو تلقى الاعتراف، فلم يكن لديه الكثير الذى يقدمه ليسد احتياجات الناس الداخلية أو انفعالاتهم النفسية ، فكان لا بد أن تستمر القواعد القديمة جنباً إلى جنب مع الديانة الأصلية .

وعندما انتشر الاسلام فى افريقيا ، كانت قواعده جامدة ، ولذلك فان المعتقدات الدينية الافريقية وقواعدها استمرت قائمة معها ، وكانت النتيجة انصهار الحياة دون أن يكون هناك « توليف » حقيقى بين الاثنين ، فان طبيعة القواعد الاسلامية الغير إستسلامية حالت دون ذلك، والعناصر التوازية تحمل طابع أصلها المحلى ، وبقيت الحياة التقليدية كحقيقة . والازدواج الذى نتج عن ذلك فى الحياة الدينية يلمسه كل من يتصل بالمجتمع السواحيلى ، فان هذه الحياة الدينية تقوم على أساس مزدوج ، البانتو كبطانة داخلية ، ثم الطلاء الخارجى الاسلامى . وتختلف درجات اعتماد المجموعات المختلفة فى المجتمع السواحيلى على هذين الأساسين ، من مجموعة إلى أخرى ، والتناقض يزداد أو يتضح أكثر بين المدينة والريف [عرب زنجبار والحاديميين] وبين الطبقات [العرب والزاليا] ففى جزيرة زنجبار تعتمد حياة الحاديميين على الأساس القديم أو البطانة الداخلية ، بينما أهالى المدينة فيحكمها الاسلام .

وفيما يلى مختارات من القواعد والقوانين المتوازية مصحوبة بالموقف النفسى المصاحب لكل منها :

الثقافة الاسلامية	الثقافة التقليدية
المعتقدات والطقوس	
— الله : التوحيد القاطع باله واحد	— مونجو Mungu : إله عالم الروح
— محمد : النسك والعبادة . الشفيع . الوسيط . المولد . الملائكة كوسطاء	— كاهن : هو سيد الأرض التى تقوم فيها العائلة ، وسيط مع الأرواح
— الطقوس : (حقوق الله) : فرض الصلاة ، الصوم ، الزكاة .. الخ	— شعائر التقرب إلى أرواح الآباء والأجداد وإلى أرواح الطبيعة
— شعائر الطوائف الصوفية	— طقوس الأرواح المتقمصة (الأسياد)
— رجل الدين وقيامه بالعلاج فى بعض الأحيان	— مجانجا Mganga (رجل الدواء)
— العلم الاسلامى فى السحر والعلاج [الأحجبة والتعاويذ والتنبؤ بالغيب والعرافة .. الخ]	— طريقة البانتو فى العلاج والسحر
— السنة الاسلامية القمرية	— السنة الشمسية الزراعية والرياح الموسمية ، النيروز .
المعنويات	
— قانون التشريع الاخلاق	— المعنويات العامة المتعارف عليها بين الشعب .
— الاجازات والجزاء = القانون المكتوب .	— الآثار التى سبق إجازتها بواسطة الآباء والأجداد والأرواح الأخرى
— المحرمات : حيوانات ـ طرق الذبح أعمال ـ مشروبات .	— المحرمات التقليدية قائمة .
— الحلال والحرام .	— أفكار عن المقدسات

الثقافة الإسلامية	الثقافة التقليدية
القانون	
— شريعة (شافعى) : الاباضية = مجموعة قبلية.	— قانون العرف ، العادة ada
— الزواج : تعدد فى الزوجات غير محدد إذا ضمت الجوارى[1] .	— القانون الإسلامى هو الغالب .
— زواج الأقارب له تفسيره المنصوص عليه .	— الزواج من خارج القبيلة .
— المهر للعروس.	— ثمن العروس Kilemba
— قواعد الميراث .	— قانون العرف ـ توريث الأرملة
— نظام الملكية الفردية للأرض	— ملكية القبيلة .
— المحكمة الشرعية وقواعدها الإجرائية .	— محاكم كبار السن والزعماء ـ الطريقة العرفية فى التحكيم .
التثقيف	
— يعتمد النظام الإسلامى على الكتب	— تعاليم الأسرة قائمة على تقليد انتقالها شفهياً .
— مدرسة القرآن (الكتاب)	— مدرسة التأهيل
— اللغة العربية ← اللغة	السواحيلية ← لغات البانتو
— أدب مكتوب	— صيغ شفهية ـ حكم ومأثورات

(١) يقصد ماجاء بالقرآن الكريم « وماملكت ايمانكم .. الخ » (المترجم).

الثقافة الإسلامية	الثقافة التقليدية
الدولة	
— الدولة الإسلامية : الإسلام كدين للدولة (زنجبار)	— النظام التقليدى أو الوطنى للسلطة
— سلطة الحاكم : الاحتفال بوضع العمامة	— الشخصية المقدسة للرئاسة — الامتيازات
— الاعتراف بالشريعة	— حق السياسة والاعتراف بالعادة
— الضرائب والزكاة	— الاتاوة ، فرض الضرائب والخدمات
طقوس الانتقال	
— الميلاد : احتفالات العقيقة[1]	— احتفالات الخروج
— الختان	— مدرسة التأهيل ـ طقوس التأهيل
[حلت محلها طقوس سواحيلية إسلامية للتاهيل]	
— الزواج : الاحتفال بالعقد ، الوليمة	— الطقوس التقليدية هى الغالبة
— الموت : الطقوس الإسلامية هى الغالبة	— الاحتفال باسترضاء الأرواح بين الحين والحين

(١) العقيقة هى شعر المولود عند تمام السبوع . وسمى كذلك لأن شعره ينزل معقفاً أى ملفوفاً كقص العقيق . والاحتفال بقصه فى السبوع هو احتفال العقيقة ، ويومها تذبح للحاضرين ذبيحة يطلق عليها أيضا العقيقة ، وتعلق فى المولود رقية مكتوبة من الأدعية وآيات من القرآن الكريم لتحميه من أعين الحاسدين ،تسمى هى الاخرى عقيقة. ولقد وجدت منذ ايام الرسول (صلعم) فلم يعترض عليها وقال لمن سمعه يذكرها : «لاتقولوا عقيقة، وقولوا نسيكة.» أى شئ من التعبد المستحب. ولم يعد الاحتفال بقص هذا الشعر الآن يتم بالضرورة فى يوم السبوع ، بل قد يتم حتى بعد عامين من الميلاد . المهم أن الاحتفال بقص شعر المولود أول مرة ، مع كل هذه المراسم ، هو احتفال العقيقة مهما كان التاريخ الذى يتم فيه . (المترجم) .

الثقافة الإسلامية	الثقافة التقليدية
الحياة المادية	
— استيراد ثقافات جديدة ، الأعمال اليدوية،الصناعات،الاقتصاد المنزلى	— الاقتصادالتقليدى ، طرق التدبير المنزلى ، الصناعة وصيد السمك
— التجارة واقتصاد النقود	— اقتصاد المعيشة ، المقايضة
القوانين الاجتماعية	
— الأسرة داخل المنزل الواحد	— الأسرة الممتدة أو الكبيرة
— النظام الأبوى	— النظامان الأفريقيان أبوى وأموى (نسبة الفرد إلى أمه)
— مركز المرأة ، الحقوق الشرعية ، الانفصال	— النساء : لحمل الأطفال

والتباين السواحيلى فى الثقافة الاسلامية نتيجة لترسيخ ديانة قائمة على أساس وحى تاريخى ، وفرضها على العقيدة الأفريقية الطبيعية ، والطبيعة التاريخية للاسلام التى أشتقت ثقافته الفريدة منها ، تجعله مختلفاً تماماً عن الديانة الافريقية التى هى ديانة طبيعية موغلة فى القدم ، بمعنى أن العلاقة بين الفرد والإله المعروفة فى عالم الطبيعة ، ليست وليدة قدرة الإله التاريخية ، كما فى الإسلام .

ولقد جاء الإسلام بقانون مكتوب يستحيل الإنحراف عنه ، وبجانبه علم قائم على الحديث والسنة الإسلامية ، ثبت أنه مفيد فى أنه يمد النـاس بالتعاليم الدينية وأسس التوفيق والتصالح وتشريع الأمور الإسلامية ؛ ولقد كانت بين عقيدة الطبيعة والدين الإسلامى علاقة توازن حركى خلال السنوات التى كانت الثقافة السواحيلية تتشكل فيها ، وقامت تلك العلاقة فى صورة عمليـــة جدلية

خرج الإسلام منها منتصراً سواء باستيعابه — أو تمثيله — للقوانين الافريقية، مثل ثمن العروس، فى القوانين الاسلامية المقابلة. أوان كان التذويب والتمثيل مستحيلا، كما فى حالة الأرواح التى تتقمص الأفراد، فإنه يلجأ إلى قبولها جنباً إلى جنب مع القوانين الاسلامية، والطوائف الصوفية، وعادة تبجيل الأولياء تشكل جزءاً معترفاً به من الثقافة الإسلامية مثلما كان الأمر فى أى مكان آخر، فكلاهما به شىء تحتاجه الجماعة.

وقد أمكن الوصول إلى نوع من التوازن بين كل من العناصر الدينية الاسلامية، والعناصر الدينية الأفريقية فى شكل الحياة الذى تبلور بعد ذلك، وفى هذه العملية، برغم أن القوانين الاجتماعية ظلت أفريقية فى الغالب، الا أن الإسلام أحدث ثورة فى داخل الفرد نفسه. وباعتناق الاسـلام دخل الأفريقيون التاريخ؛ حتى التوقيت عندهم تغير منذ دخلت السنة الاسلامية، الا أنه يسبب عدم تمشيها مع الطبيعة مثل السنة الزراعية، قامت السنتان على التوازى جنباً إلى جنب، واحدة للزراع وتنضوى تحت المسموح به من القوانين الأفريقية، والأخرى تدخل ضمن القوانين الاسـلامية، وهكذا نرى أن العنصرين المكونين للحياة السواحيلية واضحان ظاهران فى كل مجالات الحياة.

ونشر الثقافة، أو عملية التثقيف هذه، تبعتها عملية التمثيل أو التذويب والاستيعاب، وعندما قوى هذا الشكل الناتج للثقافة السواحيلية الاسلامية، فإنه لم يكن من السهل تفتيته مرة أخرى، فلم يضف الوافدون الجدد من المجتمعات الأفريقية شيئاً ولم يكن لهم تأثير طالما أن الوثنيين كانوا يذوبون فى تلك الثقافة.

وبرغم أن ثقافة شرق أفريقيا الاسلامية قابلتها المعوقات، فقد نهض صرحها

قائماً على أساس دعائم الاسلام الأصلية دون أن تنال منها عمليات الاندماج وحفظ إسلامهم بسبب ارتباطهم البحرى بمسقط رأسهم الذى لم يكن دوره قاصراً على جلب المهاجرين الجدد ومعهم العناصر الثقافية فقط ، إنما كان ذلك الرباط عاملا هاماً فى تقوية الشعور بانتمائهم إلى عالم آخر . وفى مرحلة لاحقة ، تمسك المهاجرون — العمانيون العرب والهنود أيضاً — بالاحتفاظ بجنسهم المستقل ، وكان ذلك بالنسبة للعمانيين يرجع إلى كونهم عنصريين يعتزون بجنسهم ، أما بالنسبة إلى الهنود فقد كان الفارق بينهم وبين المسلمين الأفارقة - برغم أن الهنود لم يكونوا جميعاً عنصريين — كبيراً إلى درجة يتعذر معها التغلب عليه .

وإنتشار الاسلام بين الأفريقيين واعتماده فى المقام الأول على تذويب الوافدين وتمثيلهم يرجع إلى طبيعة المهاجرين المسلمين من المستوطنين الأول ، فقد أقاموا إسلامهم فى شكل حاجز ثقافى دفاعى حجبهم عن الافريقيين ولم يستوطنوا بينهم فى المناطق الريفية البعيدة عن المدن ولم يبعثوا إليهم بمعلمين للقرآن كما أن مجموعاتهم التى وجدت بعد ذلك فى المستوطنات الداخلية كان أفرادها منعزلين بدورهم ، يصلون فى مساجدهم الخاصة ولم يكن لهم سوى إتصال إجتماعى بسيط بالافريقيين ، وهذا هو السبب فى سطحية التحول إلى الاسلام فى الداخل .

ويبدو من الواضح أن المهاجرين العرب شاءوا الاستمرار فى طريقة حياتهم الأصلية دون أن تشوبها تغيرات أساسية ، ووفقوا إلى حد كبير فى خلق ثقافة أساسها عربى ، وهناك عائلات قليلة من المهاجرين استمر أفرادها يتكلمون اللغة العربية فى حياتهم اليومية وفى التفكير فى أنفسهم باعتبارهم عرباً وتفرغوا لدراسة اللغة العربية كلغتهم الثقافية ، وساعدتهم فى ذلك مكانة تلك اللغة فى

الحياة الاسلامية من ناحية ، وصلاتهم الوثيقة بمسقط رأسهم فى حضرموت من ناحية أخرى . ولما كان نادراً أن تترك المرأة الحضرمية بلادها فقد نتج عن ذلك أن المهاجرين من المناطق الريفية — وليسوا من البدو — أصبحوا بعد أجيال قليلة أفارقة فى خصائصهم الجسمانية ، كما أن حياة المستوطنين كانت قائمة على العبيد سواء منهم من كان يعمل فى الأرض أو فى المنازل وهم الذين كانوا أكثر تأثراً بثقافة سادتهم جنبا إلى جنب مع تأثرهم بجو البانتو العام خاصة من ناحية اللغة التى كان تأثرهم بها اقوى من تأثرهم باللغة العربية ، وادى ذلك بدوره إلى خلق الثقافة السواحيلية الوليدة . ومابرح عرب اليوم يجاهدون للاحتفاظ بعزلتهم وهنا نجد إختلافا بين سلالة المجموعات السابقة القديمة ، وبين المهاجرين الجدد الأكثر حداثة فالمجاميع القديمة يتكلمون اللغة السواحيلية ، والأقدم منهم لا يعرفون شيئا عن أصلهم القبلى ، اما الأسماء القبلية التى يتخذونها ، فهى من صنعهم وعادة ما تكون اسماء لبعض المناطق على الساحل الشرقى ، والعائلات الدينية المتوارثة تتكلم اللغتين ، ومازال افرادها يشعرون بأصلهم الحضرمى ، وفى بعض الحالات يحتفظون بعلاقات باقاربهم فى الجزيرة العربية[1] ، واحتفاظهم بخصائصهم يرجع إلى إستمرار ترددهم على بلادهم ، وان كان ذلك يحدث ببطء الا انه مستمر ، واصبح الإتجاه فى المستوطنات ان تنتسب إلى بعض المناطق الخاصة أو العائلات المعينة فى جنوب الجزيرة ، فبالنسبة « للعروبة العمانية » هى مسألة تفوق فى المركز الاجتماعى والسياسى .

وبرغم ان الثقافة الســـــواحيلية تحتوى على توليف من العناصر الثقافية

(١) بينما المهاجرون الحضرميون الجدد يحتفظون بصلاتهم بوطنهم الذى يعود غالبيتهم اليه ، فان الذين يبقون وهم عادة الذين يدخلون خدمة حكومة زنجبار أو الذين اصبح لديهم سند اقتصادى وتزوجوا من اهل البلد فتصبح علاقاتهم بوطنهم واهية . ويقول الاستاذ انجهام «من المقدر أن اكثر من ٩٠٪ من الحضرميين فى لامو قطعوا علاقاتهم نهائيا بحضرموت » .

المختلفة فان العنصر الاسلامى يتغلب وبخاصة عنصر الثقافة الحضرمية. فالاباضيون مثلا، وهم فريق من العمانيين مذهبهم القبلى هو « الاباضية »، يفتقرون إلى التأثير فى غيرهم، ولكن العرب من حضرموت اقاموا نفوذاً دينيا نراه واضحاً فى طائفة من المعالم مثل إنتشار المذهب الشـــافعى، وفى طرق التعليم والكتب المستعملة وفى اصل محتويات الأحاديث والروايات السواحيلية والأشعار التعليمية، وفى نظام توارث القادة الدينيين التقليدى وفى تبجيل الاشراف، وغيرها من الشواهد الكثيرة فى الثقافة المادية.

والشعوب التى تنضوى تحت لواء الثقافة السواحلية تشمل مجموعات منفصلة كثيرة تنقسم طبقاً لمعايير طبقية تبعاً للصورة الوحيدة التى رسمها الإسلام، وهناك مستويات مختلفة من الإدراك للثقافة السواحيلية، أقدمها الشيرازيون، ثم هناك العرب الشماليون وعرب المانجـــا ثم الأفراد المختلفون الذائبون أو الممثلون. والثقافة السواحيلية الحقيقية هى تلك التى يتخذها الفريقان الأولان وهى التى تطورت ونمت فى جنوب الصومال وساحل كينيا الشمالى. أما تمثيل أو تذويب الآخرين فيختلف، ذلك أن التذويب الكامل لا يتأتى إلا عن طريق التزاوج، والمدى الذى يمكن للتزاوج أن يذهب إليه يختلف بدوره. فبعض المانجا امتصوا تماما وهجروا الإباضية، ومهاجرون غيرهم من الداخل تم تمثيلهم بالمصادفة البحتة نتيجة للهجرة الغير منتظمة والاستيطان الفردى بما لم يدع مجالا للتماسك الداخلى بينهم، إلا أن انصهارهم فى المجتمع لم يتبلور فعاشوا فيه كأجزاء منه دون أن يتحدوا تماماً معه، بينما أفراد آخرون كانوا أكثر امتزاجاً بالمجتمع بسبب الزواج وأصبحوا أعضاء فى إحدى المجموعات القائمة. ومن ناحية أخرى كان العبيد السابقون أكثر اتحاداً ببعضهم البعض بعد أن أصبح لهم مركز اجتماعى معترف به. ثم هناك فريق خارجى من الجاليات السواحيليين فقدوا

لغتهم وسمات ثقافتهم ولكنهم يحتفظون بالإحساس الكامل والشعور بمنشأهم القبلى ، وبخاصية تقليدية مميزة وهم الماكوا Makua والياو والزارامو .. الخ .

وكل مركز سواحيلى وكل فريق له مظهره الدينى المركب من توازى القوانين الإسلامية وقوانين عالم الروح وتأثيرهما معاً وجنبا إلى جنب على حياتهم ، وكل مركز وكل حى وكل طبقة اجتماعية ، لها ترانيمها الخاصة من القصائد والموالد ورقصاتها وموسيقاها ووسائل تسليتها . وبالاختصار لها جوها وطابعها الخاص .

وفى غير الجزر والمجتمعات الساحلية لا توجـــد تلك الثقافة بكاملها فى الداخل سوى فى أوجيجى Ujiji فقط على سواحل بحيرة تنجانيقا ، وبطبيعة الحال فإن هناك مجموعات سواحيلية فى مراكز داخلية أخرى ، تتخذ تلك الثقافة لنفسها ، ومع ذلك فإن الموقف يختلف فى الداخل عنه فى الجزر والمناطق الساحلية إذ لا تشكل تلك المجاميع إلا عنصراً واحداً وسط عناصر أخرى متنوعة . فلقد بينا أن الإسلام وصل إلى الداخل خلال المائة سنة الأخيرة فقط وأن اعداداً كبيرة من مسلمى الداخل هم مسلمون فى الظاهر وأن الإسلام لم يكن له تأثير يؤدى إلى إحداث تغيير عميق سوى فى بعض المجموعات والمدن. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن انتشار الإسلام فى الداخل تم أساساً عن طريق التحول الفردى وليس عن طريق امتصاص أفراد فى مجتمع إسلامى ، والأفراد الذين اعتنقوا الإسلام واصلوا حياتهم فى مجتمعاتهم الأصلية حيث كانت أى محاولة لتغيير القوانين والعادات القبلية تواجه بالمعارضة والمقاومة .

ومعنى هذا أن قدرة الإسلام على التغيير أضعفت ، والمتحولون الجدد كانوا يعتنقون العناصر الدينية للاسلام ، وهذا يعنى أيضاً أن نفس المصطلحات

السواحيلية كانت مستعملة ، بمعنى أن الاسلام لم يترجم إلى اللهجات المحلية لتسهيل وصوله إلى الداخل . وضعف تأثير الشريعة أو عدم معرفتها حتى فى المجتمعات التى أدى تكدس السكان فيها إلى تحول اعداد كبيرة من الأفراد إلى الاسلام ، يرجع إلى ضعف متابعة رجال الدين لمدارس القرآن واقتصارهم على الحياة فى المدن . ولقد قابلت فقيهاً ذكياً متمرساً فى أوجيجى أكد أن الاسلام إن أراد نشر جذوره حقيقة ، فهو يحتاج إلى مراكز فى الأرياف . ولقد كان له تأثير كبير فى عادات وقوانين أهالى أوجيجى إلا أن طبيعتهم المختلفة لها دخل فى ذلك ، وقال الشيخ أنه برغم أن الاسلام كان قوياً فى بعض القرى القريبة ، إلا أننا كلما ابتعدنا عن المدن وجدنا تأثيره يضعف ، وفى الوقت الذى كان فى مدينة أوجيجى اثنا عشر مدرسة للقرآن لم توجد فيه مدرسة قرآنية واحدة فى المناطق الريفية .

والمذهبية هى من معالم الاسلام فى شرق أفريقيا بعكسه فى غربها ، وهى أول ما يقابله الزائر . أما الاسلام ذو اللون الواحد البعيد عن المذهبية ، فهو الذى اعتنقه الأفريقيون المسلمون الذين نحن بصدد دراستهم ، ومع ذلك فإن الهجرة وخصوصاً من شبه الجزيرة الهندية قد جلبت المذهبية الاسلامية ، كل مذهب فى مجموعة مغلقة . والمسلمون الآسيويون لم يتغيروا إلاقليلا بتغير المحيط الذى يعيشون فيه ، وهم بخلاف العرب ، لم يتخذوا اللغة أو الثقافة السواحيلية لأنفسهم ولم يتزوجوا بالنساء الأفريقيات ، كما أنهم أثروا فى المجتمع الاسلامى الأفريقى تأثيراً ضئيلا . وفى شرق أفريقيا تعيش كل مجموعة إسلامية حياة اجتماعية عامة دون تعدى على الحياة الاجتماعية لغيرها من المجموعات ، فإما أن يكون لكل منها احتفالاتها وأعيادها الدينية المنفصلة ، وإما — ان اتفقت

مع غيرها — فإن الاحتفال بها يختلف عن احتفالات المجموعات الأخرى ، فنجد فى زنجبار ، على سبيل المثال سلسلة من المساجد المختلفة تبعاً للمذهب أو الجنس ، فهناك مساجد لطوائف الشيعة المختلفة ومساجد أخرى لكل فريق من فريقى العرب الموجودين ثم مساجد عديدة للمسلمين الأفارقة .

وبرغم أن اهتمامنا الرئيسى موجه إلى المسلمين الأفارقة فى دراستنا لاسلام شرق أفريقيا ، إلا أن ذلك لا يدعونا الى الاقلال من أهمية المسلمين الآسيويين الذين أصبح شرق أفريقيا وطناً لهم ، عند تقديرنا للموقف الاسلامى العام فى هذه المنطقة ، وعلينا أن نهتم أيضاً ببعض المسائل مثل رغبتهم فى الاعتراف بوجودهم وبنفوذهم السياسى والاقتصادى وبالمشاكل المذهبية والعنصرية ومطالبهم الاسلامية الخاصة .

وسوف نبدأ بدراسة ممارسة السواحيليين للدين الاسلامى وعاداته فهى التى أشتقت منها طريقة الممارسة لدى مسلمى الداخل ، كما سوف نهتم بتأثير الاسلام على هؤلاء الاخيرين دون اعطاء وصف لحياتهم الدينية ، فإن ذلك يؤدى بنا الى دراسة دياناتهم الأفريقية التى أصبحت فى حالة ذبول وانحلال[1] أما بالنسبة للسواحيليين ، فالموقف مختلف ، فهم مسلمون تماماً وقد أصبحت خلفيتهم الدينية الأفريقية جزءاً من وعيهم الاسلامى ، وذلك أنه نتج عن الاتصال بين المهاجرين والأهالى الذى وصفناه عالم اسلامى أفريقى ليس هو العالم الاسلامى التقليدى القديم ، مع أن تقاليده الأصلية موجودة بكاملها

(١) بسبب بقاء البعض فقط من القوانين والعادات الافريقية على التوازى مع الاسلام ، وبذلك ضعفت العقيدة الأفريقية واخذت فى الانحلال عندما حلت بعض القوانين الاسلامية محل تلك الافريقية وبقاء الديانتين معا فى الممارسة ، فلم تعد العقيدة الافريقية فى قوتها الأولى (المترجم)

متمثلة فى بعض الأفراد ، ومع ذلك فلا يوجد بينهم تطابق كامل محدد ، فكل مدينة سواحيلية لها خصائصها الناتجة عن المؤثرات المحلية وليس عن الاختلافات الاسلامية ، وبرغم أن تلك الاختلافات المحلية اتخذت شكل النزاع فى بعض الأحيان فى أمور تافهة تتعلق بالعقيدة الاسلامية، إلا أنه يوجد تشابه عام سائد، هو التشابه الذى يكون ثقافة اسلامية اقليميةمحددة فىساحل شرق أفريقيا .

الفصل الثالث

التنظيم الإسلامى

إن الرباط الروحى الثلاثى لكل دين : الشعائر ، والأساطير ثم الزمالة ، هو تركيب مترابط ومتشابك بصورة تجعل أية محاولة لفكه أو فصم أحد أركانه الثلاث ، معناها تحريف فى الدين نفسه .

وفى دين منزل كالاسلام نجد « الإيمان » ويتمثل فى الفرائض والشعائر ثم « اسلوب الحياة » وأساسه المبادىء المشروحة أو المؤكدة بواسطة الخالق .

والإسلام بالنسبة للمؤمن العادى ليس عملا فكرياً فحسب ، ولكنه نابع من ذاتية الفرد نفسه . وسر قوته فى أنه هو نفسه أسلوب للحياة ، فهو يعلم ويقيد بواسطة الشعائر والفروض ، ثم ينطلق نحو الزمالة .

وفى الدراسة التى نحن بصددها لمنطقة شرق افريقيا نجد أن العلم الدينى نفسه لا يعتبر عاملا هاماً ، فتأكيد وحدانية الله وطاعة أوامره وتقديم الولاء له بالصلاة هى أمور أكثر أهمية من العلم بالله نفسه. كذلك فإن كيفية أداء الشعائر والفروض واكتساب عادات جديدة وتجارب مختلفة تميز بين المؤمن وبين الوثنى معناها التأكيد بأن هذه العادات والمعتقدات الجديدة التى اكتسبها أصبحت مقبولة ، فنحن نرى أن الاعتقاد فى الملائكة مثلا ليس قوياً كقوة الاعتقاد فى الأولياء لأن اعتقادهم فى الأولياء يقوم على أساس من التجربة الجماعية ذلك أن قدراتهم تظهر لهم ويحسون بشفاعاتهم ويلمسون نتائجها عندما يطلبونها .

وللسنة فى المجتمع الدينى أهميتها فى تشرب الإيمان وتدعيمه فى النفوس وهى مترابطة ببعضها بواسطة القانون الذى يسيطر نظرياً على جميع أوجه الحياة. والقانون فى الاسلام هو الشريعة ، ويجوز اعتبارها المقابل للكنيسة فى المسيحية باعتبارها التعبير عن الله فى الأرض ، وهى تسيطر تماماً وبلا منازع فى جميع الأمور الدينية وحياة الأسرة ، وحتى ان لم تكن كذلك فى مجالات أخرى فهى على أية حال القوة التى تصبغ الحياة بصورتها الاسلامية ، وتعطى للمجتمع صبغته الدينية .

(ا) المعتقدات

يتبدى الاسلام فى بداية الأمر منهاجاً قانونياً ، ولكنه يضم بين ثناياه ميتولوجيا جديدة تصبو لتفسير المعتقدات الاسلامية وتأويل الطقوس والمحرمات وصياغة العادات الاجتماعية وهذه الميتولوجيا مستمدة من المصادر التقليدية: بداية الخليقة وأسطورة آدم وحواء وأسطورة إبراهيم المبررة للختان بالاضافة إلى ما استنه النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد أصبحت الأشعار والموالد والقصص الموضوعية هى الوسائل التى تنقل بواسطتها الواجبات الأساسية فى الاسلام إلى العامة ، مثل الوضوء والصلاة وبعض الأحكام الفقهية والأمثلة على قدرة الله وقصص الأنبياء والحياة فى المستقبل . والآداب السواحيلية مشتقة من الأعمال العربية وتعتمد عليها اعتماداً كبيراً ، وخصوصاً الأعمال الناجحة فى جنوب الجزيرة ولذلك فليس بها — بالآداب السواحيلية — سوى القليل من الابتكار سواء فى الشكل والأسلوب أو فى المعنى والمضمون .

فالتنزى[1] Tenzi من الأدب المحفوظ صنعت للترتيل أو الغناء ولم

---

(١) مفردها بالسواحيلية Utenzi وهى كلمة تشير إلى «نشاط» أو «أو عملية». هذه التنزى تغنى بمصاحبة حركات ايقاعية من الجزء العلوى للجسد على الطريقة التى يسميها العرب «الطرب»
Lyndon Harries, Swahili Poetry, 1962 .

تـكتب الا حديثاً نسبيا ، وكما يؤدى الراقص حركاته بتصرف حر ،فان مغنى التنزى أيضاً يتصرف فى الأصل العربى لمقطوعته ومن هنا لم تـعد تلك المقطوعات سواء القصصية منها أو التعليمية تطابق أيا من الأصول العربية مع أنها مشتقة منها ومعتمدة عليها(١)

وتنقسم التنزى إلى قسمين رئيسين : (ا) قصصى أو روائى وهو مأخود من القصص المجازية العربية - و (ب) تعليمى يقصد به نقل التعاليم الدينية أو المعنوية . واشهر مقطوعات هذا القسم تعرف بمقطوعة « الانـكشاف » Utenzi wa Inkishafi التى تتـكلم عن الموت والفزع منه وهى أكثر أهمية من المقطوعات العادية ، فهى عند تناولها لبطلان هذا العالم ، تستشهد بتدمير مدينة باتى فى القرن الثامن عشر (٢) . وهناك مقطوعة تحكى عما يلاقيه بعد الموت الرجل الذى يفطر رمضان أو يهجر فرض الصلاة(٣) وأخرى الفتهاسيدة من لامو Utendi wa Mwana kupona تتناول واجبات الزوجة الدينية والاجتماعية والزوجية(٤) . وثالثة تركز على النبى (صلى الله عليه وسلم) عن

---

(١) انظر R. Paret, "Die Legendare Maghazi—Literature" Tubirger 1930 P. 44, 49, 119, 128 ibid' die Arabische Quelle der Suaheli—Dichtung Chuo cha Herkal Zeitschrift Fur Eingebarenenoprachen 1927 P. 241—9.

(2) "Al—Inkishafi" ed. and tr. by W.Hichens, London 1939 Lyndon Harries, "Swahili Poetry "P. 86—103

(٣) مازالت هناك ثلاثةأو أربعة مقطوعات عن البعث ،واحدة بلهجة آمو ويقول الأستاذ ساسلو أنها بلغة نجوزى ، ولـكن ليندون هاريس أوضح فى كتابه (الشعر السواحيلى) أن هذه اللغة هى مجرد اسم يرد إليه علماء السواحيلية الـكلمات التى لايعرفون اصلها وليس هناك دليل على انها لغة مستعملة فى الشعر .

(٤) أنظر : Harvard African Studies 1917، وكذلك « الشعر السواحلى » للاستاذ ليندون هاريس ص ٧٠ — ٨٧ .

طريق وصف انتصاره على موسى فى نزاع ما . وغيرها تحكى عن أيوب ، وعيسى ، والمعراج ، وميلاد النبى والموت . و كل تلك الاشعار تنتمى بصورة أساسية لساحل كينيا الشمالى ، وبرغم أن لها تأثيرها فى المقاطعات الساحيلية الجنوبية وفى زنجبار الا أنها ليست جزءاً من الثقافة السائدة فى تلك المناطق .

وفى المراحل الأولى من دخول الإسلام فى شرق إفريقيا كان التركيز واضحاً على الإله الواحد حتى ولو كان ذلك لم يلقن بوضوح، ومالقن هو واجبات المؤمن بأن يطيع الله ويخضع لإرادته بأن ينفذ أوامره ، والاعتقاد فى الله يتطابق مع اللفظ المتداول **Mungu** وهو الإله الخالق عند البانتو الذى توصلوا إليه وإلى وجوده من نظريتهم فى خلق العالم . والمونجو لايتطلب ايضاحاً حول طبيعته بل حول قدرته ووحدانيته . والإشراك بالله هو ام الخطايا وأكبرها .

وكل من اللفظين ، الله ، ومونجو ، مستعملان كمترادفين بين السواحيليين، والكلمة العربية مستعملة فقط فى الاشعار وفى الجمل العربية الأصلية أو عند التعجب . بينما الكلمة السواحيلية — مونجو — متداولة دائماً فى الدعاء وما شابهه ، وبلا التباس فان كلمة « موينى **Mwenye** » أى « مالك »تستخدم للتعريف ، وتعبير « **Mwenye enzi**» معناه « مالك العزة أو القوة » ،فكلمة **enzi** معناها العزة أو العز، والمونجو يتطلب الولاء له ، ومن هنا جاءت فروض العبادة أو حقوق الإله ، ولا يمكن استرضاؤه بالقرابين فقط مع أنها مطلوبة فى أوقات ومواسم معينة ، والتغيير فى فكرة الإله تسبب تغيرات عميقة وجوهرية فى الأفكار المتعلقة بعلاقات الإنسان به ، وبتلك المتعلقة بالموت وبما بعد الحياة ففكرة الجزاء والعقاب فى القبر ثم فى الآخرة هى شىء جديد ، والإسلام فى هذا المجال من الفكر وفى شعائر الموت ، له أعمق الأثر فى نفوس المسلمين .

وينفخ الله من قوته فى كل شىء (mungu yuaenea dunia yote أى الله موجود فى كل مكان) ولكن بدرجات مختلفة ، ولقد كانت قوة الله أقوى ما تكون فى محمد (صلعم) خير المرسلين mtume ، والتسميات المشتقة من اللغة العربية (نبى — رسول Nabii-rasuwa) أقل استعمالاً ، وهو أيضاً معروف « بالقوة التى يترابط بها الدين Kifungo cha dini »والشفيع يوم الدينونة mwombegi wa Kiyamani، وتسميات أخرى مشابهة ، وهو (صلوات الله عليه) يقوم بشكل ما بدور الأرواح فى الديانة الافريقية ، وسيط بين الله وبين الناس ، ويحاط بكثير من التكريم والتكريس ، أما المكانة التى تحتلها قصة مولده Maulidi فى حياة شرق أفريقيا فسوف نناقشها فى مكان آخر .

ومع أن القرآن حوى الكثير عن الموت والخلود فهو لا يقود إلى مذهب للروح كأساس لتلك المعتقدات ، ومن هنا إذا كان على الفلاسفة أن يرجعوا فى ذلك إلى اليونان ، فإن الافارقة احتفظوا بمعتقداتهم فى هذا المجال. فمعتقدات البانتو عن الروح بقيت فى صورة مائعة وخصوصاً فى علاقتها بالأحلام والرؤى والموت والسحر والشعوذة ، إلا أن تلك المعتقدات لم تعد عامة اليوم ، بل هى تتناقص كلما وسع السواحيليون من علاقاتهم . فالإنسان السواحيلى له أساسان روحيان، الروح roho ، والظل Kivuli أو الشبيه ، فعندما يموت إنسان ويسلم الروح Salimu roho فإن الله يأخذ روحه ، أى أنها تنضم إلى عالم الروح ، أما الظل أو الشبيه ، فلأنه منفصل عن الجسد فهو يبقى قريباً منه لمدة أربعين يوماً ، وفى اليوم الأربعين تتم زيارة القبر Vunja fungu لتقديم ذبيحة الوداع ويصبح الظل بعدها حراً فى الذهاب ليسكن عالم الروح Kuzimu ، وهو يسمى عند ذلك كوما Koma وكثيراً ما يشار إليه « مزيمو Mzimu » أى ساكن

منطقة التضرع الروحى (البرزخ)[١] .

وفى اللغة السواحيلية ، بينما أصبحت كلمة روح « rūh » العربية هى الكلمة العامـــة المستعملة للتعبير عن « أساس الحياة » ، فإن كلمة Kivuli المعبرة عن الظل لم تتحول إلى « نفس » ، والعلماء والأدباء فقط هم الذين يستعملون كلمتى « النفس » و « الروح »[٢] ، وغيرهم يستعملون كلمة « نفس » فى التعبير عن الذات « mimi nafsi yangu أى أنا نفسى » ، والروح تسكن الجسد جميعاً ، فإن فقد جزء من هذا الجسد ، فإن بعضاً من الروح أيضاً يصبح مفقوداً ، ومن هنا جاءت العناية الفائقة بالتخلص من بقايا قص الشعر أو الأظافر حتى لا تقع فى أيدى إنسان يكون مطبوعا على الشر فيمارس شعوذته عليها . وفى أثناء النوم فإن الظل ينطلق ليقابل ظلال وأشباه الأحياء الآخرين أو الظلال التى تسكن عالم الروح Koma بعد أن مات أصحابها ويمكن للظل أن يتبادل بعض الأشياء مع بديله الإنسان كما أن من الممكن الإمساك به وسجنه .

والأفكار الإسلامية الأكثر انتشاراً هى الأفكار المتعلقة بالموت ومابعد الحياة (الآخرة Kuzimu) و « عذاب القبر adhabu ya Kaburi » وهو عنصر جديد تماماً تركز عليه الأساطير الأفريقية ، فالملائكة المحاسبون يسألون « من هو ربك ؟ وما هو دينك ؟ ومن هو نبيك ؟ » فإن كانت الإجابة مرضية ، أى : ربى هو الله ، ودينى هو الإسلام ، ونبيى هو محمد ، فإن الملاك يبشره برحمة الله ، أما إن كانت غير مرضية فإن الميت يقابل ألواناً من العذاب

(١) قارن فكرة « الـكا » عند قدماء المصريين ، « فالـكا » هى النفس (الظل أو الشبيه أو الفرد غير المرئى) بينما أن « البا » هو الروح . (المترجم) .

(٢) والتعبير العربى مستعمل فقط فى الاشعار أو بين المثقفين وغيرذلك فنسمى « الزرقاء » نسبة إلى لونها .

يمارسها عليه ملاك يسمى« منكر ونكير munkari wanakiri »[التسمية في السواحيلية لفرد واحد] وهم أيضاً يعرفون الصراط Surta وهو طريق رفيع كحد السكين يمر عليه الموتى فوق نار موقدة ونهر تعبره الروح ممتطية نوعاً من الحيوان .

والتعبيرات العربية الدينية لها ما يعادلها في اللغة السواحيلية [فالسموات يقابلها mbinguni] إلا فيما يتعلق بالأفكار الجديدة التي لا تعجبهم فمثلا الفكرة القائلة بأن أعضاء العائلة الواحدة مقدر لهم درجات مختلفة في البرزخ بعد الموت ثم يذهب هذا إلى الجنة وذاك إلى النار ، هي فكرة غير مستساغة في عالم قائم على الولاء للأسرة والارتباط بها ولا ينقطع هذا الارتباط بالموت وبالتالي فإنهم لا يهتمون بالألفاظ العربية التي تعبر عن ذلك ، وتبقى الأفكار القديمة التي تقول بأنه ما دامت الساعة لم تحن فإن الجنة والنار غير مسكونتين والأرواح تعيش في عالمها في انتظار يوم البعث Kiyama ، ومن هنا جاء التركيز على عذاب القبر .

أما الأرواح المتقمصة التي تسكن جسد الإنسان وتسيطر عليه Pepo فلها مملكتها Peponi ، إلا أنه من الممكن استخدام لفظ Peponi استخداماً عاماً دون تحديد ، فهو يدل أحياناً على عالم الروح بصورة عامة مثل في قولهم « ذهبت الروح إلى عالم الروح roho amekwenda peponi » .

ويردد السواحيليون قصصاً كثيرة ويتغنون بمقطوعات عن نهاية الدنيا والحياة mwisho wa dunia . فيأجوج ومأجوج juju & majuju سوف يأتيان ويأكلان الأحجار والمنازل وسيغرق العالم الطوفان ، ويدق النفير

ويبعث الموتى[١] ويتجمعون تحـــــــت سدر[٢] Sidr . وفى يوم الدينونة Siku ya Hukumu ، فإن الذين أدينوا بعد أن فشلوا فى عبور الصراط سوف يسقطون فى أتون الجحيم[٣] motoni التى يحرسها ملاك يدعى «حارس النار» Mkun wa Nari أو malaika wa motoni .

أما المسلمون فلديهم تأكيد بأنهم لن يخلدوا فى العذاب ، ففى يوم ما ، سوف يقوم جبريل بإطلاق سراحهم من النار ويفتح لهم «باب القوة» ويدخلهم عن طريقه إلى الجنة !

(٢) المذاهب السنية فى الشريعة

المذهب الشافعى هو المذهب السائد فى شرق أفريقيا بسبب أن الإسلام الذى دخل فى تلك المنطقة قدم إليها من جنوب الجزيرة ، ولم يؤثر فيها إنتعاش المذهب الحنبلى تحت حكم الوهابيين. والمسلمون الهنود الأصليون يتبعون المذهب الحنفى وهو المذهب الغالب فى الهند برغم أن منهم شافعيين فى نياسالاند . ولقد جاءت الإباضية[٤] مع تدفق العرب من عمان حيث تعتبر المذهب الرسمى لقبيلتى الجعفيرى والحناوى . وبالتالى للطبقة الحاكمة فى زنجبـــار . والمذاهب المختلفة معترف بها ومع ذلك فإن القضاة لا يعينون سوى من بين الإباضية والشافعية. ويقال أن النوبيين فى شمال غرب أوغندا يتبعون المالـكية .

---

(١) فى أوساط المتعلمين تستعمل كلمة Bwathi أى البعث وفى غيرها من الأوساط فان كلمة ufu,fuo هى المستعملة .

(٢) هى شجرة توجد كثيراً فى المقابر فى زنجبار وتسمى mkunazi .

(٣) وتسمى أيضا Jahannamu أو Nari .

(٤) الاباضية هى فرع من الخوارج كما قلنا وتختلف كثيراً عن المذاهب السنية فى أنها مذهب يقوم على أساس تاريخى مستمد من معتقداتهم حول الامام الشرعى وفى أن لهم كتابهم الخاص بقوانينهم .

وقد أبدت الإباضية تسامحاً كبيراً في شرق أفريقيا حتى للمجموعات الشيعية ويقول الأستاذ R.F. Burton أنه « في أيام حكم سعيد بن سلطان سمح للاثنى عشرية أن يقيموا « منبراً أمامياً » حيث ينتحبون فيه على موت شهدائهم » ويعلق على ذلك بأن « قليلا من البلاد السنية كانت تتسامح مع مثل هذا الرجس[١] . » والواقع أنه لا يوجد إفريقي واحد من الاباضية. وأكد الأفريقيون المسلمون أن السبب في كون العرب العمانيين طالبوا عبيدهم باتباع الشافعية يرجع إلى اعتقادهم في تفوقهم العنصري ، هذا ولا يتحول أحد إلى الاباضية . وإنما يمكن فقط أن يولد المرء إباضياً ، وهي العقيدة القبلية بين عرب المانجا wa manga ، وقد ورث المشايخ الشافعيون كراهية الاباضية من زملائهم الحضرميين، وهناك إتجاه قوي لدى الاباضيين في الداخل للتخلص من العزلة الإجتماعية عن طريق تحولهم إلى الشافعية .

والجدل الأساسي بين السنيين لا يدور حول مسائل خاصة بعلاقة الإسلام بالعادات الأفريقية ، ولكنه يدور حول تفاصيل دقيقة في قواعد الفروض والشعائر . وأشد هذا الجدل مرارة قام حول صلاة الجمعة، مما أدى إلى حركات انفصالية انسحب خلالها المنشقون من المجتمع القائم . ففي ليندي مثلا يوجد مسجدان متنافسان، وانشق فريق ثالث وهو في الطريق إلى إقامة مسجد ثالث.

ولقد ثار الجدل منذ خمسين عاماً[٢] حول الإبهام والغموض الناتجين عن

---

(١) أنظر كتاب « زنجبار » طبعة ١٨٧٢ للاستاذ ر . ف . بيرتون ص ٣٩٦ .

(٢) قال قائل أن النزاع قدم من الصومال حيث يقبل اليوم حد أدنى من أثنى عشر شخصا كضمان كاف على صحة صلاة الجمعة ، وهذا محتمل حيث كانت صلاة الجمعة تعتبر مشكلة دائمة للرحل . ومن ناحية اخرى فمن الممكن ان يكون الاباضيون وراء هذا النزاع ، ذلك انهم لا يؤدون صلاة الجمعة عندما يكون الحاكم ليس هو إمامهم المعترف به بل يؤدون صلاة الظهر المعتادة من أربعة ركعات دون الخطبة المعروفة لصلاة الجمعة ويكتفون بالوعظ كبديل لها

وجهات النظر المتعارضة للشافعيين المتعلقة بالظروف التى تحكم صحة صلاة الجمعة ، والنقطة الأساسية فى الخلاف مدارها هل من الممكن أن يكون الحد الأدنى للمصلين من الذكور البالغين أقل من أربعين رجلا . ولما كان أهل الريف فى شرق أفريقيا لا يعيشون فى قرى ، بل ينتشرون فى أماكن متفرقة ، استحال جمع أربعين رجلا للصلاة ، كما أنه يبدو أن العادة قد جرت فى المدن الساحلية أن تؤدى صلاة الجمعة فى مساجد الأحياء المحلية ، فلكى يتقوا غضب الله على مخالفتهم هذا الشرط ، فقد عملوا على اضافة الظهر أيضاً حتى قام أحد رجال الدين الغيورين وتحدى تلك العادة ، ويقول الكثيرون أنه لا حاجة بالمرة إلى وجود مساجد خاصة بصلاة الجمعة ، وان تلك الصلاة يمكن أن تؤدى فى أى مسجد طالما يتوفر نصاب من أربعين رجلا (أو اثنى عشر أو حتى أربعة رجال) .

وقد انتشر هذا النزاع على طول الساحل والجزر ، وفى الداخل وصل إلى سونجيا Songea فى جنوب غرب تنجانيقا ، والباجاندا Baganda وراء بحيرة فيكتوريا . ولقد توصلوا فى أماكن كثيرة إلى حل لتلك الخلافات . ولكن مازالت الانقسامات الإجتماعية موجودة فى توندورو (منطقة الياو) وليندى وغيرهما من مناطق الساحل ، وفى أوغندا مازال النزاع قائماً كمشكلة حية وموجودة[1] . والخلاف يبدو بسيطاً ولكنه سبب كثيراً من المرارة . فكثير من الانشقاق يرجع إلى تصادم بين الشخصيات ، وفى زنجبار يعالج الأمر

---

(١) وصلت عادة اضافة الظهر إلى صلاة الجمعة إلى اوغندا عن طريق الشايخ الساحليين ولكن عندما اكتشف الحجاج إلى مكة انها ليست العادة فى الأرض المقدسة انشقت مجموعة ، وبعد الحصول على فتوى من المطوف الشافعى فى مكة بأن صلاة الجمعة وحدها هى المطلوبة زادت المجموعات المنشقة إلى ثلاثة .

باعتباره مسألة شخصية ، ويقول أحد المشايخ أن من يشعر أنه لم يؤد الشعائر المطلوبة تماما ، فهو حر فى أن يؤدى صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة الجامعة .

وهناك خلافات أخرى تتعلق بمسائل مثل دق الطبول فى الذكر ، والعديد فى الجنازات ، ومدى المحرمات الإسلامية ، وشرعية لحم فرس النهر[١] ، ثم . الخلاف الأكبر والأشهر ، حول بداية ونهاية صوم رمضان . !

(٣) العبادة

كثر بناء المساجد[٢] وانتشر فى شرق أفريقيا حتى أصبح لأصغر المجموعات المكونة من ستة منازل ، مسجد ، ولا يفكر أحد مطلقاً فى أن يصلى دون سقف فوق رأسه ، وفى الحقيقة فاننى لم أر أحدا — عدا بعض الصيادين — يصلى فى العراء . فان كانوا مسافرين بالسيارات فهم ينتظرون حتى يصلوا إلى احدى المستوطنات التى بها مسجد لكى يستطيعوا أداء الصلاة والمساجد منتشرة كذلك فى غرب أفريقيا ، ولكنها عبارة عن مربع محدد لاسقف له لأن المسجد هو « فقط مكان للسجود » . وهى منتشرة أيضاً فى الداخل بعيداً عن الساحل ، ففى أوجيجى Ujiji واحد وستون مسجداً كلها شافعية ، وفى جزيرة ممباسا يوجد تسعة وعشرون ،وخمسة وعشرون فى كمبالا (عاصمة أوغندا) . أما فى مناطق القبائل فى الداخل فتقام المساجد بعيداً عن تجمعات المنازل . وأصبح من المستحيل لأى إنسان أن يسمع الآذان .

والمسجد العادى هو مبنى مستطيل على شكل بيت سواحيلى عادى إلا أن

---

(١) اذ يثبت التحليل مشابهته التامة للحم الخنزير (المترجم) .

(٢) msikiti (لفظ زنجى) جمعها misikiti وهناك لهجات مختلفة musikichi و misgida, و miskita .

له محراباً بارزاً إلى الخارج[١] ، والواقع أنه من الصعب تمييز المسجد إلا إذا نظر إليه المرء من الناحية التي يبرز المحراب منها ، وفى خارجه توجد آنية للماء للوضوء المفروض قبل الصلاة ، ثم بعض الحجارة ليعبر المصلون فوقها حتى يصلوا إلى داخل المسجد دون أن تتسخ أقدامهم بعد الوضوء. والمساجد الكبيرة الحديثة فى المدن المقامة على الطراز الشرقى ، لها ملحق به صنابير للمياه وغيرها من التسهيلات الأخرى[٢] .

ومسجد الجمعة Msikiti wa ijumaa يوجد فى المنـاطق التى يكثر السكان فيها ، فبين اليا و توجد تلك المساجد فى القرى التى يعيش الزعمـاء والرؤساء فيها ، وجميعهم كان أصلهم من الغزاة، لاستغلالها فى تقوية نفوذهم[٣] ويوجد منها فى زنجبار أربعة : اثنان للمذهب الشافعى[٤] . وأثنان للمذهب الحنفى . أما الاباضيون فليس لهم مثل تلك المساجد لأنهم لا يؤدون صلاة الجمعة ويقولون أن شروط تأدية تلك الصلاة لاتتوفر إلا إذا كانت سلطات الدولة جميعاً تتجمع فى يدى الامام الشرعى . ولا يسمح لإباضى بأن يؤم المصلين فى صلاة الجمعة ولكنهم يسمحون له بإمامة صـلاة العيد والخطبة التى تدعو للسلطان سيد سعيد لم تلق فى عمان لأنه لم يكن الإمام الشرعى ، ولكنه بعد أن

---

(١) وكلمة « محراب » ليست مستعملة فى ساحل كينيا بل يستعملون كلمة Kiblani من « القبلة » وفى زنجبار فان بعض كبار السن يستعملون Mibrebuni ، أما « القبلة » فهى للتعبير عن اتجاه الصلاة ، ويقول الاستاذ R.B· Serjeant أنه لأن كلمة « محراب » لا تعنى أصلا نفس المعنى الذى تعنيه كلمة « قبلة » فى جنوب غرب الجزيرة العربية ، فإنها لم تدخل فى لغات شرق إفريقيا فى هذا المعنى واستعملت بدلها كلمة « قبلة » .

(٢) المساجد المهدمة المنتشرة حول الساحل لها صهريج ، وملحق للوضوء فى المدخل له بئر مجاور

(٣) أنظر كتاب : The Yao Village 1956 P64 للاستاذ J.C. Mitchell

(٤) مسجد الشافعية بالقرب من بيت العجائب بناه العرب الحارمة ووسعه الوالى فى ١٨٣٩ ، والآخر يقع على شاطىء البحر وهو الاكبر ويتسع لألفى شخص ، بناه العرب من المفازين واعاد بناءه ووسعه عام ١٨٤١ الشيخ محيى الدين بن الشيخ عبد الله الخيطانى المتوفى عام ١٨٧٠ وهو قاضى شافعى مبجل فى زنجبار وله اعمال فى التاريخ والفقه .

جاء للاقامة فى زنجبار بدأت تلك الخطبة تلقى ، وقيل أن ذلك يرجع إلى هدية تلقاها إمام المسجد(١) ، وبعد عهده كانت صلاة الظهر يوم الجمعة تتبعها تلاوة من القرآن الكريم ثم خطاب ، ولكنه ليس الخطبة المعتادة .

والمساجد فى زنجبار وفى الساحل بها زينة قليلة . ويرجع ذلك إلى تأثير الاباضية ، لأن المساجد القديمة المهدمة كان بها الكثير منها ، فالمسجد المعتاد لا مئذنة له مع أن المآذن ضمت إلى بناء المساجد الحديثة عن طريق تأثير الاسيويين . أما جامع مالندى فى زنجبار الذى بناه عام ١٩٣١ محمد عبد القادر المنصبى المدفون أمام المحراب ، فيضم مئذنة أقدم من تأثير الاسيويين .

وفى زنجبار تدخل بعض المساجد تحت إدارة الأوقاف ، ومرتبات موظفيها وإصلاحاتها ونفقاتها تدفع من حساب الوقف ، وغيرها — وليس فقط المساجد الذهبية — تقع تحت إدارة الجامعات ، بينما غالبية المساجد الصغرى تقع على عاتق أهل الحى أو المقاطعة ، وقد يقوم أحدهم بالاصلاحات على سبيل الصدقة والموظفون فى كثير من المساجد لايزيدون عن اثنين : الامام Imamu وهو المسئول عن الواجبات الدينية ، والمؤذن الذى عليه — إلى جانب الآذان أمام باب المسجد عادة — أن يقوم بكنس المسجد وإبقائه فى حالة حسنة وملء الآنية بالماء(٢) ، وفى السابق كان العبيد يلحقون بالمساجد الكبرى كأوقاف للقيام بتلك الواجبات تحت إشراف المؤذن . وموظفو المساجد العادية هم موظفون شرفيون ، ولكن الطلب على تلك الوظائف كبير باعتبارها مراكز

---

(١) أنظر كتاب : Documeuts Sur Lhistoire de L' Afrique Orientale P. 105 للاستاذ Guillain

(٢) حصير الصلاة (Misala ومفردها Msala) عادة بيضاوى مصنوع من أوراق النخيل الجافة — والحصير المصنوع فى جزيرة مافيا عليه طلب كبير .

أدبية ، ويتلقى كل من الإمام والمؤذن نصيباً من النذور أو جزءاً معيناً من الذبيحة (فمثلا يعطى المؤذن رأس العجل المذبوح) وفى مساجد الجمعة خطيب أو أكثر ، ومشرف أو ملاحظ . وفى تابورا ألحق ثلاثة أئمة بالمسجد يلقون خطبة الجمعة ويؤمون الصلاة بالتناوب ، فالخطيب هو دائماً الإمام فى ذلك اليوم وكثيراً ما يقومون بالوعظ ، ولكنهم لا يفعلون أكثر من قراءة القرآن ثم ترجمته إلى اللغة السواحيلية ، وفى بعض المقاطعات تقام مدارس القرآن فى المساجد .

ولا يسمح عادة للنساء بدخول المساجد ، وفى زنجبار يوجد على الأقل مسجدان مخصصان للنساء فقط ، ولكن التقاليد الشيرازية ، وفى بعض مساجد الحادميين والتومباتيين ، وفى المدن الشيرازية القديمة مثل سييو Siyu ، يسمح للنساء بالعبادة يحجبهن عن الرجال ستار يقسم المسجد فى آخره أو فى وسطه[(١)] وبعض المساجد المهدمة كان بها قسم أو ملحق قد يكون مخصصاً للنساء[(٢)] كما توجد مثل تلك الأقسام أو الملاحق بالمساجد الحديثة .

٤ — طبقة رجال الدين : وظائفهم وإعدادهم

كلمة « Mwalimu » كما يدل عليها أصلها العربى « معلم » معناها « كاتب » أو رجل متعلم ، وهو أكثر المعانى شيوعاً ويطلق تلقائياً على كل

---

(١) من الممكن أن تكون تلك العادة جاءت عن الشيعة ، ولقد كان لدى الاسماعيليين فى سوريا الى وقت قريب مثل ذلك الستار الحاجب ليفصل الرجال عن النساء .

(٢) مثل الملحق بالمسجد فى المدينة الكبيرة فى جزيرة تومباتو (كتاب « زنزبار » طبعة ١٩٢٠ ص ٤٠١ للاستاذ F.B. Pearce) وفى شمال مدينة زنجبار بالقرب من مدنية بوبوبو Bububu يوجد مسجد القيم فى عهد السلطان ماجد (١٨٥٦ — ١٨٧٠) كان له مسجد منفصل خاص بالنساء غير مستعمل الآن وتغطيه النباتات المتسلقة .

من تلقى أى علم من الـكتب ، ولـكن درجات العلم معترف بها وكذلك التمييز بين المتعلمين وكيفهم . فوجل الـكتاب Mwana—Chuoni والشيخ Shehe هما التسميتان الشائعتان « للعالم » وهو الرجل الذى تلقى إعداداً فى القانون مثل هؤلاء الذين يقومون بإلقاء المحاضرات .

وفى العالم الإسلامى الحديث نجد أن نفوذ ومركز العلماء آخذ فى النقصان ، ولـكن فى شرق أفريقيا ، فإن هؤلاء الذين تخرجوا طبقاً للنظام الشاق للاعداد الشرعى ما زالوا يحتفظون بمركز ممتاز فى المجتمع . ولقد قام إعدادهم على أساس نظام البحث عن الأستاذ[١] » فالمدرسون يتخصصون فى كتب أو نواح معينة من القانون ، والطلبة يحضرون حلقات الدروس التى يلقونها ، وعندما يكملون دراستهم يمنحون إجازة أو ترخيصاً يعطيهم حق القراءة على الآخرين .

والتدريس يبدأ بطبيعة الحال فى مدرسة القرآن ، وقد عولجت فى مكان لاحق ، ومنها العديد على الساحل وفى المدن الداخلية ، ويعتبر القرآن مقدساً بمعنى أن حفظه يمنح القوة ، ولا يمكن اعتباره أو استعماله ككتاب للنصوص سواء القانونية أو التعليمية ، فمثل تلك الـكتب هى من أعمال العلماء الشافعيين ، ولقد أصبح من العادات التقليدية فى مدارس القرآن تدريس المولد تأليف البرزنجى وفى بعض الحالات يدرسون المولد الذى وضعه الديباعى ، والـكتاب الآخر الوحيد الذى يشيع تدريسه هو كتاب « سفينة النجاة » وهو يحفظ مع ترجمته السواحيلية .

ويقول المشايخ فى زنجبار أنهم لا يعلمون النساء ، إلا أنه يوجد عدد من «الشيخات» اللاتى يقمن بتدريس القرآن والموالد للنساء فى منازلهن . والواقع

(١) مثل النظام المتبع فى الأزهر الشريف (المترجم)

أن فصل النساء عن مجتمع الرجال معناه حرمانهن من ممارسة النشاط الدينى المعتاد ، ومع ذلك فهم لا يفصلون بين الاثنين منذ البداية ، فهم يشجعون البنات على حضور مدارس القرآن حتى يبلغن سن البلوغ وعندها يتم حجبهن . وهكذا فإن كثيرات يتعلمن الصلاة على أصولها ، وترتيل أجزاء من القرآن والمولد ، واشتراك النساء فى الاحتفالات الدينية مقصور على المنازل بصفة عامة ، إلا أنه من الممكن أن تعد لهن ترتيبات معينة للاشتراك فى ترتيل المولد .

ومن معالم الإسلام فى شرق أفريقيا ، تلك الحلقات الدراسية التى تلقى فيها المحاضرات وتسمى Darasas ، وليس المقصود بها إعداد العلماء ، ولكن تدريس اللغة العربية وتفسير القرآن والفقه ، لعامة الناس . وتعقد تلك الفصول بواسطة المشايخ بعد صلاة المغرب سواء فى المساجد أو فى منازلهم الخاصة . وفى المساجد يجلس المدرس أمام المحراب والطلبة فى مواجهته ، بينما ينتشر آخرون فى المسجد . وهناك تدريب أكبر ويعطى عادة لمجموعة خاصة فى بيت الشيخ أو — فى زنجبار — فى مسجد خاص . وفى خلال شهر رمضان فإن عدد المشايخ الذين يعقدون تلك الفصول فى الصباح ، والدروس وعدد الحاضرين ، يتزايد بصورة ملحوظة ، وحضورها يعتبر نوعاً من قضاء الوقت فى ناحية جدية ويتخلل التدريس ، صلوات متفرقة وتراتيل لبعض القصائد . والكتب الرئيسية التى تشرح فى المحاضرات العامة هى من الكتب الشافعية الصغيرة مثل « منهاج الطالبين » للنووى مع تعليقات عليه مثل « التحفة » و « النهاية » و « هداية الأطفال » للأمين بن على ، وهناك كتيب شائع فى الفرائض هو « المقدمة الحضرمية فى فقه السادات الشافعية » لعبدالله بن عبدالرحمن

بافضل الحضرمى . ويتلى النص ثم يترجم إلى السواحيلية مع قليل جداً من التعليق . وهناك كتاب آخر فى الفقه يدرّس فى الفصول المتقدمة هو « متن الزبد فى الفقه » لأحمد بن رسلان ، وجميعها مستعملة فى حضرموت . وقد وجدت شيخاً واحداً يستعمل كتاباً حديثاً هو «الإسلام دينى» لأحمد العجوز ذلك أنهم لا يثقون فى أية محاولة حديثة ، فهم فى طلبهم العلم لأنفسهم يفضلون الذهاب إلى تاريم فى حضرموت للحصول عليه من « الرباط » التقليدى عن الذهاب إلى الأزهر الذى ينتقدون إصلاحاته الحديثة .

وهذه الحلقات الدراسية أكثر فعالية فى تعليم اللغة العربية من مدارس القرآن ، فالقاعدة فى الأخيرة هى أنه بعد حفظ النص من القرآن ، تعطى للتلميذ ترجمته السواحيلية مما يغنيه عن الاعتماد على اللغة العربية ويدعوه إلى عدم اتقانها ، ولكنه ان حضر تلك الحلقات فى أوقات فراغه ، فإن لغته العربية سوف تتحسن ، وقد يصل بها إلى حد الاتقان ، ومع ذلك فإن هذه اللغة تعتبر لغة أجنبية ، واللغة التى يتكلمها الشحيريون لا تعتبر عربية إذا نظرنا إلى اللغة العربية الحقيقية على أنها لغة القرآن ، والأفارقة العرب ، والأفريقيون المسلمون يتعلمونها كعنصر أساسى فى ثقافتهم الدينية وليست كلغة حية . والمتعلمون منهم بصورة عامة يتكلمون العربية ذات الطابع القديم فقط ، ولهذا فهم لا يستطيعون قراءة الحديث من الكتب أو الصحف لأنها غير مألوفة لديهم سواء فى ألفاظها أو فى محتواها . وتدرّس القواعد اللغوية فى الحلقات الدراسية ، أما « ألفية ابن مالك » وتعليق ابن عقيل ، و« قطر الندى » لابن هشام فتدرّس كنصوص فقط ، ونقطة الضعف الكبرى فى طرق التدريس الدينية تكمن فى أنه لا توجد أية محاولات للتطبيق سواء فى النصوص المحفوظة أو فى اللغة نفسها ، وتبقى المدارس كما هى ، خشية الوقوع فى ضلال البدع .

وتوجد مدرستان وحيدتان ، هما الأكاديمية الإسـلامية فى زنجبار ، و « رباط الرياضة الروحية » فى لامو ، وأنشئت الأكاديمية وبها فصل واحد فى عام ١٩٥١ بتشجيع من الحكومة ومدة الدراسة فيها خمس سنوات ، وبها عدد من الدراسات القصيرة ، ورغم أنها تمارس بعض التغييرات فى وسائلها بإضافة دراسات أكثر تقدماً إلى منهجها ، إلاأن الطريقة التقليدية فى الفصول الدراسية ما زالت هى الطابع العام . والمركز الرئيسى لتلك الفصول هو مسجد جوفو Cofu فى زنجبار ، وهو أيضاً يعتبر مركزاً للدراسات العليا ، وله مبنى آخر للدراسات الأعلى من ذلك ، والأساتذة الذين يقومون بالتدريس فيه هم أكثر المشايخ علماً واحتراماً فى شرق أفريقيا ، ومنهم السيد أحمد بن سميط المفتى السابق الذى كان يتمتع بشهرة واسعة[١] ومكتبات هؤلاء المشايخ تحوى معظم البحوث التى تعتبر حجة فى الفقه الشافعى ، إلا أن الكتب العربية الحديثة لا وجود لها عندهم .

والمركز التعليمى الآخر هو « رباط الرياضة الروحية » فى لامو حيث تعقد حلقات الدرس تحت إشراف سادة حضرميين من آل جمال الليل . ويوجد فى الساحل كله وفى المراكز الرئيسية فى الداخل مدرسون تلقوا تدريبهم فى لامو. وأصل هذا المركز كما يدل إسمه عليه هو للممارسـة الصوفية ، وكان وقت إنشائه مجرد زاوية بسيطة ثم حل المسجد الحالى ومدرسة محلها فى عام ١٩٠٠ .

ولقد قامت محاولات أخيراً لإضافة مواد تعليمية مكتوبة بالنثر السواحيلى إلى التراث الموجود فعلا من الأشعار الشعبية Tenzi لما لذلك من أهمية فى إذاعة العلوم والأخلاقيات وتوصيلها إلى عامة الناس ، فكتب القاضى على حميدى

---

(١) هو مؤلف « تحفة الحبيب » : تاريخ وانساب الشرفاء مع اشارة خاصة إلى الذين استوطنوا منهم فى زنجبار .

البحورى من تانجا عن قواعد الزواج[1] Kitabu cha Nikahi ، وكتب حسن بن أمير الشيرازى بحثاً عن قانون الميراث Mirathi ، أما الشيخ عبد الله صالح الفارسى ، قاض زنجبار فكتب عدة كتب سواحيلية من بينها كتيب صغير عن قواعد الصلاة ، وهو يقوم بترجمة القرآن قطعة قطعة إلى اللغة السواحيلية Tafsiri ya Korani ليبطل بها أثر إحدى الترجمات الأحمدية .

والواقع أن قيام المركزين الإسلاميين فى جزيرتين — زنجبار ولامو — هو أمر له معناه ومغزاه، فزنجبار هى الدولة الاسلامية الوحيدة فى شرق أفريقيا حيث أصبح الإسلام هو الدين السائد ، ولأنها جزيرة منفصلة عن الأرض الرئيسية للقارة الأفريقية ، فهى تتطلع بأنظارها إلى جنوب الجزيرة العربية أكثر من تطلعها إلى أى مكان آخر ، والشخصيات الدينية فيها جميعاً هم من مشايخ جنوب الجزيرة . كذلك جزيرة لامو ، وبها رباط الرياضة الروحية ، أصبحت المركز الحقيقى للإسلام ، ومنبع الثقافة السواحيلية التقليدية الإسلامية ، وبذلك أصبحت الجزيرتان منطقتين تتوفر فيهما أحسن الظروف لممارسة الإسلام وإليهما يتطلع المسلمون فى شرق أفريقيا كمركزين للاعداد والتدريب والتعليم، وهذا هو السبب فى تجزر الإسلام ، أى انحصاره فى جزيرة ، وهو الأمر الذى يوضح أيضاً ، المشاكل والعقبات التى تقوم أمام إسلام شرق أفريقيا فى سبيل تمشيه مع العالم الحديث .. !

٥ — التقويم

أثر دخول الإسلام على التقويم المحلى الذى يمارس الأهالى بمقتضاه شعائرهم

---

(٢) ترجمه إلى الانجليزية الاستاذ J. W. T. Allen فى دار السلام عام ١٩٥٩ .

الدينية ، ولكنه لم يلغه ، فحياة سكان المدن أصبحت تقوم تماماً على التقويم الإسلامى ، فى الوقت الذى يعتمد فيه أهالى الريف على تقويمين : التقويم الإسلامى القمرى (السنة الهجرية) فى كل مايتعلق بالعقيدة الإسلامية ، والتقويم الشمسى فيما يتعلق بالدورة الزراعية من بذر البذور إلى الحصاد وجمع المحصول .

والسنة الشمسية تستعمل أيضاً فى الأغراض الملاحية ، ويقال انها من أصل فارسى ولكن الطقوس التى ارتبطت بها هى من طقوس البانتو ، وتتكون السنة من ٣٦٥ يوماً مقسمة إلى ٣٦ عقداً Mwongo ، ثم خمسة أيام إضافية تسمى Gathas وتعتبر أكثر ملاءمة من السنة الهجرية لمتطلبات كل من الفلاح والبحار .

وتبدأ السنة الجديدة بيوم النيروز Nairuzi ، وليلة رأس السنة — وهى آخر الأيام الخمسة الإضافية — تسمى Kibunzi أو Kifunzi ، ولسنا فى حاجة إلى وصف الاحتفالات التى تقام فى مناسبتها فى الجزر وعلى الساحل[1] وتكفى الإشارة إليها باعتبارها تشكل عنصراً من عناصر الحياة السواحيلية ، وصورها وأشكالها الاستعراضية هى صور شعبية ناجحة ، فأى ضمور أو انحلال فيها فى منطقة ما ، يعوضه نجاح أكبر فى منطقة أخرى وأهم العناصر فى تلك المناسبات هى احتفالات البانتو لاسترضاء أرواح السلف ويرأسها الوسيط ، وأهم الشعائر المتبعة فيها هى شعائر تجديد الحياة . ففى الصباح الباكر سواء قبل أو بعد شروق الشمس مباشرة يتم الاستحمام فى البحر للتطهر وخصوصاً النساء ، ويحضر تلاميذ مدارس القرآن مايشاركون به من طعام أو نقود ويقضون الليـــل فى بيت

Sir John Gray : Nairuzi or Siku ya Mwaka T.N.R. (1)
No. 38 (1955) E. C. Baker, « Tribal Calendars » T.N.R.
No. 33 P. 30—34.
W. H. Ingrams, « Zanzibar 1931 P.280— 2, 487—8,

مدرسهم حيث يعدون الطعام الذى سيقدم فى اليوم التالى أثناء القيام بالشعائر، وفى الصباح يتوجهون إلى شاطىء البحر للاستحمام وهم يرتلون آيات من القرآن الكريم، وفى أماكن ساحلية معينة يقود الرجال بعد الاستحمام «جديا» معداً للذبح كضحية فى موكب يرتلون فيه القرآن كذلك، ثم تأتى المرحلة التالية عند الظهر، وهى تناول الطعام الشعائرى « يسمى Karamu وهو لفظ مستعمل لأى طعام شعائرى آخر. وفى تومبا تويسمى Kiwao » وفى تلك الوليمة على النساء أن يطهين الأرز، وعلى الرجال تناوله واستطابته والتمتع به، وبعد الطعام تطفأ النار جميعاً بصب المياه فوقها ويوضع الرماد فى مفترق الطرق ثم يعاد اشعاله pekecha بواسطة عصى موقدة وبعدها يبدأ قتال كاذب، ورقصات Ngomas تستمر الليل بطوله، ولكل مركز سواحيلى قديم له — أو كان له — رقصاته الخاصة وطرق قتاله الكاذبة لهذه المناسبة. وفى زنجبار تتم احتفالات التجديد واسترضاء الأرواح واستعطافها فى قراها الأصلية التى جاءت منها تلك العادة وتتركز بصورة خاصة فى Makunduchi فى جنوب الجزيرة حيث يتجمع الآلاف من جميع الأنحاء لمشاهدة القتال الكاذب الذى يشير إلى الصراع بين السنة القديمة والسنة الجديدة ثم حرق الملجأ الذى تلجأ إليه السنة القديمة banda ويتبع ذلك تقديم القربان فى كوخ الأرواح(١).

وقد أدخل السواحيليون بعض التغيرات على التقويم الهجرى بعد اتخاذه، فأصبحت السنة عندهم تنتهى بإنتهاء شهر رمضان، وأول يوم فى السنة الجديدة هو يوم عيد الفطر، ويسمى شهر شوال mfungus mosi أو العتق الأول(٢)،

---

(١) وقد اقتصر احتفال اغسطس ١٩٦١ على اهالى المناطق المجاورة فقط لخشية الحكومة أن تستغل الاحزاب المتنافسة التجمعات الكبيرة فى اغراضها السياسية.

(٢) كلمة Mfungo التى تشير الى فترة الاحتفالات التى تسبق رمضان قيل انها تشير الى تقييد الارواح كما تشير الى الصوم. وتشير كلمة Mfungus الى عتقهم فى نهاية رمضان.

ويتبعه mfungus pili أى العتق الثانى وهكذا حتى الشهر التاسع،ولا تستعمل الأسماء العربية الا للشهور الثلاثة الأخيرة : رجب Rajabu وشـــعبان Shaabani ورمضان Ramadhani ويسمى أيضاً شهر الصوم Mwezi Wa Tumu والأسبوع السواحيلى يبدأ بيوم السبت Juma mosi والأسماء العربية تستعمل ليومى الخميس Alhamisi والجمعة Ijumaa واليوم يبدأ بغروب الشمس وليس بشروقها ، ومن الضرورى أن نتذكر ذلك فى زنزبار حيث التوقيت الإسلامى هو التوقيت الرسمى ، والشعائر تلعب دوراً كبيراً فى حياة هذا المجتمع الإسلامى التقليدى ، ليس الصلاة نفسها — فهى متروكة إلى حد بعيد عدا رجال الدين وكبار السن لأن الصلاة فى شرق إفريقيا تحتم الذهاب إلى المسجد — إنما قواعدها وأوقاتها ، وهنا يبدو تناقض كبير بين المسـلمين فى الداخل المنتشرين فى مساكن متفرقة مع المسيحيين والوثنيين ، وبين أولئك الذين ينتمون إلى الثقافة السواحيلية فى المدينة .

واتباع السنة الدينية هو أمر هام بالنسبة إلى الشعور الذاتى الإسلامى ووحدة المسلمين ، ولما كانت السنة السواحيلية تبدأ بشهر شوال فانها بالتـالى تبـدأ بالاحتفال ببداية نهاية الصوم الذى — برغم تسميته بالعيد الصغير idi Ndogo — يعتبر أكبر الأعياد فى السنة الإسلامية . والاحتفال به لا يختلف فى جوهره عن الاحتفال به فى مناطق العالم الإسلامى الأخرى : صلاة العيد الجماعية يتبعها تبادل التهانى والملابس الجديدة والزيارات والولائم ولا توجد فى شرق إفريقيا مناطق فى العراء تقام فيها صلاة العيد فهى دائماً تؤدى فى المساجد ليس فقط فى مساجد الجمعة بل حتى فى المساجد الصغرى. ويصوم بعض الحاديميين والتومباتيين لمدة ثلاثة أيام خلال شهر شـــوال يطلقون عليها اسم « رمضان الصغير » Ramadhani ndoga .

وفى الأيام العشرة الأولى من شهر ذى الحجة mwezi wa hija ، وهو شـــهر الحج ، يقيم الـكثيرون ولائم فى ذكرى موتاهم . أما العيد الأكبر idi Kubwa فى اليوم العاشر من هذا الشهر، فهو أقل أهمية من العيد الصغير . وفى مالينيدى كانت هناك تشريفة حكومية بعد صلاة العيد ثم بعدها يذبحون الضحية المفروضة . والواقع أن قليلين نسبياً يؤدون فريضة الحج ، وبينما يقوم العديدون من الفقراء فى غرب إفريقيا بالحج عبر السودان ، فان الحج فى شرق إفريقيا لا يعتبر سوى أمل دينى لأنه يحتاج إلى توفير نفقاته وجمعها ، والذين يؤدونه هم الباكستانيون والهنود وقليل من الأفارقة العرب والسواحيليين .

أما البداية الحقيقية الأصلية للسنة الهجرية فلا يهتم بها سوى الشيعة رغم أن إنفعالاتهم العاطفية فى هذه المناسبة تصل إلى كل مدينة، وقليل من السنيين فى زنجبار يحتفلون بيوم عاشوراء (١٠من المحرم) بصومه ، وفى الأيام الأخيرة، بغناء بعض القصائد وبعقد بعض الفصول الدراسية[١] Darasas ، وبالنسبة للاثنى عشرية فيومهم العظيم بطبيعة الحال هو يوم ذكرى موت الحسين فى كربلاء ، وتبدأ فترة الحزن فى اليوم الأول من الشهر حيث يلبسون السواد ويجهزون التوابيت ونماذج للمقبرة فى كربلاء ، وفى زنجبار حيث يعتبر يوم ١٠ محرم أجازة رسمية فانهم يقضون الليل فى مواكب حول المدينة من العاشرة مساء حتى الثالثة صباحاً ، ويضرب المتعبدون المتحمسون أنفسهم وهم يحملون التوابيت والاعلام ويقدمون الماء المحلى وغيره من المتنوعات ويقودون جواداً أبيض مغطى بالدم وفوقه عمامة سوداء ويغنون باللغات الهندية[٢] وتنتهى أيام

(١) فى غرب إفريقيا دخلت بعض الاحتفالات الاهلية كالتطهر بالنار فى الاحتفال بيوم عاشوراء ، أما فى شرق إفريقيا فقد دخلت الاحتفالات الوطنية الاهلية فى الاحتفالات بيوم السنة الجديدة ، ومع ذلك فالمعلومات عن هذا الأمر غامضة .

(٢) يرجع فى وصف الموكب الى

F, D. Ommanney, "The Isle of Cloves 1955" P. 173

الحداد الأربعين فى العاشر من شهر صفر حيث يحتفل «بيوم الحسين» بالتشريفة وإلقاء الكلمات .

وفى الشهر الثالث من السنة يأتى الاحتفال بذكرى مولد النبى (صلعم) فى ١٢ من شهر ربيع الأول ، ومن هذا اليوم حتى نهاية الشهر تزدان المساجد بالزينات ويتم إنشاد الموالد . والاحتفال الرئيسى يوم ١٢ من الشهر هو مناسبة رسمية فى العواصم ومراكز المقاطعات ، وفى ممباسا تبدأ الاحتفالات بموكب المولد الذى يبدأ من مسجد صغير فى ميدان حديقة التتويج فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، قبل بداية اليوم مباشرة (اليوم يبدأ بعد الغروب) ، ويصحب معلمو القرآن تلاميذهم ليؤدوا بعض الأغانى الدينية ، وينضم إليهم أفراد من الجماهير وفرق الكشافة ، ويبدأ الموكب مسيرته فى المدينة وينتهى فى نفس الميدان فى وقت صلاة المغرب ثم يتفرقون بعد قراءة الفاتحة، وفى المساء بعد صلاة العشاء ، يأتى دور إنشاد مولد البرزنجى ويجلس المنشدون على منصة مظللة ويتجمع الأهالى حولهم بالآلاف ويتبادل المنشدون الفرديون انشاد مقاطع من المولد فيرد عليهم الحاضرون (أو الكورس أن وجد) إما بالترديد أو بالجواب، وعندما يصلون إلى المقطع الذى يشير إلى ميلاد الرسول (صلعم) فان الجميع يقفون إجلالا . وفى نهاية الانشاد (والمولد لا ينشد بكامله) يلقى كبار الحاضرين الكلمات فى مدح الرسول باللغات العربية والسواحيلية والانجليزية والأردية، وهذا الانشاد الرسمى يتم فى جميع المراكز الرئيسية وكل منها له طابعه المحلى. وفى المولد الرئيسى فى زنجبار حيث كان السلطان وكبار رجال الدولة يحضرونه كان يقدر عدد الحاضرين بعشرين ألفاً .

وينشد المولد بكامله فى جميع أحياء المدن والقرى بقية أيام الشهر فى المساجد أحياناً وفى العراء أحياناً أخرى . والاحتفال السنوى بالمولد فى لامو قرب نهاية

الشهر عندما ينشد « مولد الحبشى » يجذب إليه أناساً من جميع أنحاء شرق إفريقيا ، وتلك الاحتفالات تلقى إقبالا أكثر بكثير من الذى تلقاه الاحتفالات الرسمية بالمولد ، ضوء المصابيح الغازية المهتز ورائحة البخور وحركات الصبية وهم يرشـــون ماء الورد ، وصفان من الرجال فى زيهم الناصع البياض ، من المنشدين والكورس يواجهون بعضهم البعض يغنون بمصاحبة الآلات الموسيقية وهم يتمايلون بصدورهم . وللنساء أن يحضرن المولد دون الصلاة العامة ، فان كانت تتم فى العراء فان جزءاً من الأرض المخصصة للاحتفال يحجز ويسور لهن ، أما فى المساجد فانهن يبقين فى مكان مغلق خارجها .

ويسمى السابع والعشرين من رجب Siku ya miraji « يوم إسراء الرسول» أو Siku ya Lalama «يوم الابتهال والتضرع » واشتقت التسمية من عادة طلب مغفرة الله فى هـذا اليوم ، ويقول القصص الدينى أنه فى تلك المناسبة كشف للرسول عدد الصلوات اليومية التى لم ينزل بها القرآن . ويسمى شهر شعبان Mwezi wa Mliaho «أى شـــهر الولائم » ويومه الأخير (يطلق عليه Mfungo) هو ليلة الرخصة والاستزادة .

ومازالت بداية ونهاية شهر رمضان تحددان طبقاً لاختبار معين ، وهو أمر ثار حوله جدل كثير ، فالبعض يصرون على استطلاع الهـلال الجديد بينما الآخرون يدعون إلى اتباع الحساب الفلكى حتى يصوم سكان شرق إفريقيا جميعهم ويفطرون معاً فى وقت واحد . ولـكن نظرية مشاهدة الهلال هى التى تغلبت حتى الآن ، وتذهب تنجانيقا إلى حد إرســـال طائرة من الطائرات العمودية (هليكوبتر) فى محاولة لاستطلاع الهلال الجديد ، وحتى الليلة نفسها — ليلة البداية وليلة النهاية من شهر رمضان — يطلقون عليها « ليلة الشك » .

وهذا الشهر له اعتبار كبير حتى بين الوثنيين من أنصاف المسلمين فهم

يهجرون تعاطى الخمر فيه كما تتوقف الطقوس الروحية تماماً حيث أن الله يقيد الأرواح فى هذا الشهر ويسجنها ، وباعتباره شهر الصوم والنسك وقمع الشهوات ، فهو يهىء فترة من تجديد الوعى الدينى . صحيح أن لياليه التى تموج بالحياة بعد التدين الناعس أثناء النهار قد تتصف بالافراط فى الطعام ، ولكن هناك أيضاً إكثاراً من الصدقات وتزايداً هائلا فى التردد على المساجد حتى بين أولئك الذين لا يهتمون عادة بذلك . وتنشــــر الصحافة مزيداً من المقالات الدينية . وكثيرون يؤدون صلاة التراويح Sala ya Sunua وهى عادة تتكون من عشرين ركعة بعد صلاة العشاء ويتزايد حضور الدروس الدينية حيث يكون الموضوع المفضل هو دراسة تفسير القرآن الكريم أو مجموعة من الأحاديث النبوية ، والأخيرة تعتبر نافلة يستزاد منها ، أما القرآن فهو حجة عليا محددة لا تترك مجالا لغيرها .

والعشرة أيام الأخيرة من رمضان قدسيتها الخاصة ، ذلك أن ليلة القدر تقع فيها وهى الليلة التى أنزل فيها القرآن ، وفى تلك الليلة — ويعتقد أنها الليلة السادسة والعشرون أو السابعة والعشرون — تزدحم المساجد نتيجة للإيمان بأن الصلاة فى ليلة القدر تعدل شهوراً من الابتهال والتضرع ، كما أن لها أهميتها بالنسبة للذين يؤمنون بالأرواح حيث يعتقدون أن الأرواح المسجونة ، يفك إسارها فى تلك الليلة .

ثم .. تبدأ السنة الجديدة بيوم العيد الصغير .. !

٦ — عقيدة الأولياء والمرتبات أو الدرجات الدينية

أن التعاليم الصوفية وممارستها ونظامها تزيد من المظهر الإسلامى للحياة الدينية وتمدها بعالم جديد أساسه التجربة الروحية . فتكريس النفس للولاء للرسول (صلعم)وللاولياء لايحتاج إلى وسيط ، وممارسة الذكر تعطى احساساً مباشراً بالحقيقة الالهية . ونحن لا نعرف سوى القليل عن الحياة الدينيـــة فى المستوطنات الساحلية فى الماضى ، ومن المحتمل أن تكون الطرق الصوفية قد جاءت متأخرة،ومن المؤكد انها لم تصل شرق أفريقيا قبل إنتشارها فى جنوب الجزيرة العربية ، وهى المكان الذى جاءت منه إلى هذه المنطقة . وفى الصومال يتم إسلام الحاميين البرابرة بصفة عامة ، باحترام الأولياء وتبجيلهم ، كما أن الطرق الصوفية (القادرية والادريسية والصالحية) تتمتع بمركز كبير . وعقيدة الأولياء مرتبطة لديهم بالمشاعر القبلية . وتوجد تلك العقيدة كذلك بين عرب الساحل الشرقى ولكنها عندهم ليست مرتبطة بالأصول القبليـــة . ويتمتع الاشراف الأحياء بالاحترام الشديد لما ينسب إليهم من البركة والقوة على الاتيان بالكرامات وأعمال المعجزات . وفى شرق أفريقيا يستعملون لفظ Buruhani للتدليل على القوة التى يمنحها الله لمثل هؤلاء كبرهان على العطف الالهى . وعقيدة الأولياء الحقيقية لا تجد إقبالا كبيراً من الزنوج الذين ينظرون إلى الكون على أنه عالم حركى وليس عالما ســـاكنا ، إلا أن فصل عادة استرضاء أرواح السلف عن الاعتقاد فى الأولياء لا يمكن تحديده تماما ولذلك فكثيراً ما يطلق عليها نفس اللفظ . والنساء السواحيليات يزرن القبور والأضرحة مثل زيارتهن لكل مكان يحتمل أن تؤدى شفاعة الأرواح فيه إلى النتائج المرجوة ، وهو أمر يختلف بطبيعة الحال عن طلب الشفاعة من الأرواح الأخرى — أرواح الأرض أو البقعة التى تعيش القبيلة فيها — لأن

وجود الوسيط غير لازم عند زيارة الأضرحة ، فالإسترحام هو ناحية إسلامية وهو موجه إلى الله ولروح الراقدفى الضريح[١] . وفى الماضى عندما كان هناك العديدون من البرابرة يعيشون على طول الساحل كانت تلك العقيدة أكثر أهمية بدليل إنتشار بقايا أضرحة كبيرة مصممة تصميماً متقناً ، إنتشاراً واسعاً ، ومازالت تتم زيارتها حتى أيامنا هذه ولكن ليس لها علاقة بعقيدة الأولياء لأنها أتخذت طابع الخرافات ، وعقيدة كعقيدةالنذور لأى روح وطلب الشفاعة منها يمكن أن تزدهر فى مثل تلك المناطق وتنتشر فيها .

والمواكب الجماعية ، مع الغناء والرقص التى تسمى Gungu مرتبطة بزيارة ضريح شاها مشاهام بن هشام ، آخر الحكام الشيرازيين فى ممباسا (١٥٩٢) ، فوق ربوة على الجزيرة فى مواجهة كيسوانى وهناك ولى حديث اسمه الشيخ جوندانى Jundani ، مدفون فى جامع يحمل اسمه فى ممباسا ويزوره الأهالى لتقديم النذور والتضرع بالدعاء حيث أن شفاعته قوية مستجابة . وفى مدينة تاكا Taka المهدمة فى جزيرة ماندا ، فان المبنى الوحيد الذى يلقى الاصلاح والعناية هو ضريح الشيخ الفقبة منصور الذى يزوره الأهالى ، وكذلك الحال مع الأضرحة فى المدن المهدمة الأخرى مثل مدينة باتى .

ولقد عارض أتقياء الإباضية تبجيل الأولياء الموتى والاشراف الاحياء ووقفوا ضد إقامة ضريح للسلطان سعيد حتى أن بناءه لم يتم وترك دون أن يكتمل ، إلا انهم فى زنجبار لا يملكون نفس القوة التى كانت لهم فى عمان وأحتجوا ضد الاحتفالات الشعبية مثل تلك المتصلة بضريح الشريف موسى ،

---

(١) كلمة Ziara تستعمل فى زيارة القبور ، أما طلب الشفاعة فى الاضرحة فيسمى : Kuagiza Kwa Shehe والصلاة على روح شيخ معين لطلب الشفاعه تسمى :
Kuenda Kuomba Shehe Fulani

وهو ضريح مشهور مقام فى بيت الرأس على بعد خمسة أميال من مدينة زنجبار ، ولا يعرف شىء عن صاحب الضريح ، فإحدى الأساطير تقول انه من أهالى مدينة سييو Siyu ومات غريقاً ، وأخرى تقول أنه من أشراف زنزبار (زنجبار) اشتهر بكراماته . ولقد ثار الاباضيون عندما أقام السلطان حامود بن محمد ضريحه فى ١٨٩٦ ولكن دون فائدة ، والضريح باق للآن . ويزور الأهالى من جميع الطبقات والمذاهب ، هذا المسجد والضريح فيه فى طلب البركة وتقديم النذور سواء كانت نقوداً أو طعاماً ، وإيقاد البخور كما يقيم اللاحون الصلاة على روحه عندما تمر قواربهم أمامه ويلقون بنذورهم له فى البحر . وهناك شيخ حديث آخر يسمى حبيب صالح بن عبد الله من آل جمال الليل (١٩٣٥)[١] وهو مؤسس رباط الرياضة فى لامو ، وتتجه المواكب إلى الكوخ المقام ضريحه فيه ، فى ذكراه السنوية أو حوليته Hawliyya فى ٢ من المحرم وتوضع الزهور وخصوصاً الياسمين فوق مقبرته وتقام صلوات خاصة وتُنشد الأذكار . وعقيدة الأولياء هذه لا تمتد وراء الشريط الساحلى ، ولا وجود لها بين المسلمين الجدد فى الداخل .

والأهم من تلك العقيدة بكثير فى شرق أفريقيا هو تكريس النبى (صلعم) والولاء له سواء فى شكل تكريمه أو فى طلب شفاعته ، ويتمثل ذلك بأجلى معانيه فى إنشاد الموالد وفى كل المناسبات التى يحتفل بها مثل الاحتفال بمولود جديد أو ختانه ، والزواج وغيره من المناسبات الدينية الجماعية وخاصة خلال شهر ربيع الأول ، شهر مولد الرسول .

ويبدأ إنشاد المولد بوصف النور الإلهى ، ثم المبدأ الأزلى للخلق ، ثم

(١) « حبيب » هو لقب شرفى « الحبيب » يطلق على السادة الاشراف فى جنوب الجزيرة العربية

الأحداث الرئيسية فى حياة الرسول مع التركيز الشديد على معجزاته وكراماته، وعندما يصل المنشدون إلى النقطة التى يستقبل فيها الرسول الحياة ، وهى أكثر أجزاء الإنشاد قدسية ومهابة ، ويقولون : « وُلد نبينا » ، فإن الجميع يقفون صائحين : « يا نبى . . السلام عليك » .

وأكثر الموالد شيوعاً هو المولد الذى وضعه البرزنجى ، وله نصان أحدهما نثرى والآخر شعرى ، كذلك المختصر باللغة السواحيلية الذى وضعه أبو بكر ابن عبد الرحمن[1] ولا بد أن يكون قد وضع فى بداية القرن قبل الماضى لأن مؤلفه مات فى عام ١٧٦٦ ، ويُدرس هذا المولد فى جميع مدارس القرآن وهو تقليد لم يصادفنى فى أى مكان آخر فى أفريقيا ، وبالتالى فإن تلاميذ تلك المدارس يطلبون كثيراً للانشاد الأمر الذى يتهجون به إلى حد بعيد ، وهناك كتاب شائع آخر هو كتاب « مولد أشرف الأنام » لعبد الرحمن بن الديبا (١٥٣٧) يدرّس كذلك فى بعض المدارس ، وهو أكثر شيوعاً بين الحضرميين ، وثالث هو « سمت الدرر » ولكنه يعرف أكثر باسم « مولد الحبشى » طبقاً لاسم مؤلفه على بن محمد حسين بن عبد الله بن الشيخ الحبشى العلوى ، الذى توفى فى سايون ، وهو من الشعر والنثر المسجوع وعادة ما يتغنى الجمع بالفقرات النثرية منه بينما يقوم بإنشاد الفقرات الشعرية الطلبة أو المنشدون[2] ، وتسمح الطريقة العلوية بالدفوف ، فعلى أنغام دقاتها يتمايل المنشدون إلى الخلف وإلى الأمام .

---

(١) يوجد النص السواحيلى وترجمته فى كتاب ليندون هاريس Swahili Poetry 1962 P.102 وقد ألفت بعض الموالد القليلة باللغة السواحيلية ولكنها قليلا ماتنشد سوى فى المراكز المحلية.

(٢) تغنت القصص الشعبية السواحيلية ببعض الأجزاء ومن المحتمل أن يكون ذلك سبب شيوع هذا المولد .

وكتاب رابع هو « مولد العزبى » لمحمد بن العزبى ، وربما يكون هذا الكتاب قد عرف لأنه طبع ضمن بعض مجموعات الموالد ، ولكنه لا ينشد مثل الآخرين . ويمكن ضم « البردة » للبوصيرى إلى هذا النوع من أناشيد المديح لتكريم الرسول وهى توجد ضمن بعض مجموعات الموالد . وفى مناسبة الاسراء والمعراج [٢٦ — ٢٧ رجب] تنشد قصة المعراج بدلا من الموالد ، وقصة الدردير (١٧٨٦) أكثر تلك القصص شيوعاً مع أنهم فى بعض الاحيان — وخصوصاً فى زنجبار — يستعملون قصة « المعراج الكبرى » لنجم الدين الفيطى (١٥٧٣) .

وفى هذه المناسبات جميعاً ، كما فى حلقات الذكر ، يوقدون البخور ويرشون ماء الورد[1] . والذكر Zikiri هو تذكر الله عن طريق ترديد اسمه وصفاته سبحانه وتعالى ترديداً يتفق عند إنشاده بواسطة الجماعة مع طريقة معينة للتنفس والحركة ، وله شكلان : فردى وجماعى . فلكل عضو مهمة خاصة فى الذكر تسمى « ذكر الاوقات » عليه أن يمارسها بانتظام ، وعليه أيضاً أن يشترك فى الذكر الجماعى الذى ينشد أسبوعياً فى شرق أفريقيا إما فى ليلة الجمعة (مساء الخميس) وإما بعد ظهر يوم الجمعة نفسه بعد صلاة الجماعة والدافع الاصلى للذكر الجماعى هو الوصول إلى بعض الآثار الروحية عن طريق حركات عضوية منغمة ومنظمة (السيطرة على التنفس — التكرار الجسمانى) تصحبها وتنظمها نغمات صوتية .

---

(١) يطلق على ماء الورد والماء المعطر اسم Marashi ، وهو يستعمل فى رشاشات Mrashi فى كل الاحتفالات . ففى الموالد فى المساجد ، وفى الخاتمة عند الحزن ، يضعون الرشاشة « والمنقد » لحرق البخور Chetezo فوق صينية أمام الشيخ . ويصنع المنقد عادة من الفخار وكثير منها مستورد من الجزيرة العربية ، وفيها يحرقون انواعاً مختلفة من المواد العطرية مثل العود واللبان .

وفى بعض الاحيان تستعمل آلات موسيقية ، لتحرر الجهد الجسمانى من التفكير ،ذلك أنه يجب أن توقف الإرادة ، ويمتنع التفكير، لإدراك الافتتان والانجذاب والتصوف والوصول إليه !

وتتفق كل الطرق الصوفية فى إنشاد بعض النصوص الدينية وتأدية صلوات معينة (الاحزاب والاوراد والاذكار) . ويعهد إلى كل عضو جديد ينضم رسميا بتلك المهام ينفذها عقب إحدى الصلوات اليومية الخمس، أو بعد أكثر من واحدة من تلك الصلوات ، وكلما تقدم المريد فى مرتبته ، فان ما يعهد إليه به يتزايد ، والواقع أن قليلين فقط هم الذين يعطون أكثر من إنشاد الذكر أو قراءة الورد Wazifa الخاصين بالطريقة ، بعد صلاتى المغرب والعشاء . وقراءة الاوراد تتم بالمسبحة . ومن الامور التى أدهشتى هو أننى لم أقابل أبداً شخصاً واحداً يسبح أو حتى يحمل مسبحة لمجرد حملها مثل البلدان الاخرى ، وقيل لى فى زنجبار أنهم يخجلون من اظهار المسبحة خشية أن يظن بهم التظاهر بالورع والتقوى،وهم يحملونها إلى المساجد داخل ملابسهم ، وكثيرون يتركونها معلقة فوق مشاجب أعدت لهذا الغرض فى المساجد . وتستعمل الطرق جميعها الكتيبات الشائعة فى التصوف مثل « دلائل الخيرات » للجازولى ، وتحتوى تلك الكتيبات أيضاً على صلوات شهيرة مثل « حزب البحر » للشاذلى . ويقرأ مشايخ الطرق الاعمال العادية فى التصوف ، ولكن المرء يشعر أن الصوفية بالنسبة لهم لا تعنى سوى التمسك فى الباطن وفى الظاهر معاً بالمبادىء والاخلاقيات العالية .

ومن الصعب تقدير تأثير المذاهب الصوفية على السواحيليين ، إلا أن الواضح لنا انها تؤثر تأثيراً مباشراً فى نسبة صغيرة فقط من الاهالى ، ودرجات ذيوعها بين الناس تختلف ، ومن المؤكد انها آخذة فى التدهور بسبب ظهور

أشكال جديدة من الجماعات الإسلامية ، وفى شرق أفريقيا ككل فإن « القادرية » هى أقوى الطرق الصوفية تأثيراً ، ومع ذلك فالأمر يختلف بالنسبة للمراكز الساحلية،ففى « كيلوا »مثلا نجد« الشاذلية »هى الأقوى بينما« القادرية» هى الغالبة فى ليندى ،وهناك منافسة ملحوظة بينهما قائمة أساساً على شخصيات مشايخ كل من الطريقتين . وفى زنجبار توجد جميع الطرق الصوفية الموجودة فى شرق أفريقيا ، والشاذلية هى الأقوى وتأتى القادرية بعد ذلك ، والطرق الأخرى هى : الرفاعية والأحمدية والادريسية (وهم قلة) والدنداراوية والعلوية فى عدد من الفروع ، وفى الجزر ، وعلى طول الساحل تحرك الطبقات السواحيلية المختلفة بعض الطرق المعينة ، ولكن عدداً محدداً منهم هم المؤمنون بالذكر برغم أن عائلاتهم تعتبر رئيس الطريقة « شيخنا » . وفى ساحل كينيا اعتبرت الطرق الصوفية من المسائل الخاصة التى ظهرت للمحافظة على النخبة من طبقة الأفريقيين العرب ، ومع ذلك ففى الداخل فإن أعضاءها هم من الأفارقة بصورة رئيسية ، وهى ذائعة شائعة فى دودوما وتابورا وخاصة فى أوچيچى . وفى أوچيچى يتشابه الموقف مع موقفها فى شمال السودان النيلى فى أن كل فرد من الأهالى له صلة بأى صورة من الصور بإحدى تلك الطرق ، فالجميع تقريباً « قادريون » ، وقليلون جداً هم الشاذلية . وعند مناقشة مدى قوة «القادرية» فى أوچيچى ، قال أحد المشايخ إن هذه الطريقة أوشكت أن تفقد مركزها ، فإن الشباب أصبحوا أقل حماساً ، وأصبحت السياسة أكثر أهمية من الدين . وبين المسلمين الجدد تكاد الطرق الصوفية تصبح لا وجود لها ، والذكر غير معروف سوى بين الياو[1] ، وفى المدن التى بها مجموعات . وفى أوغندا الطريقة

---

(١) وجدت الشاذلية والقادرية بين الياو وانقسمت القادرية بين هؤلاء الذين يمارسون الذكر بقرع الطبول وبين الساكتين Sukutis ويقول الاستاذ J.N.D Anderson فى كتابه Islamic Law in Africa 1954 أن الاحتفالات بالاسلاف لديهم انطبعت جزئيا بالطابع=

« الشاذلية » هى الأقوى وشيخها يعيش فى جينجا Jinja ، ويوجد عدد قليل من القادرية بين النوبيين ، وكذلك قليل من « الحدادية » ، هذا وليس للطرق الصوفية منظمات مركزية فى شرق أفريقيا .

الشاذلية : ويوجد منها فى زنجبار ثلاثة طوائف رئيسية ، بمعنى ثلاثة مشايخ ، والشيخ الأكبر هو السيد محمد بن شيخ (توفى ١٩٢٠) ، وقد عاش فى جزر القمر ويحتفل به فى ٢٦ من جمادى الثانى . وللشاذلية وغيرها من الطرق زوايا يطلق عليها Zawiyani [1] ، وهى مبان خاصة لا يعيش فيها أحد وتستعمل فقط لإقامة الذكر ، والكتاب الرئيسى الذى تقوم عليه الطريقة الشاذلية هو « المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية » لأحمد ابن عياد .

وفى الذكر يبدأون قائلين : « ياواحد يا ألله » . ثم يجلسون فى دائرة [2] فى الوضع الذى يجلس المصلى فيه بعد السجود ، ويجلس الإمام فى الوسط وحوله المنشدون (وكثيراً ما حرفت إلى مرشدون Murhidun) ومن حولهم المريدون ، وبعد ذلك يقرأون الورد الخاص بالطائفة وهو يستغرق حوالى الثلاثين دقيقة ، وجميعهم — متعلمون وغير متعلمين — يحفظونه عن ظهر قلب . وبعد ذلك يبدأون الذكر ، فينشدون التهليل ببطء ثم يسرعون ، والإمام هو الذى يعطى الإشارة بهذا التغير بالتصفيق بيديه ، ثم يقف فيقفون جميعاً ،

= الاسلامى بواسطة الذكر الذى ينظر محليا إليه على أنه مجرد رقصة من الرقصات ، والحماس فى ادائه هو دليل على استساغة النغم اكثر منه الانجذاب الدينى ، فان هدفه الاساسى قد طواه النسيان .

(١) تستعمل كلمة زاوية Zawiya فى تابورا للتعبير عن الذكر ، Zawiyani عن المكان الذى يقام فيه فيقال « سأقيم زاوية » وفى ليندى تطلق كلمة « خلوة » Khalwa على أى مكان خلوى مخصص لاقامة الذكر .

(٢) ويطلقون عليها دائرة Daira ومن هنا جاءت تسمية ليلة « الذكر » أيضا .

والملتفون فى الدائرة الخارجية تتشابك أيديهم وعادة ما يغمضون أعينهم كوسيلة تساعدهم على التركيز ، وتأخذ حركاتهم فى الإسراع إلى الخلف وإلى الأمام ، ثم تتغير تلك الحركات إلى القفز ، والإنشاد مستمر فى جميع الحالات بقيادة الشيخ ، ويعرف المنشدون من حركاته الإنشاد الذى سينتقل إليه ولكنه فى بعض الأحيان ينشد المقطع الأول ثم يكملون هم ، وبعد فترة يقطع الشيخ الذكر ويتوقف فجأة ويغنى المنشدون قصيدة أو أكثر ، ويردد المريدون كلمة « الله » ، وأحياناً يرددون القصيدة مقطعاً مقطعاً وراء المنشدين ، ثم تبدأ حركات الذكر من جديد .

أما فى تابورا حيث يقام الذكر كل أربعاء بين صلاتى المغرب والعشاء وفى المناسبات الخاصة ، فهم يجلسون ولا يقفون ، ويهتزون إلى الخلف وإلى الأمام كما لو كانوا يقرأون القرآن أو المولد .

وهناك نوعان من الإجازة أو الرخصة لجميع الطرق : إجازة الإرادة أى الترخيص بضم المريد ، وإجازة التبرك ، وهى الاذن الذى يربطه ببركات الشيخ .

والطقوس الخاصة بضم المريد فى تابورا تقام فى المكان المخصص لإقامة الذكر Zawiyani ، فيتوضأ المريد أولا ويصلى ركعتين ، ويمسك الخليفة بكوب من الماء وعسل النحل قيل إنه للتعبير عن التطهر الداخلى ، ويتلو بعض الأدعية ، ويأخذ المريد من يده ويواجهه مع ضغط أفخاذهما معاً ويأمره أن يغمض عينيه ويشرب الماء ثم يطلب منه أن يتلو قسم الولاء أو عهد البيعة ويداه مضمومتان ، وبعد ذلك يبصره الخليفة بواجباته التى عليه القيام بها (مثل الصلاة تأتى قبل الذكر كواجب لا مفر منه) ، ويعطيه بعض الأذكار لتلاوتها بعد إحدى الصلوات الخمس اليومية أو بعد أكثر من واحدة من تلك الصلوات .

القادرية أو الجيلانية : ويقول أتباعها أن هذه الطريقة قدمت أصلا من باراو على الساحل الصومالى بواسطة السيد عمر القالينى المدفون فى ويليزو Welezo على بعد أربعة أميال من مدينة زنجبار ، وفى ذكراه التى يحتفل بها احتفالات كبيرة ، يرتل المريدون آيات من القرآن ويقضون الليل بطوله فى الذكر ، ولهذه الطائفة فروع كثيرة أحدها تابع لشيخ يسمى الشيخ شورى ، مدفون فى دونجى Donge على مسافة واحد وعشرين ميلا من زنجبار . وأهالى الشمال حتى جزيرة تومباتو ينتمون إلى هذا الفرع الذى يسمى « الكيرامة » ، وفى احتفال المبايعة يجلس المريد بعد أن يصلى ركعتين ، فى مواجهة الشيخ وتتلامس أفخاذهما ويداه مضمومتان ويقرأ الفاتحة على روح النبى (صلعم) وروح « عبد القادر » وغيره من أعضاء السلسلة ، ثم يملى الشيخ عليه أدعية فى طلب مغفرة الله ، ويشهده أن العهد الذى يأخذه هو عهد الله ورسوله ، وأن يد الشيخ هى يد « عبد القادر » ويتعهد المريد بأنه سوف يتلو الذكر حسب تعليمات الشيخ ، وبعد ذلك يدعو الشيخ فى صمت « يا واحد ، يا عال ، انفخ فىّ من روحك » ثم يتلو آيات المبايعة وكلمات التوحيد ثلاث مرات ، وبعد أن يقسم المريد على قبوله كافة الشروط ، يخاطبه قائلا « إننى قبلتك وأنت ولدى » وبعد صلاة أخرى لقبول المريد فى الطائفة ، يعطيه الشيخ كوبا من الماء ليشرب منه (ماء صاف أو محلى) أو كوباً من الزيت ، وينتهى الاحتفال بإعطاء المريد الأذكار الخاصة به ثم بصلاة الختام . أما الخلفاء فيقبلون بعد أن يقسموا يمين الولاء ويقرأوا بعض التسابيح ثم يُعطون الرخصة التى توضح سلطانهم ، وهى قبول المريدين والأعضـــاء الجدد ، وقيادة الذكر والكتب المصرح له بتدريسها .

وفى مناطق متعددة تقام الأذكار فى المساجد وفى مناطق أخرى يقابل

مثل هذا العمل بالدهشة ، وفى أوجيجى تجتمع مجموعات مختلفة للذكر فى مساجد الجمعه بعد صلاة الجماعه وعادة ما يتم ذلك فى وقت واحد ، ويشكلون حلقة يتوسطها الخليفة يحيط به ست أو سبع منشدين ويتحلق الذاكرون الحلقة الخارجية ، والقصـــائد المغناة كلها باللغة العربية ، ويجب أن نضيف هنا أن تلك القصائد فى الغالبية العظمى من الحالات مكتوبة فى صيغ مختلفة من التعازيم والرقى ، وعدم فهم مضمون تلك القصائد لا أهمية له لأنهم يؤمنون بأن كل هذا الذى يفعلونه ، إنما يفعلونه لتمجيد الله .

وفى زنجبار ينشد القادريون أولا مولد البرزنجى فيقوم أفراد الطريقة بالتناوب بقراءة فصل أو فصلين منه ، ثم ينشد المنشدون قصيدة أو اثنتين ، وبعد ذلك يبدأ الذكر ، ويردد الحاضرون كلمة « الله » مع إنشاد القصيدة . والقادريون يقومون بحركاتهم جميعها وأقدامهم تلامس الأرض بخـــلاف الطريقة الشاذلية التى يقفز أفرادها عند الذكر . وعلى طول الساحل ، كثيراً ما يتغنون فى اذكارهم باغان سواحيلية ، وفى تابورا يبدأون جلوساً يستمعون إلى آيات من القرآن الكريم ، ويتبع ذلك الصلاة على النبى المأخوذة من «دلائل الخيرات » وبعدها يقفون للذكر نفسه .

وقد ثار جدل كثير حول استعمال الأعلام والآلات الموسيقية والطبول ، والقادريون هم وحدهم الذين يستعملون الاعلام ، وينظر المتعصبون إلى الطبول بالذات نظرة شك ، ذلك أنها ارتبطت فى أذهانهم بالطبول والرقصات الأفريقية وإرتباطها بعادات الأرواح ، وهى لا تستعمل فعلا فى زنجبار ولكنها موجودة فى أوغندا وبين قبائل الياو فى جنوبها ، وإستعمالها محل خلاف كبير بين الأفارقة فالبعض منهم من الذين يحبذون إستعمالها لا يستطيعون أن يدركوا السبب الذى من أجله يعارضها رجال الدين أو يقتنعوا به ، وكل الذى يعرفونه هو أن

رجال الدين يقفون فى وجه شعيرة من أحب الشعائر إلى قلوبهم وهى دق الطبول ، مثل هذه المواقف من رجال الدين — المسلمون منهم والمسيحيون — هى التى تدعو الأفارقة أحياناً إلى عدم تقدير الديانتين والنظر إليهما بعين بعيدة عن الإيمان العميق .

وتقوم القادرية على «سر الأسرار ونزهة الأنوار» لعبد القادر ، «والفوائد الربانية فى المآثر والأدوار القادرية » لإسماعيل بن سعيد ، وقد كتب شيخ من زنجبار يدعى حسن بن أمير الشيرازى من بين ما ألف ، كتاباً اسمه « العقد العقيان على مولد الجيلانى » وهو كتاب مستعمل كثيراً ، ويحتفل أفراد الطريقة بذكرى مؤسسها بالسير فى مواكب خاصة وبالإنشاد والاذكار .

الرفاعية : نشأت هذه الطريقة فى زنجبار وبعض المناطق الساحلية ، وهى الطريقة الوحيدة التى تسمح بالطبول وباستعمالها كما يغنون قصائد كثيرة باللغة السواحيلية أكثر من أى طريقة أخرى ، وفى الذكر الذى يمكن أن يصبح عنيفاً جداً ، يسمح للنساء بالحضور من وراء حاجز أو ستار وفيه يمارسون بعض الأعمال الرفاعية الخاصة فيغرسون آلات حادة فى أجسامهم ويبتلعون النار ويروضون الثعابين . وكثير منهم يقسمون على عدم النوم فى شهر رمضان حتى لا تفوتهم ليلة القدر . وما يحدث فى ليالى الذكر يختلف باختلاف الخليفة ، ولكن الخطوط العريضة لا تختلف بصفة عامة ، فهم يكونون صفين يواجه كل منهما الآخر والخليفة فى المقدمة ويبدأ بتلاوة الفاتحة وبعض آيات من القرآن الكريم ، وبعد ذلك تترنم الجماعة « شىء لله » ، صرخة تضرع وإبتهال تتلوها الإستجابة بالغناء فى مديح أحمد الرفاعى بمصاحبة الطبول والدفوف . ثم يبدأون إنشاد الذكر فى كلمات أو جمل مثل « استغفر الله » وتغنى كذلك أغان سواحيلية عندما يكون المقصود هو إحداث أثر معين ، ذلك أن تلك

الأغانى وهى تشير إلى الحديد والحرارة والماء ، تعتبر رقى وتعازيم ضد الطعن بالآلات الحادة ، وعندما يصلون إلى الذروة يتقدم المريد الذى يكون فى تلك اللحظة فى حالة من الانجذاب والافتتان ، إلى الخليفة ، فان رأى هذا أن المريد قد أصبح بالفعل مستعداً ، فإنه يبصق على سيف أو دبوس (وهو آلة مدببة حادة لها مقبض) ويسلمه له .

العلوية : أنشأها محمد بن على بن محمد (توفى عام ١٢٥٥) وهى طريقة زنجبار ، ليس لعدد أفرادها وإنما لأن جميع المتدينين مرتبطون بها أو لهم علاقة معها ، نوع من الولاء ، بمعنى أنه يسمح لهم بتلاوة أوراد معينة خاصة بالطريقة. وهى طريقة آل جمال الليل فى لامو . وللعلوية خطان رئيسيان وليس فرعين ، هما « العيدروسية » التى أنشأها أبو بكر بن عبد الله العيدروس (توفى فى عدن عام ١٥٠٩) « والحدادية » التى أنشأها عبد الله بن علوى بن أحمد الحداد (توفى عام ١٧٢٠) . وكان عمر بن أحمد بن سميط هو أبرز العلويين فى زنجبار .

ويجتمعون لقراءة الأوراد جماعة فى المسجد خصوصاً بعد صلاة العشاء ، وكذلك فى المنازل ، وكثيراً مايحدث — على الأقل فى زنجبار — أن تكون هناك مجموعتان أو ثلاثة تقرأ الأوراد والأذكار فى المسجد فى وقت واحد ، وهم يستعملون الدفوف فى الموالد وأحياناً يضيفون إليها الطبول وآلات موسيقية أخرى .

الأحمدية — الادريسية : أنشأها أحمد بن أدريس (توفى عام ١٨٣٧) ، ولها شعبة تسمى « الصالحية » يتبعها بعض الصوماليين فى المقاطعة الشماليه من كينيا . والصالحية — الراشدية — أنشأها محمد صالح (١٨٤٥ — ١٩١٦) ابن أخ إبراهيم الراشد (توفى عام ١٨٧٤) تلميذ أحمد بن أدريس ، وهى

الطريقة التى كان ينتمى إليها الزعيم الصومالى محمد بن عبد الله حسن ، والشعبة الوحيدة الأخرى ، الموجودة فى شرق افرقيا لهذه الطريقة هى « الدندراوية » أو « الأندراوية » التى نشأت فى زنجبار والصومال وشمال كينيا وجزر القمر وعدد من المراكز الســـــاحلية ولـكنها ليست شائعة كثيراً . وكان منشؤها مصريا يدعى أحمد الدندراوى أحد مريدى إبراهيم الراشد ، وقد اعتاد تلميذه المصرى محمد بن حامد الذى عاش زمناً فى مكة ثم مات فى مصر ، أن يتردد على زنجبار حيث عين خليفة وأصبح له أتباع . وفى الذكر يبدأون جلوساً ثم يقفون فى صفين متواجهين ؛ وتحتوى اذكارهم على حركات من الطرق الأخرى، إلى أعلى وإلى أسفل وأقدامهم تلامس الأرض مثل القادرية ويحركون الرأس فوق أكتافهم إلى اليمين وإلى اليسار .

٧ ـــ المذاهب

لـكل من السنيين والشيعة أفـكار وتصورات مختلفة تماماً حول أساس المجتمع الإسلامى . فالأساس بالنسبة للسنيين هو الشريعة، القانون المنزه المعصوم، أما بالنسبة للشيعة فالأساس هو الامام ، الزعيم المنزه المعصوم !.. وهوأمرواضح بصورة خاصة لدى الاسماعيليين ، ذلك أن لهم إماماً حياً يرونه ، هو سلطتهم العليا وموقفهم تجاهه لا يبعد كثيراً عن التقديس .. والعبادة !

بعد وفاة الإمام السادس جعفر بن محمد الصادق عام ٧٦٥ ، بايعت مجموعة من اتباعه ابنه الأصغر موسى الـكاظم (المتوفى عام ٧٩٩) بينما رأى أتباعه الآخرون أن الوراثة يجب أن تمر بابنه الأكبر إسماعيل ، وبالتالى وبرغم أنه مات قبل والده فى عام ٧٦٠ / ٧٦١ فقد اعتبره اتباعه أمامهم المستور ، وعلى ذلك اعترفوا بابنه محمد كامامهم السابع ، ومن هنا ظهر الخطان الشـــيعيان الرئيسيان : « الاثنا عشرية » ، « والسبعية » وهم الذين يطلق عليهم بصو

عامة « الاسماعيلية » ومنذ لحظة الخلاف حتى وقتنا هـذا استمر خط ثورات الائمة فى هذا الفرع .. إلى إمامهم الحالى .

(١) الاثنا عشرية :

اتباع سلسلة من اثنى عشر اماماً آخرهم توفى عام ٨٧٨ ، ولـكنهم ينتظرون عودته ليقيم العدل فى الدنيا بعد أن ملئت ظلماً وجوراً . وفى نفس الوقت فان الإمام المستور أو المحتجب هو الذى يوجه ويصرف شئون هذا العالم، بينما المجتهدون والمفسرون لتلك العقيدة على الأرض يتصرفون باسمه وبتفويض من سلطته ، ولقد ساد هذا المذهب إيران منذ عهد الشاه إسماعيل الصفوى ، كما أنه موجود بصورة قوية فى العراق والهند ، ولـكن وجوده فى شرق افريقيا ليس بقوة المذهب الإسماعيلى ، ويقال أن هناك سبعة عشر ألفاً من الاثنى عشرية فى دول شرق أفريقيا الأربع (كينيا — أوغندا — تنجانيقا — الصومال) وهم أكثر عدداً من الإسماعيليين فى جنوب تنجانيقا ، وعدد كبير من الاثنى عشرية فى شرق أفريقيا كانوا من الاسماعيليين وتحولوا إلى هـذا المذهب ، كما أنه يوجد عدد منهم من إيران والبحرين .

وتتركز حياتهم حول المنبر الإمامى Imambara وهومبنى مخصص لاقامة الاحتفالات بشهر المحرم وغيرها من المناسبات الدينية ، وله غرفتان رئيسيتان احداهما عبارة عن مسجد له محراب داخلى ، والأخرى قاعة تسمى المجلس(١) مزودة بمنبر تلقى منه الخطب، وعادة ماتـكون هناك قاعتان للمجلس كل منهما لها منبرها الخاص ، احداهما للرجال وأخرى للنساء ، وذلك بالاضافة إلى مكان للوضوء ملحق بالمسجد ، كما يلحق به غرفة أو غرفتان للضيوف لاستقبال كبار

(١) كلمة Majlis تستعمل أيضا فى اجتماعاتهم الحزينة فى ذكرى فاجعة الحسين .

الفقهاء Mullah الزائرين ومطبخ لاستعمال هؤلاء الزوار ، ولاعـداد الطعام الذى يقدم إلى الجماعة فى المناسبات الخاصة ، كل ذلك يتوسط مساحة كبيرة من الأرض معدة لتشكيل المواكب والاحتفالات التى تتم فى العراء ، والتوابيت ونماذج الاضرحة التى تستخدم فى المواكب الدينية تحفظ فى هذا المبنى كذلك.

وتستضيف الجماعة فقهاء الاثنى عشرية القادمين من باكستان أثناء خدمتهم ، وقليل منهم يؤدون خدماتهم فى مكان واحـــد ويتنقلون عادة بين مراكز الطائفة حيث يقيمون أسابيع معدودة فى كل مركز ، وترتب زيارات خاصة لكبار القادة الدينين خصوصاً أثناء شهر المحرم ، كما أن الحج إلى أضرحة الأئمة فى العراق وإيران يعتبر عملا يثاب المرء عليه ، بينما الاسماعيليون ينظرون إليه على أنه أمر غير ضرورى ، فطالما أن لهم إماماً حياً يزورونه ويطلبون شفاعته فهم ليسوا فى حاجة إلى من مات من الأئمة !..

(ب) الاسماعيلية :

وتنقسم الاسماعيلية إلى قسمين أساسيين ؛ الغربيون أو المســتعليون والشرقيون أو النزاريون. ولقد حدث هذا الأنقسام فى نهاية القرن الحادى عشر حول من يخلف الخليفة الفاطمى المستنير المتوفى عام ١٠٩٤ م . فقائد جيش مصر بايع المستعلى إماماً ، بينما الشرقيون بزعامة حسن بن الصباح بايعوا أخاه الأكبر « نزار » ، فان من مبادئهم الهامة هو أن الامامة تذهب إلى الابن أو الحفيد الأكبر .

أولا : المستعليون .

ويعترفون بتتابع الأئمة مثل النزاريون حتى الامام الحادى والعشرين الطيب بن العامر الذى يعتقدون انه ذهب وراء الستر أو الحجاب فى عام ١١٤٢

وهو معتبر أمامهم الحالى فى القسم الذى يؤديه البهريون . ويمثله على الأرض « الداعى المطلق » الذى برغم أنه لايصل إلى قدسية الامام مثل الأغاخان لدى النزاريين، فهو على الأقل معصوم فى كل الأمور المتعلقة بقوانينهم وشريعتهم وبعد ذلك فإن المذاهب الفرعية تقوم إختلافاتها حول شرعية خلافة « الداعى المطلق » .

وظهر نشاط المستعليين فى اليمن مقر الداعى منذ نهاية القرن الحادى عشر ، ولقد وجدت دعوتهم نجاحاً كبيراً فى المناطق الهندية التى كانت مرتبطة بالجزيرة العربية عن طريق التجارة ، وظهر الإنشقاق فى عام ١٥٨٨ عندما إختار المستعليون فى الهند ـ وقد أصبحوا ذوى قوة ـ داود بن قطب شاه ، داعياً مطلقاً بينما أختار اليمنيون سليمان بن حسن ، المتوفى عام (١٥٩٦ — ١٥٩٧) ومع أن الداعى السليمانى « على بن الحسين » الذى مازال يعيش فى نجدان ، له ممثل فى الهند فى مدينة بارودا ، فلا يوجد سليمانيون فى شرق أفريقيا ، بينما الداوديون يوجدون فى جميع المراكز الرئيسية فى شرق أفريقيا ، والداعى الداودى الحادى والخمسون ، ويطلق عليه **Mullaji sahib** هو أبو محمد طاهر سيف الدين ، ويعيش فى بومباى ، وهم مجموعة من التجار يعرفون عادة فى شرق أفريقيا باسم « البهريين » . وهذا اللفظ **Bahoras** — وهو بالنسبة للهندوس يشير إلى طائفة — من المحتمل أن يكون قد أشتق من لفظ **Vyawahar** (بلغة الجيزوراتى بالهند) أى التجارة ، ولكن تراث البهريين يقوم على أنهم سموا كذلك لأنهم يتكونون من شيع ومذاهب متعددة **babu rah** ولكل جماعة محلية رئيسها الدينى ،وممثل الداعى يسمى« العميل» ويتم اعداده وتدريبه فى بومباى . والكتاب المعتمد للمستعليين هو « دعائم الإسلام » للقاضى نعمان ، وقد استوطن البهريون زنجبار فى مبدأ الأمر فى عام

١٧٤٨ حيث عمل الكثير منهم تجاراً للحديد وسمكرية وفى إصلاح الساعات ولهم صالاتهم الخاصة للاجتماعات تسمى Jamaat Khanas ، ومقـــابرهم وتقويمهم الخاص وهم مثل الاثنى عشرية يحافظون على الصلوات الخمس ولكنهم يؤدونها فى ثلاثة مناسبات فقط ، وليس لديهم صلاة خاصة يوم الجمعة .

ثانياً : الاسماعيليون الشرقيون أو النزاريون

بعد وفاة الإمام النزارى التاسع والعشرين شمس الدين محمد عام ١٣١٠ أو ١٣٢٠ انقسم أتباعه الى فريقين :

فريق تبع الابن الأصغر مؤمن شاه ، وأصبحوا يعرفون « بالمؤمنيـة » ويوجدون اليوم فى سوريا فقط فى مجموعات صغيرة .

والفريق الآخر تبع الابن الأكبر قاسم شاه .

ويهمنا هنا الفريق الثانى وهو الفريق الذين يتبع اليوم الإمام كريم ويعرف بأغاخان الذى تولى الإمامة عام ١٩٥٧ باعتباره الإمام التاسع والأربعين ويشار إليهم بصورة عامـة باسم Khojas (١) . والنزاريون أكثر المجتمعات الإسلامية تنظيما فى شرق أفريقيا، وتتركز حياتهم حول الإمام باعتباره زعيمهم

(١) والخوجا بصفة عامة كانوا طائفة من التجار الهندوكيين فى السند وكونشى تحولوا الى الاسلام اثناء حركة بيرصدر الدين الذى كان يبشر فى السند فى القرن الخامس عشر باسم الامام محمد بن اسلام شاه (١٤٢٤ ـ ١٤٦٤ م) ولقد تظاهر الخوجا الاسماعيليون فى منطقة بومباى تحت مذهب « التقية » ـ وهو تعبير شيعى يقضى باخفاء العقيدة الدينية عند اللزوم ـ بأنهم سنيون أو اثنا عشريون (وكان مسموحاً بها) حتى يتفادوا الاضطهاد ، ونتيجة لذلك التظاهر أصبح بعضهم فعلا سنيين أو اثنى عشريين، وجميعهم يشار اليهم « بخوجا » وبالتالى فان هذا اللفظ ليس محدداً بالنزاريين تماما، وجميعهم مازالوا يحفظون ببعض العادات الهندوسية فى الزواج والطلاق والدفن والميراث.

الأكبر . وقد أنشأ أغاخان الراحل فى إجتماع تم فى مدينة إفيان Evian (بسويسرا) فى يوليو عام ١٩٤٤ خمسة مجالس اقليمية لشرق أفريقيا ومجلساً إتحادياً فى ممباسا . ولكل مجتمع تنظيمه المحلى الذى يتركز فى الجامتخانا jam' at khana وهو مبنى يضم مجلساً يضم جميع الرجال البالغين ويتكون من موكزله وظائف متعددة ويشتمل إلى جانب قاعة المجلس وغرف المكاتب، على قاعة الصلاة وأحيانا قاعتين ومكتبة وصالة للقراءة ،وغرف للقاءات الإجتماعية، وكثير من تلك المبانى كبير جداً مصمم تصميما حسنا ، وليس فقط فى المدن ، بل حتى فى الأماكن الصغيرة جداً[1] .

والموظفان الرئيسيان لكل جامتخانا محلية هما أمين الصندوق Mukhi والمحاسب Kamaria وينتخبان بواسطه المجموعة المحلية ثم يتم تعيينهما بعد موافقة مجلس المقاطعة وهذا المجلس بدوره مسئول أمام المجلس الاقليمى ، والأعمال الرئيسية لها كما يتضح من وظيفتيهماهى جمع التبرعات وتشمل العشور المفروضة على كل أسرة ، وكذلك التبرعات التى تجمع فى مناسبات الولادة أو الزواج أو الوفاة ، وبرغم أن جميع هذه التبرعات موجهة أصلا إلى الامام إلا أنها لا توجه لمجرد إستعمالها فى نفقاته الشخصية ، بل تستعمل لصالح الجماعة ونفقات الجامتخانة نفسها وموظفيها وفى مساعدة الإسماعيليين على الدخول فى الأعمال التجارية أو إقامة منازلهم ، وفى نفس الوقت يزودون جمعية انعاش مسلمى شرق أفريقيا بالجزء الأكبر من المعونات . ولهم مدارس عديدة ولكنهم يخصصون لها من بينهم عدداً قليلا نسبيا من المدرسين لأن وظيفة التدريس

(١) فمثلا يوجد للاسماعيليين فى مقاطعة مبالى Mbale فى أوغندا ويبلغ عددهم ١١٥٠ فرداً فقط ، مجموعة من المبانى تضم الى جانب الجامتخانا ، مدرسة للاطفال ومدرسة إبتدائية وعيادة طبية ، وقد تكلفت اكثر من مائه الف جنيه أقامها افراد الطائفة المحليون بمساعدة الاعتمادات المركزية .

لا تجذب الكثير من شباب الطائفة إذا قورنت بالدخول فى ميدان الأعمال الحرة ، وهم يفضلون إستخدام المدرسين المسيحيين أو من المسلمين الغير شافعيين حيث يشعرون بقربهم الروحى منهم أكثر من قربهم للشافعيين .

والتأمل أهم معتقداتهم الروحية ،والفترة المخصصة له هى من الساعة الرابعة إلى الخامسة صباحاً[١] ويجب أن يتم التأمل فى الجامتخانا . وفى زنجبار يخصص جزء من قاعة الصلاة لهذا الغرض ولو أن ذلك ليس قاعدة عامة . وتأهيل رجال الدين منهم له درجات متعددة ولا يستند أساساً على دراسة معينة أو على معرفة تفسير القرآن ومعانيه ، بل يستند على مدى الخدمات التى يؤديها الرجل للامام، وتفسر الآن على أنها خدمات للجماعة . والمؤهلون فقط هم الذين يقومون بالتأمل ويصلون إلى ذلك بعد إتمام واجبات ثلاثة : ممارسة حياة خيرة طيبة ، تأدية العشور بانتظام ، وأداء الصلوات اليومية الثلاث : وهى صلاة الصبح فى الخامسة والربع صباحاً ، وصلاة المساء بعد غروب الشمس[٢] مباشرة يعقبها على الفور إغفاءة من النوم بعد إنشاد بعض التراتيم ، وهذا هو ما يسمى بالصلاة الثالثة . وتختلف توقيتات الصلاة بعض الشىء من مكان إلى مكان . فالتوقيت المذكور هو المتبع فى زنجبار ، أما فى دودوما (١٢٠٠ اسماعيلى) فتقام الصلاة الأولى فى الساعة السادسة وخمسة وأربعون دقيقة مساء تعقبها مباشرة التراتيم والنوم وهى

---

(١) لم اصدق عندما سمعت لاول مرة عن رجال اعمال يذهبون الى الجامتخانا فى الرابعة صباحاً للتأمل ، ولكن شكى لم يكن فى موضعه بعد أن استطعت التحقق من أن نسبة منهم فعلا تمارس تلك العقيدة ، ففى زنجبار رأيت حوالى الثلاثين أو الاربعين حاضرين وفى كيالا حيث صرح لهم وحدهم بالذهاب فى الخامسة صباحاً بدل الرابعة بسبب ضباب الصباح الكثيف، ارتفع عدد الى الحاضرين إلى ١٥٠ .

(٢) يستندون إلى الآية الكريمة « واقم الصلوة طرفى النهار وزلفاً من الليل ». صدق الله العظيم (المترجم) .

الصلاة الثانية ، أما صلاة الصبح فهى الصلاة الثالثة وتؤدى فى الساعة الخامسة والنصف صباحاً .

وتختلف مراسم الصلاة اختلافاً كبيراً عن تلك التى جاءت أصلا من الهند ، وظلت متبعة حتى عام ١٩٥٦ عندما دخلتها صيغة عربية تمشياً مع خط الإمام وسياسته فى التقرب للمسلمين الأفارقة . ويحوى كتاب الصلاة إلى جانب النص العربى نصاً مكتوباً بالحروف الرومانية والجيزوراتية (إحدى لغات الهند) وترجمة باللغة الانجليزية واللغة الجيزوراتية ويبدأ بالبسملة والفاتحة وتأكيد وحدانية الله، ولكن التركيزالمتكررفى الكتاب جميعاً هوعلى« على » والامام الحاضر الذى يسجدون لذكر إسمه ، كما جاء فى نهاية الدعاء التالى :

« يا على ، يا محمد ، يامحمد يا على .. يا امام الزمان يامولانا ، منك قوتى وأنت سندى وعليك اتكالى .. يا حاضر ياموجود فى كل الوجود ياسلطان محمد شاه الحسينى أنت الامام الحق المبين ، لذكرك السجود[1] » [سجود] . وتنتهى الصلاة بذكر الامام على وسلالته من أئمتهم وطلب شفاعتهم فيقولون : النهم بحق مولانا علىّ مولانا الحسين ، مولانا زين العابدين .. إلى آخر الأئمة فيقولون : وبحق مولانا وإمامنا الحاضر الموجود سلطان محمد شاه الحسينى ارحمنا واغفر لنا انك على كل شىء قدير ، والحمد لله رب العالمين (سجود)[2] .

والذى يرأس الاحتفال هو أمين الصندوق mukhi ولكنه يستطيع أن يختار شخصاً آخر سواه ، وفى بعض الأحيان يختار من الأطفال الذين يحفظون تلك الدعوات عن ظهر قلب من يقود الصلاة . وقاعة الصلاة بها ضريح عليه صورة الامام الحالى معلقة ومنثور فوقها وحولها الياسمين ، ويحرق أمامها

(١) اخذت الدعاء من النص العربى الوارد فى كتاب الصلوات نفسه (المترجم) .
(٢) مأخوذ أيضا من النص العربى فى كتاب الصلوات (المترجم) .

البخور وترص الأرائك حول الغرفة وتوضع فوقها العطايا المقدمة من الطعام والفاكهة التى تباع بعد ذلك فى المزاد لصالح صندوق الجماعة ، وفى أثناء الصلاة يجلس الرجال إلى اليسار والنساء يجلسن إلى اليمين .

ولا يعتبر الاحتفال بالزواج احتفالا دينياً ولكنه يتم فى مكتب «الجماعة» ويقوم أمين الصندوق بكل من الخدمات الدينية وعملية التسجيل ، ويقتصر الحضور على العريس وعروسه ووالديهما وأقرب أصدقائهما المقربين ولا يصرح «للجماعة» بالحضور طبقاً للقاعدة التى وضعها الإمام الراحل لتجنب زيادة الإنفاق ، وكذلك فإن لديهم قواعدهم الخاصة بالمهر وما يسمح به من نفقات أخرى . وفى شرق أفريقيا يتبع الاسماعيليون قواعدهم الهندوسية المعتادة فى التوارث ولم يتأثروا بأحكام التشريع الهندى الصادر عام ١٩٣٧ .

وللاسماعيليين مبشرون مدربون على شريعتهم الخاصة — لا يسمى المبشر الإسماعيلى الداعى المطلق مثل ما لدى المستعليين — ويقومون بالتنقل لزيارة الجماعات المحلية المختلفة من الاسماعيليين ويقضون أياماً أو أسابيع مع كل جماعة وينحصر عملهم بين الاسماعيليين فقط ولا يبشرون المسلمين الآخرين ، ولكن هذه القاعدة تتراخى فى بعض الأحيان ، فقد قام أحد الاسماعيليين فى منطقة موانزا بالدعاية بين بعض الوثنيين الافريقيين واستطاع أن يحول منهم حوالى العشرين . ويوجد عدد قليل من الأفريقيين والأوروبيين من المتصلين بالاسماعيليين سواء كخدم أو كمدرسين أو كتبة وموظفين تحولوا إلى المذهب الاسماعيلى . وفى أوغندا يوجد حوالى مائة وخمسين اسماعيلياً من الافريقيين كانوا قبل ذلك فى الأغلب ، وثنيين أو مسيحيين .

(حـ) مجموعات أخرى من المسلمين الهنود :

وتوجد فى شرق افريقيا مجموعات أخرى من المسلمين الهنود[1]، ولقد كان تحولهم الجماعى فى الماضى إلى الإسلام من الهندوسية سبباً فى احتفاظهم بملامحهم وعاداتهم الهندوكية مما جعل تلك المجموعات — برغم كونها من السنيين فى الغالب — تعامل معاملة الطوائف أو المذاهب . ففى ممباسا وحدها مثلا يوجد إحدى عشر مجموعة مختلفة من المسلمين الآسيويين : النزاريون الاسماعيليون (٢٧٠٠) ، والاثنا عشرية (١٥٠٠) والبهرة الداوديون (٢٥٠٠) ، المأمونيون (٢٣٠٠) ، البهادالا (١٠٥٠) لوهار وادها (١٠٠٠) ، سورتى خليفة (٦٠٠) ، خومباهار (٣٠٠) ، كوكنى (٣٠٠) ، ساماترى (١٧٠) ، بالوتشى (٤٠٠) .

ويكفى أن نشير هنا إلى المأمونيين الكوتشيين وهم من سلالة هندوسية وبعد قبولهم الإسلام كدين لهم احتفظوا بالقانون والعادات الهندوسية الخاصة بالميراث وغيره وقد أخضعتهم التشريعات الهندية المتتابعة عام ١٩٢٠، ١٩٣٧، ١٩٣٨ للقانون الحنفى الذى قبله المأمونيون فى شرق أفريقيا ، ولكنهم لا يزالون يشكلون مجتمعاً إسلامياً متميزاً بعاداتهم الخاصة وصلواتهم فى مساجدهم منفصلين عن المسلمين السنيين الآخرين .

ومن المجموعات الشيعية الأخرى مثل الزيدية والسليمانية اليمنيين نجد أفراداً قلائل فى شرق أفريقيا لا يكفى عددهم لكى نعتبرهم مجموعات .

(د) الأحمدية :

وبخلاف الشيعة يوجد مذهب آخر له نشاطه فى شرق أفريقيا هو «الأحمدية»

---

(١) يطلق على الهندوس أسم ma Banyani للتمييز بينهم وبين المسلمين الهنود الذين يطلق عليهم Wa Hindi . ويكون الهندوس مجموعات طائفية وتختلف حياتهم جميعاً عن حياة المسلمين الذين يعتبرونهم كافرين .

الذى ينادى بميرزا غلام أحمد ، كمسيح ومهدى ، ومركزه الرئيسى فى الوقت الحاضر فى رابواه فى باكستان . وقد وصل المبشر الأول لهذا المذهب ، مبارك أحمد ، إلى ممباسا عام ١٩٣٤ ، فلما وجد عدم ملاءمة المحيط العام فيها لدعوته واستحالة الدعاية لها ، استقر فى تابورا فى العام التالى ، وكان ذلك عكس ما حدث فى غرب أفريقيا حيث وجد الأحمديون المسلمين الجدد واستطاعوا أن يجتذبوا إليهم عدداً لا بأس به من الأتباع لهذا المذهب بين قبائل الفانتى Fanti . وفى تابورا أقيمت مدرسة فى عام ١٩٣٧ اعانتها الحكومة فى العام التالى . ولما اكتشف المسلمون أن الأحمدية بدعة وضلال ، وأن الأحمديين مارقون ، لم يجدوا وسيلة لمعارضة هذا المذهب سوى إغلاق المدرسة مما شكل نكسة للنشاط الثقافى له . وإلى اليوم لا يوجد له سوى عدد قليل من المدارس(١) . ولكن مبارك أحمد واصل عمله بين « المسلمين الوثنيين » واستطاع أن يجذب مجموعة صغيرة من الأتباع وفى عام ١٩٤٢ أقام مسجداً ذا مئذنة على الطراز الشرقى بمساعدة أسرى الحرب الايطاليين الذين أمدته الحكومة بهم .

وتزايدت الدعاية لهذا المذهب بوصول المزيد من المبشرين الباكستانيين أثناء الحرب ممن كانوا معينين فى مناطق أخرى ، ومنذ ذلك الوقت استمر هذا المد من المبشرين ثم تزايد . أما فى زنجبار وغيرها من مناطق الساحل فقد واجه المبشرون معارضة شديدة ، فالتركيز حول شخص النبى (صلعم) فى شرق أفريقيا جعل الدعوة الأحمدية ملعونة بالنسبة للمسلمين ، وعندما توجه إثنان من الأحمديين إلى جزر القمر لم يستغرق سكان الجزر وقتاً طويلا فى اكتشاف أنهما مارقان فقاطعوهما مقاطعة تامة ورفضوا أن يبيعوهما حتى الطعام

---

(١) ضغط المسلمون على الحكومة لفتح مدارس إسلامية . وفى عام ١٩٥٦ أرسلوا احتجاجاً إلى مجلس الوصاية انتقدوا فيه سياسة الحكومة .

أو أن يدخلوا معهما فى أى نوع من أنواع التعامل واضطروهما بذلك إلى الرحيل (١) .

ونجحت الدعاية الأحمدية فقط بين المسلمين الذين يؤمنون بتقمص الأرواح والذين انفصلوا عن قبائلهم وانتشروا فى المدن الكبرى ، وتوجد الآن مساجد للأحمدية فى نيروبى — وهى المركز الإقليمى فى الوقت الحاضر للطائفة — وفى دار السلام وفى كمبالا وممباسا وكيسومو وچنجا وأماكن قليلة أخرى . ولقد حققوا نجاحاً فى المقطاعات أكبر من الذى لقوه فى المدن حيث كان الإسلام قد اتخذ طابعه واستقر . فمثلا فى منطقة تابورا يوجد حوالى ١٠٠٠ أحمدى ولكن فى المدينة نفسها (تابورا) حيث بدأ التبشير منها للأحمدية فى المنطقة ، فلا يوجد سوى عدد قليل جداً . ومع أن السنيين يكرهونهم أشد الكراهية إلا أنهم لا يقابلون فى الوقت الحاضر كثيراً من المعارضة المباشرة ، ذلك أن نشاطهم التبشيرى قد فشل تماماً عدا بين الذين أسلموا إسلاماً سطحياً .

ولا يمكن مع ذلك قياس تأثير الأحمدية بمقياس عددى فقط ، فإن آثار دعايتهم تفوق كثيراً ما تدل عليه أعدادهم الصغيرة أو ما تحصل عليه تلك الأعداد نتيجة لدعايتهم الشفهية التهجمية . فالتبشير الذى يقومون به والمواد التى يقدمونها يثيران الجدل والمناقشة ، والافريقيون المسيحيون مثلا قد بدأوا يتأثرون بوجودهم بسبب هجماتهم وضعف تمثيل المسيحية ، وهم يستعملون اللغتين

---

(١) قيل لى أن تسعة أحمديين ، باكستانيان وسبعة أفارقة ، جاءوا الى ليندى واستطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى غيبة شيخ ليندى محمد يوسف وتزوج الأفارقة السبعة من نساء ليندى . وعندما عاد الشيخ رفض الأحمدية وأعلنهم كافرين ، وبالتالى أشهر عدم صحة زواج نساء ليندى الذى تم بهم . وأحيل الأمر الى السلطات وأخذ ينتقل من مرحلة الى مرحلة وانتهى الى أن نفضت الحكومة أيديها منه تحت ذريعة عدم التدخل فى الشئون الدينية والنتيجة أنه لا يوجد أحمدى واحد فى ليندى ولم يسمح لهم بقطعة أرض لبناء مسجد فوقها مع أنهم أقاموا مساجد فى نفس المقاطعة فى متاما mtama وميلنجويو Mlingoyo .

السواحيلية والانجليزية فى دعاياتهم وهما اللغتان اللتان يمكن استعمالهما فى أنحاء المنطقة جميعاً ولـكنهم أيضاً يستفيدون من اللهجات المحلية كوسيلة للتفـاهم مع الأهالى .

ولقد أثارت ترجمتهم السواحيلية للقرآن جدلا كبيراً وهى التى بدأها مبارك أحمد عام ١٩٣٦ بمساعدة أحد السواحيليين ونشرت عام ١٩٥٣ فى أعمدة متوازية مع النص العربى وتعليق غزيرفيّاض . وهوجمت تلك الترجمة هجوماً شديداً وعنيفاً بواسطة الفقهاء السواحيليين لأنها مليئة بالأخطاء التى انحرفت بالقرآن نحو تأييد ادعاءات أحمد ونظرياته ،.وقام عدد من هؤلاء الفقهاء بنشر بعض الـكتيبات ضدها ، فرد عليها أحمد بدوره . وكانت تلك الترجمة هى التى حفزت عبد الله صالح الفارسى على أن يبدأ ترجمة أصيلة برغم أن مجرد فـكرة ترجمة النص المقدس تتعارض مع جميع المبادىء الإسلامية الحقيقية[1] . كما أن ترجمة أحمدية إلى اللغة اللوجاندية تنشر فى أجزاء ، وغيرها من التراجم إلى الـكيكويو والـكامبا واللوو ، إما قد نشرت فعـلا وإما هى فى الطريق إلى الأعداد .

وتتداول كتب الأحمدية الأخرى وكتيباتهم ومطبوعاتهم الدورية على نطاق واسع وأشهرها المجلة الشهرية التى تصدر باللغة الســـــواحيلية باسم

---

(١) أخذت تلك الترجمة تظهر فى أجزاء منذ عام ١٩٥٦ وقد ظهر حتى الآن إثنا عشر جزءاً من ثلاثين ويسمى النص السواحيلى فى أعمـدة متوازية مع النص العربى Tafsiri wa Korani أى تفسير القرآن لأنه هو نفسه لايمكن ترجمته ، ولا يقارن توزيعها بتوزيع ترجمة الأحمديين . والمدهش أنها غير معروفة تقريباً خارج زنجبار ذلك أن المشايخ لايشجعون تداولها لـكى يحافظوا على امتيازهم باعتبارهم هم وحدهم أساتذة الـكتاب المنزل. واعتذر كثير من المسلمين لاستعمالهم الترجمة الأحمدية بأنهم كانوا يجهلون وجود هذا التفسير الحقيقى ، وهى من النادر وجودها فى محلات بيع الـكتب . هذا وقد نشرت جمعية إنعاش مسلمى شرق أفريقيا خمس سور من القرآن فى لوجانداء

« حب الله » Mapenzi wa mungu التى بدأها مبارك أحمد ومازالت تصدر حتى الآن ، وفى عام ١٩٥٧ أنشأوا جريدة باللغة الانجليزية إسمها The East African Times تصدر كل أسبوعين، وهى أيضاً تلقى رواجاً وتداولا كبيراً وتوجد جريدة أخرى تصدر باللوجاندية تسمى Dobozi Lyobuislam « صوت الإسلام » .

وتقوم بعثاتهم التبشيرية أساساً على الباكستانيين الذين تلقوا إعدادهم فى رابواه إلا أن عدد المبشرين الأفريقيين آخذ فى التزايد بتدريب المزيد منهم فى كلية الدعاية (الطريق الجديد) بمدينة رابواه ، ولهم أيضاً مدرسة تأهيل فى دارالسلام لإعداد المبشرين الافريقيين ، إلا أنها تدرب الأنصار والمشايعين العاديين وليس المبشرين المحترفين ، ويتمسكون بشدة بالخط الأحمدى المعترف به فى الدعاية وهو « التبليغ » .

ويدفعهم موقفهم بصورة عامة إلى عزلة اجتماعية ودينية ، فهم ينادون بأنهم جماعة جديدة وأنهم لا يؤدون الصلاة وراء أى إمام إلا أن يكون أحمدياً ، ولا يتزوجون إلا بأحمدية ، ومع ذلك فانهم يغمضون أعينهم أحياناً عن تلك القاعدة ليسمحوا للأحمديين بالزواج بغير احمديات ، ودعايتهم بطبيعتها وروحها التبشيرية التى لا تقبل غيرها من المذاهب تثير معارضة كل من المسلمين والمسيحيين على السواء ، والسنيون لا يتعاونون معهم وهم غير ممثلين فى الجمعيات الإسلامية المختلفة باستثناء « جماعة مسلمى كينيا » .

وللأحمدية فى شرق افريقيا تنظيم واحد مركزه الرئيسى فى نيروبى برئاسة الأمير مبارك أحمد وهو مسئول أمام الخليفة فى رابواه برغم أن العمل فى هذه المنطقة يخضع لتنظيم منفصل ، وقد وضع دستورهم فى عام ١٩٥٣ فقط عندما طلبت الحكومة الكينية — بسبب ثورة الماو ماو — من جميع المنظمات والهيئات أن تضع لها دستوراً وتسجله .

الفصل الرابع
عقائد عامة

١ — العقيدة الشعبية :

ينصب بحثنا على السواحيليين ولا سيما الشيرازيون ، ذلك لأنهم هم السكان الأصليون فى كل من بمبا وزنجبار ، ولأنه بين السواحيليين فقط توجد ثقافة إسلامية افريقية متكاملة . أما مسلمو الداخل فما زالوا فى مرحلة مبكرة من مراحل التغير والتحول .

وفى الميدان الدينى يمكننا تمييز أربعة أنواع من الفرائض والمعتقدات :

الأول : الإسلام بمعناه الدقيق المحدد الخالى من شوائب السحر أو الاعتقاد فى التقمص .

الثانى : الطقوس القبلية :

(ا) عادات السلف التقليدية المتعلقة بالأرواح .

(ب) الفرائض الداخلة فى « شعائر الانتقال » (الميلاد والزواج والوفاة) التى قد تدخل فيها عادات شبه عائلية مثل المزاح ورابطة الصداقة بين الفتاة ومستشارها الأمين ، وهى عادات تظهر فى مناسبات الاحتفالات .

الثالث : التقمص : عبادة الأرواح وتشمل عناصر إسلامية مثل المعتقدات فى الجان .

الرابع : السحر : ويلقى إقبالا شديداً وتنتقل عدواه بسرعة :

(ا) الأوجانجا المحلية أو الأهلية Uganga .

(ب) السحر فى الإسلام وهو العلم بالتعاويذ الشفهية والمكتوبة وبفن كتابتها وإتيان الأعمال الخارقة .

وظاهرة التوازية واضحة فى الدين وضوحها فى ميادين الحياة الأخرى ، وطبيعة الزراع الكامنة فى الشيرازيين نتيجة لثقافتهم التقليدية مابرحت فى غنفوانها[1] ، ويمكننا أن نتخيل أن التركيز عليها فى الماضى كان بمثابة رد الفعل تجاه تحولهم الى الإسلام ولقد كان هذا التركيز واضحاً بصورة خاصة فى الميدان الدينى ، فالمعتقدات والفرائض المتصلة بالأرواح ، هى معتقدات وفرائض قوية وملتصقة بطبيعتهم الشيرازية . ولقد كان عليهم وقد جابههم ضغط ثقافة دخيلة قوية أن يتمسكوا ببعض ما كان لديهم من معتقداتهم الدينية للدلالة على تشبثهم بذاتيتهم الخاصة ، وذلك برغم أن هذه المعتقدات لم تبق كما كانت بل تطورت إلى صور جديدة ولم يعد ينظر إليها على أنها تتعارض مع الإسلام ، كما لا تعتبر مثيلتها فى الدين المسيحى ، معارضة للمسيحية ، ففى المجتمعات الأفريقية الإسلامية القائمة لا يوجد تصارع بين العقيدة والعادات المتبعة، بل يسيران جنباً الى جنب متوازيان، وكلاهما جزء يكمل الثقافة السواحيلية، وعلى الزراع المحافظة على علاقاتهم التقليدية بالأرض ، ذلك لأن الإسلام فى الداخل لم يقم على أسس ريفية ، فبقيت الشعائر المتعلقة بالدورة الزراعية وخصوبة

---

(١) وأصل تلك الطبيعة ليس مهماً فى الواقع وإنما المهم هو أن تلك الطبيعة تمكنهم من تأكيد تراث البانتو لديهم أكثر من تراثهم الآسيوى. فالعناصر الإسلامية الأسيوية من المناطق المختلفة تركت آثاراً قليلة متباينة مثل النيروز ، وحتى فى هذا فإن عادة البانتو فى استعطاف واسترضاء الأرواح هى الأهم . ومازالت خافيتهم الدينية القديمة موجودة فى صورتها الأولى الغير معدلة بين قبائل النييكا كما أن المميزات العامة لها موجودة بين البانتو الآخرين .

الأرض ، على ما هى عليه ولم تتغير الا أن بعض عناصرها قد تعدل ، وبعضها الآخر اختلف قليلا عن شعائر زملائهم الوثنيين ، فالصلاة لله قد امتزجت بالنذور للارواح التى تعتبر أيضاًمن عبيده ولكنها فى مكانة أفضل من مكانة البشر للاتصال به ، أماقوة الله وسيادته سبحانهفهى أمر لاجدال حوله . والخط الفاصل بين الاثنين لا يمكن تحديده أو القطع به ومع ذلك فلا يوجد زعيم دينى واحد يؤيد أو يبرر عقيدة الأرواح المتقمصة مهما كانت الأسس الإسلامية التى تقوم عليها تلك العقيدة[1] ، والإسلام كثقافة دينية يحتوى بطبيعة الحال على ثروة فى هذا الميدان — ميدان عناصر ما وراء الحاجز — ولكنها تسير فقط فى المجال الضيق للسحر الذى سمح الإسلام به .

ولقد احتفظت الشعائر المحلية — المعدلة — بقوتها بين المجتمعات السواحيلية بسبب عدم اطمئنانها إلى الحياة فما برح القحط والمجاعة والأوبئة والأمراض من العناصر العادية التى تصارعها . وهناك شعائر جماعية يبسطون بواسطتها ما يقلقهم أو يهددهم أمام تلك « القوى الخارقة » ، وشعائر أخرى فردية فى عقيدة التقمص الهدف منها هو الهدوء والاستقرار النفسى للفرد . والشعائر الجماعية — فى بعض أوجهها — آخذة اليوم فى الإختفاء لأن الحياة أصبحت أكثر أمنا من ناحية المجاعات وغيرها ، ومع ذلك لوحظ فى ساحل كينيا عام ١٩٦١ وقت توالى القحط والفيضانات أن الشعائر الجماعية هذه قد انتعشت إنتعاشاً كبيراً . وفى الوقت نفسه ترتب عن القلق الذى ابرزته الحضارة الحديثة

---

(١) يوجد نص شعرى وترجمته للشيخ محى الدين ، قاضى زنجبار (توفى عام ١٨٦٩) يستنكر فيه عقيدة تقمص الأرواح . « القاموس السواحيلى » للاستاذ ساسلو ص ١١٠٨ — ١١١٢ وكتاب ليندون هاريس « الشعر السواحيلى » ص ٢٢٦ — ٣٣

إنبعاث خوف شديد من أعمال السحر والشعوذة ، وبالتالى إنتعشت مهنة السحرة بسبب اقبال الناس على استرضائهم واتقاء شرورهم .

ويمكن تقسيم ممارسيها إلى خمسة أنواع رئيسية :

(ا) المعلم ويقوم بدور المعالج .

(ب) المجانجا Mganga وهو المعالج عند البانتو ، وضارب الحصى أو العراف .

(ح) المفيالى Mvvale وهو كاهن المنطقة .

وهؤلاء الثلاثة مقبولون إجتماعياً . أما النوعان الباقيان فهما منبوذان ملعونان :

(د) المواتجا Mwanga أو الساحر .

(ه) المشاوى Mchawi وهو المشعوذ .

ولا تتطلب عقيدة السلف إعداداً خاصاً للممارسين، فمن الممكن أن يكون كبير الحى أو العائلة هو المعالج أو العراف مثلا ، إلا أنه من الأفضل أن يحدد نوع الممارس بالوظيفة التى يقوم بها ، ومن الممكن أن يقوم شخص واحد بوظيفتين أو أكثر ، فالمعالج مثلا يمكن إستخدام قدرته فى ممارسة كل من السحر الأبيض Uganga والسحر الأسود Uchawi ، كما أنه يمكن أن يكون عضواً فى طائفة من طوائف السحر ، كذلك فان السحر الأبيض تمكن ممارسته بواسطة المجانجا (المعالج عند البانتو) أو المعلم ، فالأول يستخدم فى ذلك السحر التقليدى ، والثانى يستخدم السحر الإسلامى .

٢ — عقيدة الروح .

لا يتعارض الاعتقاد فى الروح مع العقيدة الإسلامية التى ذكرت الأرواح

فى صورة الجن والملائـكة . اما الذى يعتبر محل جدل فهو بعض صور واشكال العلاقات بالروح خصوصاً مايؤدى منها إلى التعارض مع قدرة الله ، ويقتضى بحثنا إعطاء صورة عامة للعقائد المتنوعة فى الروح لإختلافها فى تفاصيلها بين المجموعات السواحيلية فى الأماكن المختلفة .

وتنقسم عقيدة الروح إلى ثلاثة مجموعات رئيسـية : أرواح الطبيعة Mizimu ، وأرواح السلف ، والأرواح المتقمصة pepo ، ثم تأتى بعد ذلك المجموعة الرابعة وهى الأرواح الإسلامية لـكن لا يمـكن إعتبارها عقيدة .

ولاتدخل الأرواح الإسلامية تماماً ضمن العقائد الروحية القائمة ، فالجان Majini يقيمون فى الأرض وفى البحر ، وذوو الأسماء منهم يدخلون ضمن مجموعة الأرواح المتقمصة pepo . وهناك لبس واضح بين الجان والشياطين Mashaitani الذين يعتبرون فى بعض الأماكن طبقة من الأرواح المحـايدة تعيش على الأرض تتقمص الصخور أو الأشجار وما شابه ذلك وهى إما ان تـكون من أرواح السلف wazimu أو من الأرواح المتقمصة تبعاً لطريقة ظهورها ، كما أن الملائـكة تعتبر أرواحاً .

ومن المـمكن أن تظهر الأرواح جميعاً أنواعاً من الشرور إلاأن الأرواح الشريرة تتمثل فى الأبالسة فقط bilisi وهو اللفظ الذى يطلق على الشيطـان الذى نعرفه وتتخذ لنفسها سكناً فى بيت أو فى إنسان تتقمصه ، وفى كلتـا الحالتين ، لابد من طردها وإبعادها والتخلص منها اتقاء لشرها .

ا — عقيدة الموتى :

استمرت عقائد الاسلاف التقليدية بصورة أو بأخرى باقية بين المسلمين

الذين تحولوا إلى الإسلام خلال المائة عام الأخيرة ولم ينفصلوا عن قبائلهم ،وهى أيضاً موجودة بصورة ضعيفة بين السواحيليين عدا منهم من يعيش فى المدن .

ويبدو أن تلك العقيدة إختفت فى غرب أفريقيا بمعدل أسرع من اختفائها بين البانتو فى شرق أفريقيا ، وهى هنا أيضاً فى طريقها إلى الاختفاء إلى حد ما فى الداخل لكنها ما انفكت قائمة ، ذلك لأن معظم الزراع يحتاجون إلى الاحتفاظ بشجرة العائلة والسلف ، وقد أكد العديد من المسلمين دون ما حرج أنهم يمارسون شعيرة استرضاء أسلافهم فى صورة القرابين والولائم التى يعتبرونها صدقة يقيمونها فى ذكراهم فى نهاية فترات الحداد أو فى بعض المناسبات الخاصة مثل ظهور أحد المتوفين فى حلم أو فى أى مرحلة من المراحل الحرجة من حياة القبيلة ويسألون أرواح اسلافهم أن تتشفع لهم عند الله ويؤدون إلى جانبها الصلاة الإسلامية ولا يتركونها فيؤكدون بذلك إيمانهم بالله وبوحدانيته كما يؤكدون وحدة القبيلة وتماسكها[1] . والمسلمون من الديجو بلا استثناء تقريباً يقدمون القرابين على قبور العائلة وفى قرى أسلافهم ومستوطناتهم الاصلية التى توجد الآن فى غابات يكاد يكون الوصول إليها مستحيلا تحت إشراف حارس يسمونه « سيد الأرض » mwana—ti . وفى الأماكن التى يقطنون فيها توجد المقابر mbira فى مجموعات ، وتميز مقابر الرجال بحجر واحد ومقابر النساء بثلاثة أحجار تعبر عن الأحجار التى يستعملنها كمواقد للطهو ، وكثيراً ماتقام ظلالات فوق مقابر الرجال وتظل بلا حراسة إلى أن تعبر روح المتوفى عن عدم رضائها عن ذلك .

وتتخذ تلك الشعائر بين السواحيليين من غير سكان المدن صورة تقديم

(١) توجد لدى مجموعة من النياموبزى عادة اقامة الولائم لتكريم الرسول (صلعم) اذا رآه احد فى أحلامه ومع ذلك فلايعرفون المولد حيث لايستطيع أن أحد منهم ترتيلها، ومثل تلك الولائم للنبى باعتباره جد المسلمين تعبر عن وحدة المجتمع المحلى .

النذور على مذبح الأرواح الاسلاف[1] ، وقد كتب المؤرخ « سعادة سليم بن عمر » يقول : « أنها عقيدة عامة بين كثير من الأفريقيين فى هذه المناطق أن الاستهتار أو التهـــاون فى أداء تلك الشعائر سيجعل أرواح السلف تحضر وتسبب المتاعب والأمراض فى العائلة المتهاونة[2] » .

وروح الشخص الميت تسمى Koma ، وهى تسكن عالم الروح Kizimu مع غيرهامن أرواح الاسلاف ولكنها تزور قبر صاحبها وهى تظهر لأحدأفراد العائلة فى حلم وتعطيه الأوامر حول نوع الضحية المطلوبة لتفادى المشاكل ، وكثيراً ما يشار إلى تلك الروح Koma بلفظ Mzimu [3] نسبة إلى المكان الذى يمكن أن تستحضر فيه أرواح السلف أو أى رجل مات وتقام فيـــه الصلاة وتوضع النذور للأرواح ، وفى بعض الأحيـان يبنى الأقارب ظلالة صغيرة Kibanda لهذا الغرض وأحيانا أخرى تكون المقبرة نفسها تحت شجرة ظليلة كبيرة ، أو صخرة أو كهف أو أطلال قديمة . والواقع أنه إذا طالت عمليات النذور والقرابين وشاركت فيها الجماعة كلها فانه يأتى وقت يختلط الأمر فيـه

---

(١) Tupa Kafara mzimuni معناها تقديم النذور لاستعطاف ارواح الموتى أما Kugonya Koma فمعناها تقديم البخور على القبر وبخلاف صندوق البخور فإن النذور يحتوى على طعام أو فاكهة موضوعه فى غلاف جوزة هند وأشرطه من قماش ابيض تعلق بالقرب منها ، وقد جاءت عادة كل من البخور والاشرطة القطونة من عقيدة الاولياء فى الإسلام أما اذا استعمل لفظ Kafara فهو يشير عادة إلى تقديم ذبيحة لراحة أرواح السلف .

(٢) « الحياة السواحيلية » للاستاذ سعادة سليم بن عمر المنشور فى العدد التاسع من مذكرات ووثائق تنجانيقا ١٩٤٠ .

(٣) وقد يطلق عليها الاسمان معاً مثل التضرع الذى ينادى « انت يا كبير الظلال والأرواح Shebe la Koma na mizimu eti » .

ويصبح من الصعب التمييز بين ما إذا كانوا يستعطفون أرواح السلف أمانهم يقدمون القرابين بغية استرضاء أرواح الطبيعة بصورة عامة . وهناك أمر آخر ، وهو اذا استطاع ساحر ميت أن يظهر نفسه بعد موته فى بقعة معينة فان تلك البقعة تصبح مقدسة ذات طابع خاص .

وعادات المسلمين فى ذكرى موتاهم تقع على فترات من يوم الوفاة ، فى اليوم الثالث والسابع ويوم الاربعين ، وكذلك أثناء التسعة أيام الاولى من شهر ذى الحجة قبل العيد الكبير ، ويسمون الطعام الذى يؤكل فى هذه المناسبات malimati أى « ثروة الميت » وتسبق تلك الولائم التى يقرها الإسلام تلاوة من القرآن الكريم ، وفى حالات نادرة انشاد بعض الموالد ، وينظر إليها كما ينظر إلى ذكرى موالد الاولياء من حيث انها تساعد على راحة الروح المرتحلة عن طريق زيادة رصيدها فى السماء وبالتالى يكسبون عطفها وشفاعتها ويأمنون شرها ويتقون ما قد تسببه من متاعب !

(ب) عقيدة الروح المحلية :

وضمان عطف الارواح التى تقيم فى المنطقة أو الارواح المحلية وإتقاء شرها هو أمر ضرورى لجميع سكان المنطقة . وكل قرية من قرى الحاديميين بها مكان خاص للتضرع للارواح mizimu ، وهو مكان — مثلما فى حالة أرواح العائلة — للعبادة حيث تقدم النذور والعطاءات وتمتد التسمية من المكان لكى تطلق على الارواح نفسها ، وتلك المزارات معهود بها إلى كبير القرية للاشراف عليها باعتباره سيد الارض ويسمى Mvyale [1] وتتوارث هذا الإشراف عائلة واحدة وعادة ما تكون من سلالة أول قاطن فى المنطقة استطاع

---

(١) وعلى طول الساحل يسمى Mzale :

أن يروض أرواحها ويصبح صديقها وعلى وفاق معها وبالتالى أصبح هو الوسيط فى الاتصال بهم .

وقد يكون المزار mizimu فى ظل شجرة أو صخرة أو فى غابة كثيفة أو فى كهف أو فى شق جبل أو فى أطلال أو فى كوخ خاص بالارواح ، ومهما كان الموقع فهو مكان للنذور حيث تعلق الاعلام ويقدم الطعام ويحرق البخور ،وينذر الافراد النذور للاطفال وشفاء المرضى وما شابه ذلك ،والزراع والصيادون سواء فى الغابات أو فى البحر ، يستعطفون الارواح ويسترضونها لحمايتهم وإنجاح رحلاتهم . وعقيدتهم الجماعية مرتبطة تماما بالسنة الزراعية ، وتتم احتفالاتهم ورقصاتهم فى المناسبات الخاصة بالزراعة مثل بذر البذور أو الحصاد أو فى نهاية السنة خصوصاً فى يومها الاخير kibunzi (١) ويكون التقرب إلى الروح عن طريق الوسيط mvyale الذى يطلب الأذن : « هل يمكننا الدخول أيتها الروح العظيمة ؟ أن الزوار قادمون »

(Hodi, watu wakubwa, wageni wana kuja)

أما الدعاء فاما أن يوجهوه الى الله عن طريق الارواح باعتبارها الشفيع لهم عنده ، واما انهم يبتهلون اليها مباشرة أن تقبل منهم الدعاء .

(ج) عقيدة الأرواح المتقمصة :

وتنمو هذه العقائد وتتطور فى المجتمعات الأفريقيـة عندما يأخذ النظام الدينى القديم فى التفتت بسبب احتكاكه بثقافات أجنبية ، وهى أشبه « بالزار » فى السودان النيلى « والبورى » فى شمال نيجيريا ، كذلك تشبه العقائد المنتشرة

(١) أنظر « Nairuzi » للاستاذ Sir John Gray فى العدد ٣٨ من مذكرات ووثائق تنجانيقا ص ٩ .

فى أمريكا اللاتينية ، والعقائد الافريقية الطبيعية هى عقائد جماعية ، ولكن الاتصال بالإسلام ثم بالثقافة الغربية نتج عنه ظهور الفردية وازدهارها ومعها القلق النفسى وعدم الاطمئنان ، والاندماج فى هذه العقيدة يساعد على تخفيف هذا الشعور بعدم الاطمئنان ، فهى تقوم بالتنفيس عن الطاقة وتطهيرها وهى تروق بصورة خاصة للنساء حيث كانت فرصهن للتعبير عن أنفسهن محدودة سواء فى الحياة التقليدية أو فى الحياة الإسلامية بعد ذلك .

وفى المجتمع السواحيلى يتصل هذا الشكل من العقيدة ngoma ya kupunga pepo بفصيلة من الأرواح تسمى pepo هى الأرواح المتقمصة (الأسياد) وهى غير محدودة فى العدد وفى النوع حيث أن لكل بقعة أرواحها المحلية ، وكل « مروض أرواح » (كودية) fundi له أرواحه التى يسيطر عليها ، وعندما يتعرض شخص ما لنوبات هستيرية أو لأنواع معينة من الأمراض ، فإنهم يستشيرون العراف فإن تنبأ بعد ضرب الرمل أن هناك « أسياداً » تقمصته فهو يشير بطرق العلاج ، وقد يقوم به هو نفسه أو بالتعاون مع سحرة آخرين أو يشير بدعوة « الكودية » المختص بالروح للقيام به .

وهناك طرق مختلفة للعلاج بعضها بالتعاويذ ، وهى عادة ماتكون مؤقتة ، وفى قليل من الحالات تكون دائمة ، وبعضها بالتهدئة والتسكين ، إلا أن الطريقة المثلى الأكثر فعالية هى أن يدخل المريض نفسه فى عالم « الكوديات » ومريديهم ويصبح واحداً منهم .

وهدف التعويذة هو الوقاية فقط من روح متقمصة غير مرغوب فيها ، أما عملية طرد الروح من جسد الشخص الذى تقمصته chömoa mtu pepo (١)

---

(١) وتختلف عن ذلك تماماً تعويذة السبعة ايام للقرية التى تتم اذا واجهت كارثة جماعية Pungwa mji ويشترك فيها العرافون فى المنطقة ، وهم يسيرون فى القرية يجمعون الأرواح الشريرة فى سلة ثم تلقى فى البحر فى اليوم السابع .

فتبدأ بالأبخرة ، ويغلى الدواء فى آنية من الفخار Chungo يجلس للمريض القرفصاء فوقها وهو ملفوف بالملابس تماماً ، ويرقص الطبيب حوله ملوحاً ثم يلمسه — أو يلمسها — بقرن بقرة pini مملوء بالدواء وهو يرتل رقية معينة يسمونها « علاج للأرواح الشريرة » dawa ya pepo وهى عادة ماتكون سورة « يس » بينما يقرعون جرساً على شكل طبق upatu قرعاً مستمراً حتى يسقط المريض متشنجاً ، وهنا تكون الروح الشريرة قد طردت تماماً من الجسد الذى تقمصته .

أما الطريقة المتبعة للتهدئة ، فإن «المروض » أو « الكودية » يعالج البلاء بأن يدعو واحداً من « الأسياد » الواقعين تحت سيطرته لكى تتقمصه هو أو أحد أعوانه ثم يسأله عن المطلوب للروح التى ظهرت على المريض المبتلى ، وعندها سوف يشير عليه بالدواء الذى يتناوله وبالنذور والعطاء الذى يقدمه ، أو يقرر له علاجاً كاملا لطرد الروح . و من الضرورى لعلاج الهستيريا أو الصرع أن يتوصل « الكودية » إلى معرفة إسم الروح الذى يسبب المشكلة باعتباره أمراً لازماً لممارسة السيطرة عليه وعلاجه والتعامل معه مباشرة عند تعرض المريض لأزمة الهستيريا أو الصرع ، وفى العلاج يستعملون التبخير بأنواع معينة من الدواء معدة إعداداً خاصاً ويتمايلون ويتأرجحون ويذرون الهواء pungo لتهدئة الروح والسيطرة عليها . وقد جاءت تلك العادة تقليداً لما يقوم به « الكودية » من التهوية على المريض بعصاته أو ندبته أثناء[1]

---

(١) ويستخدم كذلك قضيب من النحاس أو الحديد أو العاج ويمسك المريض بأحد اطرافه والكودية بالطرف الأخر ليمكنه من الاتصال بالروح .

العلاج ، وعندما تصعد الروح إلى رأس[١] المريض تتحول شخصيته ويصبح هو الروح ، فيتحدث العراف إليه بكلمات غامضة kilinge لكى يتبين ما يريد، فإذا ما أجيبت مطالبه ، وقدمت الذبيحة ، تنزل الروح ويشفى المريض مؤقتاً على الأقل[٢] .

وما من طريقة من تلك الطرق تؤدى إلى الشفاء الكامل ، فحتى لو هدئت الروح أو تم طردها فسوف تعود مرة أخرى فى يوم من الأيام ، وهذا ما يدفعهم إلى التشبث بعقيدتهم فبفضلها وحدها تتم السيطرة على الروح المتقمصة فتحضر إن دعيت ويصبح من الممكن جعلها عوناً للذى تسكنه لا عواناً عليه ، ذلك لأن الروح بتقمصها إنساناً ، تصبح راغبة فيه ولا تعود هناك فائدة من وراء طردها أو تهدئتها ، فمن الخير إذن السيطرة عليها وتحويلها إلى ساكن طيب ولذلك فإن الجهود كلها توجه للترحيب بالروح والسماح لها بالبقاء فى الجسد المبتلى والتعبير عن نفسها وعن رغباتها ، فإذا ما تمت السيطرة عليها فإنها تألف المريض وتطمئن إليه وإلى الحياة فى جسده وسوف تساعده ولن تؤذيه وتجعله قادراً حتى على علاج الغير وشفائهم ، وتلك هى الطريقة التى قلنا أنها المثلى والأكثر فعالية فى العلاج ، وهى أن يدخل المريض نفسه فى زمرة مروضى الروح «الـكوديات» ويصبح واحداً منهم .

فعندما يتعرف العراف على إسم الروح المتقمصة ويستدعى « الـكودية »[١]

---

(١) ويشار إلى الرأس على انها مقر الروح kitî Chapcpo ويحرك العراف رأس المريض إلى الامام وإلى الخلف عندما يريد أن تصعد الروح إليها

(٢) فى أمراض معنية يدعى الروح كى يتقمص الشخص ليكون شريكا دائما أو مؤقتا له، وتغلى أدوية معنية فى وعاء جديد ويعطى المريض بعضه ليشربه ويوضع الاناء على حشية قطنية فوق رأسه أو رأسها ويظل فى مكانه مهما تشنج عند تقمص الروح .

(٣) فمثلا Mganga wa Tari هو « الـكودية » الذى يكون « التار » هو الآلة الرئيسية الغالبة فى فرقته الموسيقية التى تغلب على الغناء والرقص الخاصين بالفصيلة، ويسمى الغناء والرقص احيانا باسم الروح نفسها .

الذى يسيطر على فصيلة تلك الروح لإتمام السيطرة عليها ، وبالرغم من وجود فصائل متعددة ومتنوعة من «الأسياد» ، وكل فصيلة منها لها فوقتها الموسيقية الخاصة وأغانيها ورقصاتها وطعامها الذى يقدم فى أثناء العملية وحليها التى يتحلون بها فى الاحتفالات التى تقام لضم عضو جديد إلى فريق الكوديات ، بالرغم من كل ذلك فإن الأساس واحد فى ترويض الأرواح والتحكم فيها ، فهم يرددون أسماءها بالغناء الخاص بالفصيلة وبأداء رقصاتها وحركاتها المحددة لإضعاف مقاومتها فتصبح فى النهاية حجاباً لأسمائها ، ويعلن « الكودية » خلال الاحتفال أن الأسياد يطلبون عمامة من شكل معين ، و بعد إحضارها يقوم بوضعها فوق رأس العضو الجديد الذى يكون جالساً وقتها فوق مقعد عال وسط الحلقة ، وفى أثناء إلباسه العمامة تذبح الذبيحة المعدة لذلك ، وهنا ترضى الروح وتهدأ وتتم السيطرة عليها ويصبح المريض واحداً من الكوديات يتحكم فى الروح التى تتقمصه ، وعليه بعد ذلك أن يرتدى نفس العمامة فى الاحتفالات المماثلة .

ويشترك كافة الأعضاء القدامى فى الاحتفال بضم عضو جديد إلى الجماعة ، وبعض الفصائل تتخذ لنفسها مكاناً خاصاً تقام فيه هذه الاحتفالات يطلقون عليه إسم « كوخ الغموض » ، أما الطعام المطلوب والذبيحة والهدايا والملابس والحلى ، فهى باهظة التكاليف ، ولكن العضو يتحملها راضياً لأنها سوف تكون الثمن لكى يصبح واحداً من مروضى الأرواح !

وتحبس « الاسياد » فى شهر رمضان ، وتعتبر نهاية الشهر السابق عليه (شعبان) هى فترة الاحتفال بالذبائح لوداعهم[1] ، والبعض يقولون انهم

(١) كذلك «شنطة الحاوى» أو الجراب الذى يحمله الساحر تغلق ولا تفتح خلال شهر رمضان

يطلقون بعد ليلة القدر ، والبعض الآخر يحتفلون بالترحيب بعودتهم فى عيد الفطر . وبرغم أن عدداً قليلا من الأهالى هم الذين ينضمون كأعضاء عاملين فى تلك الفصائل ، إلا أن لها تأثيراً كبيراً وقوياً فى السكان جميعاً خصوصاً فى احتفالات المواسم الزراعية مثل احتفالات جزيرة بمبا بحصاد القرنفل الذى يشارك فيه ، وفى غيره ، جميع أعضاء فصائل « الاسياد » !

٣ — الدواء والسحر الأسود والشعوذة وصناعة السحر :

وهو مجال تجددت قوته تحت ضغط الظروف الحديثة ، فجميع الذين دخلت فى حياتهم متطلبات جديدة ، وتأثرت بالنقود والمنافسة ، أصبحوا يجدون ديانة السلف غير كافية وينظرون إلى السحر كعلاج لحياتهم الجديدة . فالمعلم الساحر بقدرته على التحكم فى الأشياء وفى الكلمة المكتوبة يعبر فى نظرهم عن شيء هو أقوى من دين العائلة أو فروض الإسلام ، فمجال الدواء يتشابه لدى كل من السواحيليين والوثنيين فى قبائل النييكا من حيث نوع ممارس العلاج وطرقه ومصطلحاته فيما عدا أن المعالجين فى الإسلام يعتبرون أنفسهم مسلمين تماما، ولذلك فإننا نرجىء الكلام عنهم إلى مكان آخر .

والمعالج mganga [١] هو المتحكم فى الدواء ، وهو أيضاً العراف[٢] . وسبق أن أشرنا إلى أحد أركان مهنته الذى يتصل بعلاقاته مع الأرواح المتقمصة و « الأسياد » وغيرها ، ومهنته — وتسمى uganga — مع أنها كثيراً ما تكون مهنة وراثية إلا أنه لا بد من تعلمها على أيدى ممارس ويمكن

---

(١) أصل الكلمة ganga ومعناها يربط أو يعالج بالدواء

(٢) mwaguzi معناها العراف و Uaguzi هى العرافة أو التنبؤ، وكلمة agua معناها يتنبأ وتستعمل ايضا بمعنى « يعالج » خصوصاً علاج الأمراض الناتجة عن الارواح أو « الاسياد » ، ويرفع « العمل » .

للغير أن يتعلموها نظير أجر معين ، والذى يتعلمها بعد أن يمر بمراحل التدريب والإعداد المختلفة يسمى mkilemba حيث أنه قد أصبح له حق إرتداء العمامة kilamba الخاصة بالمهنة .

وبرغم أن ممارسة كل من السحر الأبيض uganga والسحر الأسود uchawi هما أمران مختلفان ومتناقضان تماماً إلا أنهما يمارسان بواسطة رجل واحد ، والاختلاف هو فى المقصد والهدف وليس فى الطريقة المتبعة ، فالنفخ بالفم مثلا Puliza هدفه نشر تعويذة أو « عمل » وكلاهما يمكن أن يكون طيباً ، وهنا يصبح السحر أبيضاً ، ويمكن أن يكون سيئاً فيصبح السحرأسوداً . ولا يوجد من يعترف بأنه يمارس السحر الأسود ولكن الوصول إلى معرفة العلاج للعمل المعمول ، يحتم الخبرة بطرق السحر الأسود ، وبذلك فإن ممارسة السحر الأبيض تستدعى ممارسة طرق السحر الأسود ، وبالتالى فإن العمل فى كليهما قد يتشابه .

ويجب التمييز بين السحر والشعوذة . فقد ذكرنا أن المشعوذ mchawi هو فى حقيقته العراف المعالج mganga الذى يستخدم وسائل مادية إلى جانب استخدام خدام له من الروح والأسياد ، بينما الساحر يعمل باعتباره عضواً فى جماعة أو طائفة دون أن يكون بينه وبين ضحيته عداوة شخصية أو حتى اتصال من أى نوع ، وكلمة mwanga ومعناها الساحر مصدرها anga أى « يوقف أو يعلق » والمفروض أنها تشير إلى مقدرتهم على الطيران ، وجاءت تلك التسمية من عضويتهم فى مجمع السحرة . صحيح أن شخصا قد يرث ميلا لأعمال السحر ولكنه لا يستطيع أن يمارسه إلا إذا انضـم إلى مذهب « Uanga » فى مجمع من تلك المجامع chama . والأفراد الذين يظن أنهم مناسبون للعضوية فى أحد مجامع السحرة يدعون بعد أن يصيبهم سوء الحظ

أو المرض إلى الاشتراك فى المجمع ، ولهذه المجامع درجات للعضوية ، ومكان سرى فى الغابة يعقدون فيه اجتماعاتهم يسمونه فى زنجبار gina ngi .

ومن الطبيعى ألا نعرف سوى القليل عن السحرة ، والمهم أن الخوف منهم موجود ومنتشر ، وبمعنى آخر فإن الإحساس بالجو الذى يمارس السحر فيه قائم ، وكذلك فإن المقرالماسونى فى زنجبار قد وصف لى على أنه مجمع للسحرة وهم يخافون منه ويخشونه وكان الخدم يبلغون أصدقاءهم كيف أنهم يبعدون عند ممارسة الشعائر فى المجمع الماسونى . ويطلق على الذين يطيرون أثناء الليل اسم waanga وهم يشاهدون فى الغابة فى صورة ضوء يتحرك ويظن أنهم يسببون الموت بأعمالهم السحرية ويخرجون جثث ضحاياهم بعد دفنها ويحصلون على بعض أجزائها لاستعمالها فى شعائرهم ولديهم القوة على التحول إلى حيوانات وخصوصا الفهود ، ومن المنصوح به أن يكون للفرد حارس kinga معروف يحميه منهم ، وإن أنت قابلت فى الليل قطا أو كلبا لا تعرفه . . . فاحذر منه ، وابتعد ! . .

٤ — رجل الدين كمعالج :

لقد أرجأنا الكلام عن السحر الإسلامى لأنه يعتبر فى جميع المناطق ثانويا بالنسبة للسحر المحلى الأبيض uganga ولأنه لا ينافسه فى الواقع منافسة جدية ، فحقيقى أن الجميع يرتدون الأحجبة والتعاويذ الإسلامية ، إلا أنه فى المسائل الهامة فان معظم السواحيليين يتخذون طريقهم إلى الساحر وليس إلى المعلم .

والمعلم له وظيفتان : رجل دين ، ومعالج . فوظيفته الدينية وقدرته على حفظ النصوص المقدسة تمنحانه العلم والقوة ، وهو قد يمارس علاجا تقليديا فى قالب إسلامى بصورة عامة مثل الالتجاء إلى التعاويذ سواء المكتوبة أو المحلية ، والدوران حول المريض ku-zungua هو وسيلة من وسائل العلاج بالتضرع

والابتهال الذى من الممكن أن يكون وثنيا أو اسلاميا . فعند الوثنيين يحمل الساحر طائراً ويدور به حول المريض مع تعويذة لرفع « العمل » وابطال مفعوله . وفى زنجبار يقرأ المعلم دعاء بينما يحمل النذر حول المريض(سبع مرات؟) ويعطيه سبع قطع من الخبز مع الدخن المجفف (العصيدة) .

وتدرس علوم السحر والعرافة والنجوم فى الكتب ، ونتيجة لذلك فان الطرق المستخدمة تتبع نفس الخطوط تقريبا عدا ما تأثر منها بالوسائل المحلية الوطنية ، والسحر كوسيلة للوصول الى اهداف كريمة مرجوة ، مسموح به ، إلا انه فى نفس الوقت مكروه ومنبوذ إذا كان الهدف منه ضاراً ومشينا ، فالمسألة إذن مسألة هدف ، ومع ذلك فالوسيلة المتبعة ايضا لها دور تلعبه، فاتباع طريقة مسموح بها للوصول إلى غرض سيء يعتبر سحراً ملعونا ينفرون منه ، تماما مثل اتباع طريقة ممنوعة كاستخدام الجن مثلا فى الوصول إلى هدف طيب وكريم[(١)] ،

والقرآن هو اساس القوة وراء السحر الإسلامى ، فسورة مثل سورة يسن والمعوذتان ، وبعض الصيغ المعينة لها تأثير كرقى وتعاويذ وقد اتخذها الذين يعتقدون فى الأرواح المتقمصة او « الأسياد » . وهناك بعض الدعوات التى لها القوة إلى الحد الذى يمكن معه إدخالها ضمن دائرة السحر ، فتعبير « دعا إلى أو دعا لى » معناه الدعاء من اجل شخص ما ، بعكس المعنى المفهوم من «دعا على» وهى طريقة يتبعها من يسمون أنفسهم بالأولياء فى عقاب اعدائهم. ومن هنا اصبح لكلمة dua السواحيلية معنيان ، فهى إما ان تعنى الدعاء بالخير، وإما ان تكون دعاء باللعنة ، وكلمة amepigwa dua معناها « عليه اللعنة ».

---

(١) Uramali هو الاسم السواحيلى لكلمة « العمل » الذى يعده المشعوذ المسلم باستعمال اشياء خاصة بالشخص المراد الاضرار به مثل شعره أو قلامة من اظافره أو رسمه فوق الورق أو الجلد

وكتابة الأحجبة هى اكثر وظائف المعلم المطلوبة. وتكمن قوتها فى الاعتقاد بأن البركة الفطرية لكلمات وآيات القرآن واسماء الملائكة والجان وعدد من الشعارات يمكن ان تنتقل إلى الأشياء ومنها إلى الأشخاص الذين يحملونها كما أن البركة تاتى ايضا من الذين يكتبون الأحجبة انفسهم ، فبعضهم له بركة شخصية اكبر واقوى من غيره ، ومن يشتهر بذلك وتعرف عنه قوة بركته فانه يتقاضى اجراً اكبر من الاجر الذى يتقاضاه الآخرون. وإلى جانب الآيات القرآنية تستخدم كتب الدعوات مثل « دلائل الخيرات والبردة » للبوصيرى فى كتابة الاحجبة ، بالإضافة إلى دعوات معينة(١) ، وهناك نصوص فى السحر وتركيبات شائعة من الدواء الوطنى فى « كتاب الرحمة فى الطب والحكمة » المنسوب إلى السيوطى . وتسمى الأحجبة المكتوبة « بالحرز » ويطلقون عليها بالسواحلية kinga أى « الساتر أو الحاجز من الضرر » وهى توضع فى غطاء من الجلد وتلبس فوق الجزء من الجسد الذى يشير به كاتبها ، وللاحجبة المختلفة أسماء متنوعة ، فمثلا هناك حجاب للوقاية فى الحرب hirizi ya vita وآخر للوقاية من الحسد(٢) hirizi ya jicho ومنها أيضاً الأحجبة المحلية الوطنية hirizi ya mti shamba ويدخل فيها الخشب أوجذور النبات ومرتبطة بالأحجبة المكتوبة hirizi ya kartasi .

« والدعاء » يعتبر صلاة أما « الدعوات » فهى رقى وابتهالات وتسمى

---

(١) مثل الجلجالوتية والدمياطية والبرهانية التى وصفها الاستاذ C.H.Becker فى كتابه « الإسلام » ص ٣٩ — ٤٠ . والاثنان الاوليان معروفتان جيداً ، أما الاخيرة فيبدو أنها مشابهة لما يسمى فى شمال افريقيا « الخواتم السبعة » . وفى ثورة عام ١٩٠٥ (ماجى ماجى) حمل الثوار من مسلمين ووثنيين وحتى المسيحيين زجاجة من ماء زمزم كحجاب . واضيف إلى ذلك خطاب مقلد من مكة هو الذى سبب اضطرابات يوليو عام ١٩٠٨ فى جنوب تنجانيقا وقد اورده الاستاذ Becker هو وترجمة فى كتابه المذكور ص ٤١ — ٤٨ .

(٢) jicbo ya uhasidi معناها العين الحاسدة jicbo baya معناها عين الحاسد

إحدى أشكالها المعينة « العزيمة » وفيها يبارك الشيخ المعالج ، المريض بالبصق عليه ، ثم هناك الدواء المقدس السائل ويسمونه Combe أى «الطبق المفلطح» وسمى كذلك لأن المعلم يقوم بتحضيره بكتابة بعض النصوص بالزعفران فوق طبق خشبي مفلطح ثم يغسله بماء الورد ويسقيه بعد ذلك للمريض . وفى حالة السيطرة على الأسياد يستعمل المعلم المعالج طبقاً خشبياً مفلطحاً مستديراً ذا حافة يسمونه Chano . ويشار إلى «أهل بدر» Halbadiri كابتهالات دينية تستخدم فى الدعاء على بعض الأشخاص وهى تشمل بعض الآيات القرآنية وأسماء المشتركين فى غزوة بدر ، والقوة المطلوبة فى هذه الإبتهالات هى قوة الملائكة الذين أرسلهم الله فى المعركة وكان تدخلهم عاملا حاسماً فى إنتصار المسلمين .

والتنبؤ فى الإسلام « خط الرمل » هو طريقة مبتكرة لتحديد نتيجة حدث معين وتستخدم فى المدن . فبدلا من أن يلقى العراف المسلم بالعظام والحصى والأحجار وغيرها كما يفعل زميله الوثنى ، نراه يلجأ إلى الصيغ والطرق المعروفة القائمة على مصادرها الواردة فى الكتب ، فضرب الرمل يمارس تبعاً لما جاء فى كتاب «الفصل فى أصول علم الرمل» لمحمد الزناتى. كما أن هناك طريقة شائعة فى التنبؤ تتم بإستخدام حروف وآيات القرآن[1] والاستخارة والتنبؤ عن طريق الاحلام [علم التعبير] هى أمور معروفة وشائعة ويتبع التنجيم (علم النجوم) كتاب أبو مشعر الفلكى .

ومفهوم الصدقة ، مفهوم واسع يغطى مجالا كبيراً وأساسها هو الصدقات التى تعطى فى احتفالات العقيقة كما أنها بديل للزكاة وتسمى فى هذه الحالة نصيب الله فيما يملك الإنسان Fungu La Mungu وتعتبر كذلك العطاءات والولائم الخاصة بالاحتفالات الدينية. والصدقة مرتبطة دائماً بالصلاة وقراءة القرآن بصورة

(١) هى التنبؤ باستخدام النظر فى كتاب Kuangalia Kwa chuo

خاصة ، وبالطعام والشراب بصورة عامة . وتلاوة القرآن والصلاة يقوم بها شيخ Mwana-chuoni وله نصيب من تلك الهبات، أما الطعام فيأكله الحاضرون كما يقدم للفقراء[١] أما أصحاب الاحتفال فانهم لا يأكلون منه بأى حال من الأحوال . « والكفارة » أى التعويض عن الذنب بواسطة الهبات كالصدقة أو الصوم يبدو أنها تتداخل فى بعض الأحيان مع معنى « الصدقة » إلا أن «الكفارة» تختلف فى أن عطاءها المكون من الأرز المطبوخ والعصيدة والبيض، يوضع فى صدفة ويترك بجوار أحد القبور أو فى أحد مفترقات الطرق ، أو يلقى به فى البحر ويقوم عادة بتجهيزه المعلم المعالج نيابة عن الشخص نفسه .

وصلاة الاستسقاء (لإستنزال المطر)[٢] هى إحتفالات إسلامية دولية هامة عندما تولد الحاجة إليها ولكنها لا تحل محل الإحتفالات الوطنية الأصلية بل تندمج فيها وتقام معها . ففى ساحل كينيا عام ١٩٦١ تكررت تلك الصلوات بصورة خاصة بسبب تأخر نزول المطر ، ووقتها دعى مستخدموا الجان من أصحاب مذهب التقمص لإستشارة الأرواح فى نوع الاسترضاء الذى يطلبونه. وقد لا يقتصر الإحتفال على شعائر استنزال المطر بل يشمل أى كارثة غير عادية وهو فى مجمل القول يوجه لتأمين إنتعاش ورفاهية المجتمع، وعندها يسمى بترتيل القرية للقرآن Hitima ya mji ، وفيه عادة يتواكب الرجال من المسجد حول المنطقة التى يقام الاحتفال فيها ثم يعودون مرة أخرى إلى المسجد ويقودون

---

(١) لا تعنى كلمة « صدقة » عند الياو معناها المألوف ، وإنما هى تشير إلى وليمة جنائزية تقام لحظة الدفن وبعدها فى فترات معنية وتقام معها رقصات معينه وتقدم بيرة من نوع خاص : أنظر كتاب Islamic Law in Africa p.169 للاستاذ J.N.D. Anderson وفى الداخل فالهبات والولائم التى تقدم لأرواح السلف فهى معروفة فى كل مكان « بالصدقة »

(٢) ورد فى كتاب Swahili Poetry للاستاذ ليندون هاريس ص ٢٠٢ ـ ٢٠٧ صلاة لاستنزال المطر كتبها بالأشعار السواحلية محيى الدين الوايلى ، قاضى زنزبار المتوفى عام ١٨٦٩ .

إحدى الماشية أو الأغنام كضحية وهم يرتلون القرآن الكريم ثم تذبح الضحية وتطهى وتؤكل خارج المسجد[1].

ويتفق كل من الاسلام والوثنية فى مراحل الدورة الزراعية ، فعندما تأتى مرحلة تنظيف الأرض بحرق بقايا وآثار المحصول السابق **koka ya Moto** فان المعلم يرتل القرآن ويؤدى الصلاة مع عدد من الرجال يجتمعون فى الصباح الباكر ثم يذبح عدد من الديكة ذات اللون الأحمر وتلقى رءوسها ومعها بعض الخبز فى نار توقد .. ثم تمتد بعد ذلك ، لكى تحرق الحشائش .. والأشجار !

---

(١) فى الإسلام لا يعتبر تقديم ذبيحة موجها لاستعطاف واسترضاء ارواح السلف بل يعتبر عطاء فى سبيل الله

الفصل الخامس

دورة الحياة الإنسانية

١ — الميلاد :

يعتبر الأطفال خطراً يهدد المجتمع أن ولدوا فى ظل ظروف شاذة ، أو بهم مس من الشيطان أو لحقهم تشويه ما: ومن أمثال ذلك التوأم أو الاشوه ، أو الذى تنزل قدماه قبل رأسه وقت مولده . والطفل الذى تظهر أسنانه العليا أولا فى اللهجات الجنوبية Kigego وفى اللهجات الأخرى Chimvi أو Timvi ، وتمتد التسمية لكى تشمل بعد ذلك كل طفل ذى فأل سىء . وبين قبائل النييكا يترك مثل هؤلاء الأطفال فى الغابة تخلصا منهم، ولكن الإسلام بنفوره الشديد من وأد الأطفال ، وإستنكاره له عدل تلك العادة بين مسلمى الساحل وأصبح الأطفال الغير مرغوب فيهم يحملون إلى المساجد ويتركون بها طيلة الليل باكمله ، فان ظلوا أحياء حتى الصباح فمعنى هذا أن الله بارك وجودهم ولا معنى بعد ذلك للخوف منهم باعتبارهم أطفال «مبدولون» . وهكذا يرضى أصحاب العادات القديمة ، وأصحاب العادات الجديدة على السواء .

وعندما يولد طفل ، فان المعلم ، أو أكبر العائلة سنا يدعى لترتيل الأذان فى اذنه اليمين أولا ثم فى الاذن اليسرى ويبقى الطفل فى داخل البيت لمدة سبعة أيام ثم يوضع فوق مروحة أو مطرحة من القش النقى النظيف الخالى من الشوائب ويحمل لكى يرى الشمس Kuona gua ungo ويعرض للعائلة ثم يلقى الماء من فوق سقف البيت ويصيحون والماء يتساقط « أنها تمطر .. تمطر ، إجر .. إجر » . وفى جزر القمر يقام هذا الاحتفال فى اليوم التاسع قبل الفجر ، ويربط حجاب ـ

وعادة ما يكون سورة يس — حول رقبة الطفل . والبعض يؤدى العقيقة ، وهى أول قص لشعر الطفل مع تسميته وتقديم ذبيحة فى اليوم الثامن ، وبعد التسمية تنشد الموالد عادة فى بيت الوالد (وفى منزل أم الزوجة دائما بالنسبة لأول طفل يولد) وفى بعض الأحيان يختن الطفل سواء كان ذكراً أم أنثى فى زنجبار فى اليوم الثامن ويقوم بقص شعره حلاق القرية ، وتختلف طريقة التخلص من الشعر المقصوص من مكان إلى آخر فالحاديميون عادة يدفنونه فى شاطىء البحر بجوار ابريق ماء .

وفى أجزاء كثيرة من الساحل تتم الحلاقة فى اليوم الاربعين ولا يهتمون بالتسمية ، والواضح ان احتفال العقيقة قد تحول إلى اليوم الاربعين Arhaini عندما يتم تطهر الام والطفل من شوائب الولادة فان كلا من الام ووليدها يشتركان معا فى الطهارة وفى عدمها ، وتفرض بعض الممنوعات على الوالدين من مولد الطفل حتى فطامه[1] . ويذبح طير فى اليوم الثامن : ديك للولد ودجاجة للانثى ، ويغلى حتى يتحول لحمه إلى سـائل ويضاف إليه الفلفل والجنزبيل والحبهان ويقسم إلى أربعة أنصبة ، نصيب للمعلم ونصيب للوالدين ، وآخر لكبير العائلة ، والرابع للفقراء والمساكين [عادة ، يكونون من عبيد المنازل السابقين] ولا تترك الام حجرتها حتى اليوم الرابع عشر لكيلا تخطو فوق العتبة ، ويزورها المعلم كل يوم ليرش الماء فوق رأسها ويقرأ سورة يس ، ويتم قص شعر الطفل وتطهر الام والبيت كله فى اليوم الاربعين وبعد ذلك تجتمع الاسرة جميعا حول وليمة يقدم فيها خبز معد إعداداً خاصاً .

ويختار الإسم بواسطة الاشخاص المعتادين ، وتختاره عمات الطفل فى أوساط السواحيليين الشماليين ، وأحياناً يختاره المعلم ، وأحياناً أخرى يتم

(١) يسمون الأذى الذى يلحق بالطفل إذا لم يتبع الوالدان تلك الممنوعات Vunja mtoto

الاختيار بالقرعة وذلك بأن يقوم طفل صغير باختيار إسم من بين عدد من أسماء الاسلاف . وفى زنجبار تتبع عائلات قليلة حرفية القانون وذلك بوزن الشعر ثم إخراج ما يعادله ذهبا ، والضحية عادة ما تكون عنزة للبنت واثنتين للولد . وفى زنجبار لا يرتلون القرآن فى هذه المناسبة ولا يقيمون صلاة ولا ينشدون الموالد أيضا .

ويبدو بصورة عامة أنه لا تعطى أهمية خاصة لتسمية المولود ، فالإسم الذى يطلق على الطفل عند مولده لا يستمر بالضرورة — بين بعض السواحيليين — كاسم يعرف الشخص به بعد ذلك، فان الاحوال والظروف قد تستدعى إطلاق إسم مستعار عليه Jina La Kupanga وقد يكون أسم عيب Jina La aibu أو مسبة Jina la msibu أو اساءة mnsibu كأن يسمى الشخص « العبد » Mtumva وفى البداية يطلق عليه أسم بمناسبة الختان Jina la Kutahirawa ثم فى الزواج يسمى بإسم آخر Jina la maozi .

ويتميز المجتمع السواحلى ، ومنه الأفارقة العرب بقراءة العقيقة للطفل فى اليوم الثانى أو الثالث او الرابع لوفاته وذلك يقابل الخاتمة فى مآتم البالغين ، وهى ترسل الطفل إلى العالم الآخر مجهزاً ومعداً. وتعبير « قراءة العقيقة » Kusoma akika معناه فى الواقع « تسمية طفل حديث الولادة توفى ، وقراءة الدعوات من أجله » ، وهى لا تقام بطبيعة الحال لمن لا يموت من الأطفال حديثى الولادة إذ أن احتفالات العقيقة الأصلية التى تقام للأحياء من الأطفال عادة ما تتأخر .وهى تتعارض مع الشريعة ويحتج العلماء عليها ولكن دون فائدة ، والأعتقاد الشائع أنه إن لم تتم احتفالات العقيقة ، لا يصبح الطفل شخصاً ولا يعتبر مسلماً ولن يقبله الله . وفيها يردد المعلم دعوات باللغة العربية تنتهى بأن

يدعو الله أن يقبل الضحية التي هي عنزة أو أثنتان (تبعاً لما اذا كان الطفل ذكراً أم أنثى) كشهادة للطفل ، وتذبح العنزة وتشوى فوق الفحم ثم تقدم ومعها العسل الأبيض إلى الحاضرين جميعا [١].

والإحتفال بإشهار اسلام البالغين ، شبيه بإحتفال العقيقة للأطفال ، والإشارة إلى أحدهما تغنى عن الإشارة إلى الآخر .

وإشهار الإسلام [٢] أمر له أهميته الكبرى في شرق أفريقيا حيث يغلب طابع التحول الفردى إلى الإسلام أكثر منه في غرب أفريقيا حيث التحول الجماعى هو القاعدة . وفى زنجبار حيث الإسلام هو الدين السائد ، لا تثور ضجة في مناسبات التحول إلى الاسلام ولكنه يعتبر حدثاً هاما بين مسلمى الداخل خصوصاً إذا كان الشخص الذى تحول إلى الإسلام شخصية لها مغزاها كأن يكون زعيما مثلا أو أن يكون مسيحياً .

وعناصر الاحتفال بإشهار الإسلام هى : الاعداد (التعاليم والختان) . والاغتسال ، والتسمية ثم الوليمة الدينية . ويقول المتحولون إن التعاليم روتينية وهى فى الأغلب تتكون من الشهادتين والوضوء والصلاة وبعض الواجبات الأخرى والممنوعات . والختان إجبارى إن لم يكن المتحول قد ختن من قبل، وبعده بثلاثة أو أربعة أسابيع عندما يشفى الجرح تماماً يخلع المتحول ملابسه القديمة ويغتسل اغتسالا شاملا ثم يعطى ما يغطى به عورته ويصب المعلم الماء عليه سبع مرات وهو يقرأ الفاتحة ثم يسميه أمام الحاضرين ، ويتم ذلك عادة إما فى بيت المعلم إو فى بيت أحد اقرباء المتحول من المسلمين ، وأحيانا فى أحد المساجد .

---

(١) العسل الابيض الذى يقدم مع اللحوم هو عادة حضرمية .

(٢) Kusilimu معناها « اسلم » و Mwislamu معناها « مسلم » و Ki-Islamu معناها « طرق وعادات المسلمين » .

وليس ضرورياً أن تذبح ضحية خاصة عند التسمية ، ولـكن الوليمة تعتبر جزءاً من المناسبة وعادة تقام فى أحد بيوت افراد قبيلته من المسلمين فان لم تـكن له قبيلة أو كان قد انفصل عنها ، ففى بيت المعلم . وفى أوغندا يختار المتحول عادة أسمه بنفسه ، وقد تم اختيار اسم اسلامى لزوجة مسيحية لأحد زعماء اوغندا بعـد خلوة لمدة يوم كامل امضتها فى بيت المعلم ، وبعـد اغتسالها قام المعلم بتبريك الماء الذى اغتسلت به ثم خرجت بعـد ذلك إلى الناس للاحتفال بتسميتها .

وفى الداخل فى تنجانيقا يستقبل الذين يشهرون إسلامهم ويتحولون إليه بطقوس وشعائر معينة واحياناً يرسل الوالدان الوثنيان ابناءهما إلى هذه الاحتفالات لـكى يسلموا اعتقاداً منهم انها وسيلة تساعدهم فى مستقبل الأيام . وغيرهم يتحولون إلى الإسلام فى صمت دون احتفال فيطلقون على انفسهم اسماء اسلامية ثم يعرفهم الناس بعد ذلك عند آدائهم الصلاة فى المساجد .

٢ —الختان والتلقين :

تعتبر شعائر التلقين من القوانين والعادات القبلية التى احتفظت بقوتها ، والتلقين القبلى فى كامل صورته يتمثل فى احتفالات الجاندو Jando التى يقيمها المسلمون للختان والتلقين معاً . والرقصات التى تقام فى مناسبتها تسمى Unyago أما الإسلام نفسه فلا يعرف من ذلك سوى عادة الختان وهى شعيرة للتطهر ، فردية فى طبيعتها ومع ذلك فلها أهمية اجتماعية قصوى لأنها تفتح الطريق أمام حياة البالغين الاسلامية ، والوحيدون الذين يأخذونها بهذا المعنى المحدد هم العرب والمندمجون فيهم وبعض العائلات الجديدة ، أما بالنسبة لغالبية الأفريقيين المسلمين فإن الختان يعتبر مقدمة يـكملها التلقين ، كما أنه جماعى وليس فرديا وتـكون فترة الشفاء من الجرح ، من وقت خلوة المختتن

واختفائه إلى بداية إعداده فى مدرسة من مدارس التلقين أو التأهيل .

وفى المجتمعات السواحيلية كثيراً ما يكون الختن Ngariba هو نفسه المعلم أو شيخ الجماعة حيث انها شعيرة اسلامية، ولكن مدة الخلوة بعدها يحددها رجل الدين التقليدى Makungwi . ولقد اجتمعت فيها عناصر من الإسلام وعادات البانتو ولكنها لم تنصهر جميعاً معاً ، فإن الإسلام يظهر واضحاً فقط عندما يتم فى النهاية انشاد الموالد وتوزيع الصدقات ، وهناك مراحل ثلاث : الختان ، والعزلة أو الخلوة ، ثم الخروج بعدها [١] .

وهناك خلاف بين الأطباء حول سن إجراء عملية الختان، وكثير من عرب الساحل يختنون أطفالهم فى اليوم الثامن لميلادهم ولكن تجريها غالبية المسلمين الافريقيين بعد ذلك بكثير . والبعض من السواحيليين يختن أولاده بين الشهر الثامن عشر والسنة الخامسة ، وهنا لا تعتبر عملية الختان من شعائر الانتقال ، لأنه فى هذه السن الصغيرة لا يحدث تغيير حقيقى فى حالة الفرد . وعند بعضهم الآخر يتراوح سن مجموعة الصبية المعدة للتختين بين السادسة والخامسة عشر . ذلك لأن عديدين ينتهزون الفرصة ويضمون أولادهم إلى المجموعة ، وفى هذه الحالة يعتبر الختان من شعائر الانتقال ، وفى حالة إرسال الصبية إلى المستشفى أو إلى عيادة خاصة لإجراء العملية نفسها وهو أمر آخذ فى الإنتشار ، فإنه يتم تلقينهم بعد ذلك ولو بشعائر أكثر تبسيطاً ومن ذلك أننى قابلت فى ماليندى مجموعة من الصبية فور الإفراج عنهم من كوخ التلقين ، وكانوا قد

---

(١) يسمى الختان Tohara ومعناها ايضا الاحتفال بالنظافة والتطهر ، ويختن معناها Kutahiri أما Kutoharisha فمعناها يتطهر حسب الفريضة . ولما كانت مصحوبة عادة برقصات واحتفالات من طبيعة معينة ، فتعرف العملية جميعا بـ ukumbi أى « كوخ التلقين » ودخول هذا الكوخ معناه بداية التلقين والتأهيل .

ختنوا فى المستشفى ثم أخذوا إلى الكوخ لقضاء مدة العزلة التى يلقنون خلالها .

ومركز الخلوة أو العزلة ، كوخ بسيط يعد للمناسبة وتحيطه مساحةمسورة ويدشنه كبير الملقنين Nyakanga الذى يقوم بتعليق ودفن بعض الأحجبة فيه وقد يطلب فى بعض الأحيان إلى أحد المقرئين أن يتلو بعض الآيات القرآنية على حفنة من التربة وتؤخذ بعدها إلى الكوخ وتنثر فوق الأرض ، ويقصدمن ذلك طرد الأرواح الشريرة أو الوقاية منها ، ويقيم الصبية فى الكوخ لمدة ثلاثة أسابيع أو أكثر ولا يسمح لهم بمقابلة النساء . وخلال تلك الفترة ، بين الختان وإنتهاء الإعداد يعرفون بالموالى ، ويتولى الملقن ومساعدوه تلقينهم التعاليم الأخلاقية ويعلمهم أغانى ورقصات التلقين أو التأهيل ، ويقدم لهم طعام معد بطريقة معينة مثل الأرز شبه المطبوخ Bondo وفى نهاية الفترة يطلق على كل منهم اسم جديد بمناسبة الختان Dina la Kutahirawa ثم يستحمون فى النهر أوفى البحر ويرتدون ملابس وعمامات جديدة وتدهن وجوههم بالكحل وعصير الليمون وتخضب[١] أكفهم وأقدامهم ويتزينون بالسلاسل الفضية والأحجار ثم يلتفون بعباءات نسائية ، كل ذلك بقصد حمايتهم من أعين الحاسدين ، ويستقبلون أقرباءهم وأصدقاءهم الذين يقدمون إليهم الهدايا ، وقد تنشد بعد ذلك الموالد وتقام الولائم والرقصات أثناء الليل وطول اليوم التالى ، وفى بعض الأحيان يزورون مقابر آبائهم ويوقدون لهم البخور كفرض من الفروض العائلية .

أما الفتيات فلم تتأثر فرائض تلقينهن بالإسلام لأن السواحيليين لا يختنون

(١) الخضاب هى الكلمة العربية أما « الحناء » فكلمة فرعونية (حنو) (المترجم)

الفتيات بخلاف العرب . ويتم التلقين عادة بعد ظهور أول حيض[١] لدى الفتاة السواحيلية ، ويستعان بإحدى القابلات لكى تقوم بوظيفة الناصحة أو المستشارة Somo لمجموعة من الفتيات متقاربات فى العمر ويخضعن لظروف واحدة ، ولإعداد الفتاة السواحيلية وتلقينها مرحلتان : الأولى تبدأ عند ظهور الحيض الأول ، أى عندما تصل إلى مرحلة البلوغ ، فتحملها القابلة فوق ظهرها وتقوم بغسلها جيداً ثم تضمخها بزيت السمسم ومسحوق خشب الصندل ، وتبدأ المرحلة الثانية بأن تؤخذ الفتاة مع زميلاتها للعزلة فى كوخ التلقين لمدة سبعة أيام ، وتقيم القابلة معهن لتلقنهن مايتعلق بسلوك المرأة وبخاصة مايتعلق منه بالزواج ، والأغانى والرقصات المختلفة ومنها رقصة جنسية من نوع خاص ، وخلال تلك الفترة لا يسمح للفتيات اللاتى لم يدخلن بعـــد مرحلة التلقين والإعداد أو للذكور بالاقتراب من الكوخ ، وتنتهى فترة عزلة السبعة أيام —فى مناطق معينة —باحتفال يسمى احتفال « كشف النقاب » ولا يسمح لأحد بأن يراها أو يحادثها قبل أن يقدم إليها هدية يسمونها Fichuo « نقوط » وعندها ترفع الفتاة نقابها وتظهر احترامها لمن قدم النقوط إليها ثم تقبل يده ، وللحاديميين رقصة خاصة يؤدونها بمناسبة الإفراج عن الفتيات تسمى Kunguwia تتواكب فيها النساء إلى مكان الرقص وهن يحملن المظلات .

فإذا ماولينا وجهنا شطر شعوب الداخل غير السواحيليين الفينا عادة الختان لاتعتبر جزءاً داخلا فى حياة البانتو إلا أن بعض سكان الداخل من الحاميين النيليين قد اكتسبها وإن كان لاينكر أن للاسلام الأثر الأول فى إنتشارها

---

(١) يطلق على الفتاة قبل إعدادها اسم Msungo أى « الخام » ، وعندمايبدأ حيضها وتبدأ الإقامة مع الناصحة يطلقون عليها اسم « موالى Mwali » أو « القاصر تحت الحماية » تماما مثل الاولاد الذكور أثناء فترة اعتكافهم للتعلم فى الكوخ ، وهى ايضا تسمى كذلك عندما تعدها الناصحة للعزلة بغسلها وتضميخها بزيت السمسم ومسحوق خشب الصندل .

بين القبائل القريبة من الساحل[١] . أما القبائل فى الداخل فكثير منها لم يكتسب تلك العادة ، وهم يطلقون على الشعيرة الإسلامية[٢] Jando وهو تعبير يستعمل أيضاً فى الساحل حيث اكتسبها المسلمون الذين انفصلوا بالإسلام عن قبائلهم وأصبحوا جزءاً من الحياة السواحيلية. وحيث تكتسب تلك العادة بواسطة الشعوب التى لم تكن تختتن قبل ذلك ، يكون اندماجها فى شعائر التلقين أكثر اكتمالا عنه بين سكان الساحل والجزر .

والذين يقودون احتفالات الجاندو سواحيليون والمصطلحات المستعملة كلها سواحيلية ، وبرغم أن العنصر الإسلامى لا يظهر فيها إلا قليلا ، فإنهم فى إسلام البانتو لا يعتبرون الختان وحده ضمن الجاندو دليلا على الإسلام ، بل انهم أيضاً يطلقون على المختتن اسماً إسلامياً فى نهاية الاحتفال . وقد ساعدت تلك العادة على انتشار الاسلام لأن الاشتراك فى الجاندو ليس قاصراً على مجموعة بعينها ، والوثنيون فى الداخل الذين يريدون أن يربطوا أنفسهم أكثر بالحياة السواحيلية عليهم أن يمروا بالجاندو ويطلق عليهم بعد الانتهاء من ذلك اسم المعلم .

---

(١) قبائل مثل الزارامو كانوا فى السابق يبدأون التلقين والإعداد دون ختان وعندما أصبحوا مسلمين اكتسبوا « الجاندو » برغم انهم مازالوا يمارسون الاحتفلات القبلية التقليدية فى التلقين . وقبائل الشامبالا يختتنون فى الطفولة ولايدخل ذلك فى شعائر التلقين . والمسلمون من قبائل النييكا اكتسبوا الختان ولكن أغلبهم لايمارسه . وجميع رجال قبائل الدوروما يختتنون مع أن أغلبهم وثنيون (ذكر ذلك فى كتاب Glimpses of Nyika Tribe للاستاذ جريفيث ص ٢٦٩) كذلك قبائل بوكومو العليا ، فإنهم يختتنون أولادهم ، ولكن الماالاشيى لايفعلون عدا المسلمين منهم : أنظر كتاب :

Coastal Tribes of the North Eastern Bantu 1952 p. 29
للاستاذ A. H. J. Prins

(٢) احتفلات الجاندو درست بواسطة الاستاذ H.Cory فى :
Journal of the Royal Anthropological Institution, London.

وعندما تتفق مجموعة من الآباء على إقامة جاندو ، يتم تسوير مكان منعزل ويقام فيه كوخ بسيط . ويتم ذلك تحت إشراف الزعيم Nyakanga وله مساعد Makungwi ، وامرأة عجوز Mama Wa Ukumbi تتولى إعداد المساحيق التى يتزين بها الصبية المبتدئون ، ويقوم المختن بالعملية فور وصولهم، وفى خلال فترة العزلة يعلمون مجموعة من الأغانى ، وتقام الاحتفالات الرئيسية فى نهايتها وتبدأ صباح أحد أيام الخميس بالحمام الكبير فى جدول أو بركة ، وفى الصباح التالى تختلط الشعائر الإسلامية بشعائر السلف فى الاحتفالات التى يقيمونها فى نهاية عزلة التلقين . وقد كتب الأستاذ كورى يقول : « فى صباح يوم الجمعة يحضر إلى الكوخ ، القريب المباشر لكل مبتدىء وهو يحمل معه المخلفات المقدسة من تراث السلف ، وعادة ماتكون حربة أو مقعد صغير أو قوس وسهم أو بعض الأساور ... إلخ وتقدم كل عائلة نذرها Tambiko وهو التعبير الشائع استعماله فى كل مكان ويدل على القيام بتقديم العطاءات لاسترضاء أرواح الموتى حيث يبتهلون إليهم ألا يزعجوا الأحياء، وهنا لا تقدم ضحية خاصة ويملأ المشتركون أفواههم بماء ممزوج بالدقيق ويرشون به مخلفات السلف التى أحضروها معهم ويتبع ذلك التزين ، فتنقط أجساد المبتدئين بمزيج من الماء والدقيق . والاحتفال الذى يلى التزين وتقديم النذور هو التطهر حسب الشريعة المحمدية Kutoharisha حيث يظهر معلم عادة يكون المدرس الوطنى لتعاليم الإسلام المقدسة وهو يحمل معه « الشهادة » وهى عبارة عن ماء مبارك يصبه فى قشرة جوز هند ويرش بعضه فوق رأس كل من المبتدئين وهو يتمتم ببعض النصوص ليباركهم »(١)

وفى صباح السبت يرتدون ملابس جديدة ثم يصحبونهم إلى خارج الكوخ

(١) الاستاذ H.Cery المرجع السابق .

حيث يلفظون أسماءهم القديمة ويعلنون أسماءهم الإسلامية الجديدة التى قد يختارونها هم أنفسهم ، أو يتم اختيارها بقرعة يجريها المعلم ثم يعودون إلى الكوخ ولا يغادرونه حتى الصباح التالى عندما يقام احتفال يسمونه Grigo تشعل خلاله النار فى الكوخ فيخرجون منه هاربين . ويقال أنه كان عليهم من قبل أثناء هروبهم أن يقفزوا فوق نار ذات لهب عال ، أما الآن فيحدث كثيراً أن يحضر الأطفال من الكوخ بالسيارات إلى مكان الاحتفال حيث تنشد الموالد ويقدم الطعام .

ولقد انتهى الأمر بالشعائر الوطنية بين القبائل فى الداخل إلى التفكك ، ويقول الأستاذ J. C. Mitchell عن الياو[1] أنه فى بعض المناطق المعينة يوجد إتجاه بينهم للجاندو والنسوندو Nsonde — وهى الاحتفالات الاسلامية للفتيات المشابهة لاحتفالات الجاندو للذكور — لكى تحل محل بديلتها الوطنية Lupanda ، Ciputu وفى مناطق أخرى يجرى الاحتفال بالشعيرتين الاسلامية والمحلية جنباً إلى جنب ، ونتيجة لذلك أخذت سلطة الزعيم وسيطرته فى الشعائر المحلية تتدهور لأن المعلم هو الذى يقود الجاندو ويسيطر عليه :

(٣) التثقيف الإسلامى

يحتل التثقيف الإسلامى مركزاً هاماً فى الحياة السواحيلية، فعندما يبلغ الطفل من العمر ست أو سبع سنوات ، يتفق والده مع المعلم على إلحاقه بالكتاب Chuo وهو التعبير المستعمل لمدارس القرآن . وعادة يستشير العراف ليحدد له يوما ذا طالع سعيد يبدأ فيه دراسته، وعند حلوله يصحب ابنه إلى المدرسة وهو يحمل معه العطاءات والهبات المعتادة التى تتكون فى زنجبار من أرز مخلوط بالخبز وأذرة محمصة ، ويقول للشيخ وهو يسلمه تلك العطاءات أمام ابنه «لقد حضرت

(١) I. C. Mitchel, The Yao Village 1956 pp. 81—82

لكى أعهد إليك بابنى ، لاتحافظ على شىء منه سوى عينيه » . بمعنى «لاتبخل بالعصا » . وقد قيل لى أن بعض المدرسين لا يبخلون بها وأن التلاميذ يضربون ضرباً مبرحاً ، ويقسم الوالد العطاء الذى أحضره ، فيعطى الشيخ الأرز المخلوط بالخبز ، ويوزع الأذرة على التلاميذ.

وفترات الدراسة تبدأ فى الصباح من (٧ — ١٢) وبعد الظهر من (٢ـ٥) وفى هذه الأيام يحدث كثيراً أن يذهب الصبية إلى مدرسة عادية فى الصباح ، ثم إلى الكتاب بعد الظهر ، فإن التلاميذ الذين تقتصر دراستهم على الكتاب لمدة ثلاثة سنوات ثم يذهبون بعدها إلى المدارس العادية يتأخرون كثيراً عن غيرهم من التلاميذ ، والتدريس عمل دينى لا يتوقع عليه أجر ، ومع ذلك فإن الشيخ يتلقى فى العادة بعض الهدايا ada'ya Mwalimu ، وفى كل يوم من أيام الخميس يحضر الطفل معه للشيخ عشرة مليمات pesa za alhamisi ، أما قبل الأعياد وقبل شهر رمضان بثلاثة أيام فيأخذ المدرس من ٥٠ إلى ٧٥ مليما كعيدية Mfungo . وتغلق المدرسة خلال تلك الأيام الثلاثة وبعد الظهر طوال أيام رمضان ، كما تعطل لمدة سبعة أيام فى عيد الفطر ، كذلك فى أيام الجمعة ، وبعد الظهر من كل خميس . وبعد تعلم الألف باء يرسل الآباء هدايا للمدرس وطعاماً للأطفال ، وكذلك يفعلون عند نهاية كل مرحلة من مراحل التعليم (١) ، وتعطى هدية أكبر للشيخ عندما ينتهى الطفل من حفظ القرآن . وبعض المدرسين يقومون بصنع الجبب والكوفيات وبيعها ، وفى بعض المناطق يعمل التلاميذ فى بيوت المدرسين فى حمل الماء وفى جمع خشب الوقود أو يعملون فى

---

(١) أى عند تمام حفظ كل جزء من القرآن . وفى بعض الأماكن من زنجبار يحضر الطفل يمامة عند تعلمه سورة التين ، وبلبلا أسود اللون بعد حفظ سورة «الإخلاص» . وبعد « قريش » دجاجة ، والاعتقاد هو أن تلك الطيور تقرأ هذه السور .

مزارعهم وفى تنظيف البيوت وفى بعض الأعمال الأخرى ، كما أنهم يستخدمون فى أنشاد الموالد التى يتقاضى المدرس عنها أجراً .

ويبدأ التلميذ بتعلم القراءة والكتابة بعد الألف باء ، وبعد ذلك يكتب المدرس فوق لوحة[١] ، بداية « جزء عم » وهو آخر أجزاء القرآن الثلاثين وبعد أن يتم التلميذ استظهاره يبدأ فى حفظ القرآن جميعه مبتدئاً بالفاتحة . وفى زنجبار يبدأون عادة بالفاتحة ثم ينتقلون إلى « جزء عم » ، وقد يكون على التلميذ أن ينقل فوق لوحة سوراً من أجزاء القرآن المطبوعة التى عليه أن يحصل عليها بنفسه (المصحف) ، فإن تقدم فى دراسته ، قد يعطيه أبوه مصحفاً كاملا . ويخصص صباح يوم الخميس لتعلم إنشاد مولد البرزنجى ، ولا تدرس العربية كلغة ، وغالبية الذين ذهبوا إلى الكتاب لا يتكلمون العربية ولا يكتبونها ، ويقول المدرسون أن عليهم التوجه إلى المدينة للمزيد من العلم ، ومن ناحية أخرى عليهم استظهار القرآن وتعلم الحروف السواحيلية ، لكى ينتهى بهم الحال إلى أنهم لا يقرأون إلا السواحيلية .

وعندما يخطر المدرس والد الطفل أن ابنه قد أكمل استظهار القرآن hitimisha فإن مجموعة من المعلمين تستدعى لاختباره ، فإن اجتاز الامتحان يعطى والده المدرس مبلغاً يتراوح من ثلاثين إلى ستين شلنا [من جنيه و نصف إلى ثلاثة جنيهات استرلينية] كفدية لولده ، وفى بعض الأحيان يكون ذلك مناسبة لإنشاد الموالد وإقامة الولائم إن كان الوالد قادراً على ذلك .

ومن الضرورى للنساء حتى فى المجتمعات المغلقة أن يكن قادرات على

---

(١) ويطلق على اللوحة Ubao . ويصنع الحبر من الصماد الناتج من احتراق الخشب أو الفحم المذاب فى الماء لسهولة مسحه . وفى زنجبار يستعملون حجر المرجان المسحوق المذاب فى الماء . وفى بعض المناطق يقوم تلاميذ الكتاب بتزيين لوحاتهم بالألوان فى ايام الاعياد وفى نهاية السنة الشمسية ويتواكبون فى طلب العيدية .

تلاوة القرآن وأداء الصلاة المفروضة ، وفى الكتاب يتعلم الذكور جنبا إلى جنب مع الفتيات حتى يبلغن سن البلوغ وعندها يحجبن . وفى بعض المناطق تتردد فتيات كثيرات على المدارس بعكس مناطق أخرى حيث يقل عددهن كما أنه لا يوجد سوى عدد قليل من مدارس البنات (فى تانجاوزنجبار) ومع ذلك فقد لاحظت أن التلاميذ الأكثر تفوقا فى المدارس التى قمت بزيارتها ، كان بينهم عدد لا بأس به من الفتيات !

(٤) الزواج :

يقوم الزواج فى شرق أفريقيا — شأنه شأن باقى نواحى الحياة الإسلامية — على عنصرين :

الأول : عنصر إسلامى وتحكمه القوانين والعادات الإسلامية .
والثانى : عنصر إقليمى وتحكمه العادات والتقاليد الوطنية .

وبينما ظلت الناحية الإسلامية منه على ما هى عليه لم تتغير ، لأنها تقوم على قانون ثابت ومكتوب ، وإن حدث فيها اختلاف ، فسببه الجهل والإهمال ، فإن هناك تنوعات كثيرة وملحوظة فى العنصر الوطنى الأهلى بين المجموعات السواحيلية المختلفة .

والزواج فى صورته العامة يتكون من ثلاثة مراحل : العرض ، والاحتفال بالعقد الإسلامى ، ثم اجتماع العريس بعروسه .

(ا) العرض Uposo أو Upusoji :

الزواج فى أساسه هو عقد بين والدين ، والد العريس ، ووالد العروس . وفى البداية ، أى قبل اتصال العائلتين ، تستشير أسرة « العريس » Mposaji عرافا فى طالع الفتاة وأسرتها قبل الإقدام على الارتباط بها ، فإن جاء الطالع سعيداً والفأل حسنا ، قام أفراد من أسرته — من بينهم خاله فى أغلب

الأحوال — بزيارة أسرة العروس ويحملون معهم هدية يقدمونها قبل التقدم بعرض الزواج Kupeleka posa ، ويهتم العرب عادة بأن يكون العريس كفؤا لعروسه Kufuu ، أما المسائل المالية فيناقشونها بعد التأكد من مدى كفاءته ولياقته لابنتهم. وبعد الاتفاق المبدئى بين الأسرتين يدفع مندوبو أسرة العريس مبلغا لأسرة العروس يسمى « فاتح الباب» Kifungaomlango وهذا المبلغ كما تدل تسميته يفتح الباب فى وجه العريس من ناحية ، ويغلقه فى وجه الخاطبين الآخرين من ناحية أخرى .

والمدفوعات التى يؤديها العريس هى : المهر للعروس Mahari ومبلغان أساسيان لوالديها : ثمن العروس Kilemba لوالدها ويسمونه « ثمن العمامة » ، أما لوالدتها فيدفع مبلغا يسمى مكاجا Mkaja أو مويليكو Mweleko. والمكاجا هو القماش الذى تلفه المرأة حول وسطها أيام الحمل وبعد أن تضع مولودها . أما المويليكو فهو الرباط الذى يشد الطفل إلى ظهر أمه . وإن لم يدفع المهر المتفق عليه بكامله فإن حده الأدنى على الأقل لا بد من دفعه على أن يدفع الباقى إذا ما طلق الزوج زوجته ، أوتتقاضاهمن تركته[1] بعد وفاته ، وبرغم أن المذهب الشافعى لم يضع حداً أدنى للمهر ، فإنه بين عرب ساحل كينيا لا يقل عن أربعة وستين شلنا ، وبجانب تلك المدفوعات توجد مبالغ أخرى تقليدية وهدايا سيجىء الكلام عنها فيما بعد .

(ب) الاحتفال بالعقد : ويسمى Hutuba [2] أو Mikaha : عقد النكاح

---

(١) يتراوح المهر فى زنجبار بين ٩٠٠ إلى ٣٠٠٠ شلن للعذراء ، وبين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ للثيب تدخل فيه المدفوعات الأخرى ، وعلى الساحل يختلف ثمن العروس الذى يدفع للوالد حسب الحالة الاقتصادية للعريس ومركزه الاجتماعى .

(٢) والأغلب أن هذه الكلمة مأخوذة من خطبة أى موعظة لأن كلمة خطوبة بمعناها المعروف لاتنطبق هنا .

ففى اليوم ذى الطالع السعيد[١] الذى يحدده العراف يتوجه العريس ، ومعه أقرباؤه وأصدقاؤه إلى المسجد أو إلى المحكمة أو منزل العروس حيث يجدون المعلم أوالقاضى ووالدالعروس أوولى أمرها وبعض الشهود، ويجلس الوكيل — الذى يكون قد تحقق من موافقة العروس سواء بزيارتها شخصيا أو بشهادة شاهد على ذلك ، ويفسر صمتها وسكوتها بانها موافقة — فى مواجهة العريس وأصدقائه ويسأل سؤالا تقليديا : « هل توافق على ان تتخذ « فلانة » زوجة لك طبقا لما تم عليه الاتفاق معك على صداق مقداره (كذا شلن) الذى دفعت منه مقدار (كذا)؟ » وبعد الإجابة بنعم يعيدالوكيل السؤال مرة أخرى وتتكرر إجابة العريس ، وهنا يقرأ الحاضرون الفاتحة ويتلو المعلم صيغة عقد النكاح ، وبعد انتهائه يصافح الحاضرون بعضهم بعضا ثم يتناولون القهوة والحلوى .

حـ — دخول البيت (الدخلة) Kuingia nyumbani : ولا يكتمل عقد الزواج إلا بتمام « الدخلة » وإقامة الوليمة ، ونادراً ماتكون « الدخلة » فى نفس اليوم الذى يعقدون العقد فيه ، ذلك أنه لابد من استطلاع رأى العراف مرة أخرى ، وعادة يكون ذلك فى مساء اليوم التالى[٢] عندما يذهب العريس إلى منزل زوجته مصحوباً بأصدقائه مهندماً[٣] ومعطراً ، فيجلسونهم فى غرفة خارجية قبل أن يأخذوه إلى غرفة العروس. وبعض السواحيليين يذبحون طيراً أو عنزة كضحية عند عتبة الدار قبل دخول العريس حتى يخطو فوق دمها عند دخوله ، وفى الساعة التى يحددها العراف ، يدفع مبلغاً يسمى أيضاً « بفاتح

(١) توجد فترات مثل شهر صفر يحرم الزواج فيها .
(٢) وبين العرب إذا كان الزوجان أولاد عمومة فمن الممكن أن تصحب العروس إلى منزل عريسها
(٣) فى زنجبار يلبس العريس رداء طويلا تزينه اشغال الابرة ويضع عمامة كبيرة تشبه العمامة الملكية .

الباب » إلى « بلانة » العروس Somo-Kungwi فتسمح له بدخول حجرتها جيث يجدها ملتفة فى إزارها النسائى ، وتطلب « البلانة » منه أن يخلع ملابسه ويضع هو الآخر إزاراً جديداً Kisuto وعليه أن يقدم لعروسه هدية لكى تسمح له بأن يمسك بيدها أولا ، وهدية أخرى لكى يمسك بذراعها ، ثم لكى يكشف النقاب عن وجهها عليه أن يقدم إليها الهدية الثالثة !!

وفى اليوم الأول بعد الدخلة(١) تقام الوليمة الشرعية للزفاف LimaYaArusi على نفقة العريس وهى غير الاحتفالات التى تبدأ فى اليوم التالى وتستمر لمدة سبعة أيام ويطلقون عليها فونجاتى Fungute وفى أثنائها يقدم الطعام على نفقة أهل العروس ، وفى بعض الأحيان تتبادل الأسرتان تقديم الطعام كل أسرة فى يوم ، ويلاحظ أن الوليمة الشرعية الإسلامية دخلت فى الاطار العام للاحتفالات الأصلية المحلية ، وهى كثيراً ماتقام فى زنجبار فى اليوم السابع من الفونجاتى ، يسبقها فى بعض الأحيان إنشاد الموالد .

وهناك أيضاً مايسمى « بالاحتفال بغسل الأقدام » وليس له وقت محدد ، فأحيانا يتم فى الغرفة الخارجية بعد دفع « فاتح الباب » « للبلانة » وقبل ذهاب أصدقاء العريس ، وأحيانا أخرى — كما فى زنجبار — يقام فى اليوم الأول لاحتفالات السبعة أيام (الفونجاتى) ، وفى ممباسا يقع فى اليوم الثالث من تلك الاحتفالات . وعلى العريس وأصدقائه أن يدفعوا « غسيل الأقدام » Kiosha—Miguu لبلانة العروس فتقوم بغسل أقدامهم ومسحها بالزيت .

وإلى جانب مايقوم العريس بدفعه من مبالغ تقليدية . وما يقدمه من هدايا

(١) يطلب عادة الدليل على عذرية العروس Kisarawanda. معناها عرض القماش الابيض فوق الفراش . وعند إتمام ذلك يعطى العريس عروسه هدية للتعويض تسمى الجزاء Jazua .

تحتمها التقاليد والعادة ، عليه أيضاً أن يقدم هدية إلى كل فتاة من الفتيات اللاتى يحطن بزوجته من صديقاتها (وصيفات الشرف) إلا أننا يجب أن نشير إلى أن كل تلك المظاهر والاحتفالات والهدايا والمدفوعات المختلفة لاتتم إلا فى زواج العذراء فقط ، أما الثيب (المطلقة أو الأرملة) فزواجها بسيط لايحيط به سوى الضرورات فى أضيق حدود الانفاق .

وبالإضافة إلى هذا الزواج المتكافىء ، يوجدزواج آخر هو زواج السرية، أو العبدة Suria كما نظمه القانون الإسلامى ، ولم يتوقف هذا النوع من الزواج بعد إلغاء الرق طالما أن الأطفال الناتجين عنه هم أطفال شرعيون ،وزواج السريات مازال يتم من الفتيات من سلالة العبيد السابقين . ويقال كذلك أن زواج المتعة موجود مع أنه غير شرعى طبقاً لقواعد السنة . أما بالنسبة للاثنى عشرية فهو زواج شرعى لاعيب فيه . وهناك أيضاً نوع من الزواج يشار إليه بالزواج السرى Harusi ya Siri وهو غير مسموح به ، وهنا تظهر أهمية الوليمة التى تساعد على إعلان الزواج . ولم نستطع الحصول سوى على القليل من المعلومات عن هذه الأنواع من الزواج وغيرها من الارتباطات الشاذة التى تتم كثيراً بين البحارة وغيرهم من الزوار خلال فترة الرياح الموسمية .

أما فى الشعوب القبلية فتعقد الزيجات حسب العادات القبلية ، وإجراءات العقد الإسلامى يمكن أن تتم حيثما توجد سلطة إسلامية وقد يكون ذلك فى وقت لاحق لقيام الزواج نفسه عندما تتاح لهم فرصة الذهاب إلى أقرب قاض لتسجيل العقد .

والمسلمون فى المستوطنات يلجأون إلى المحكمة عند الطلاق ، أما مسلمو الريف فنادراً مايفعلون لأنهم يعلمون أن عليهم أولا تسجيل الزواج ، ويقول

الأستاذ أندرسون عن قبائل الديجو حيث تتفشى عادة ثمن العروس للوالد ، وثمن العذراء للفتاة نفسها « مازال من الأمور الشائعة أن يأخذ العريس الفتاة بعيداً ويعيشان معا حتى يعثر والد الفتاة عليها ، وعندها يدفع العريس الغرامة المقررة Hunda ثم يبعدان عن بعضهما وبعد ذلك فقط تتم إجراءات العقد الاسلامى للزواج بعد أن يتفق على ثمن العروس الأصلى ويسمى وقتها بالمهر» . وقبائل الديجو وبعض المجموعات من مسلمى الساحل يشترطون نوعاً قوياً من النبيذ المصنوع من جوز الهند تتم به المدفوعات لأسرة العروس . كما أن بعض المشروبات القوية تظهر كذلك فى مثل تلك المدفوعات بين بعض السواحيليين إلا أنها يمكن أن تدفع أيضاً بالنقود ، أما الصوماليون فيشترطون ثمناً للعروس يدفع لوالدها وتدفع منه فوراً نسبة تسمى Gabbati بينما هو — والد العروس — يهبها مهراً يسمى Dibad ، وبرغم أن المهر الاسلامى يحدد وقت الاحتفال بالعقد إلا أنه يظل دينا يدفع فقط عند الطلاق أو بعد الوفاة ..

والأفكار القديمة حول اعتبار الزواج عقداً بين مجموعتين أو قبيلتين قد زالت تقريباً بسبب سهولة الطلاق فى الإسلام وليس بسبب العقدالإسلامىالذى هو من الناحية العملية اتفاق بين فردين وليس إتفاقاً بين مجموعتين . ويقال أن الطلاق ليس شائعاً بين الزراع مثل الحاديميين والتومباتو وأهل جزيرة بمبا ولكنه كثير الحدوث فى المدن والمستوطنات سواء على الساحل أوفى الداخل . ويتبع السواحيليون قواعد الشريعة فى الطلاق Talaka فإن طلق الزوج زوجته فقد وجب عليه أن يدفع لها الدين المستحق فى عقد الزواج أما إن كانت الزوجة هى التى حصلت من القاضى على الطلاق ، فإنها تعيد ماسبق أن قبضته . ومسببات حصول المرأة على الطلاق قليلة ويفسرها القضاة تفسيراً محدوداً وضيقاً، وتثور المشاكل كثيراً حول المبالغ التى تسترد لأن كل مايدفع يذكر فى العقد ويصبح إسترداد الزوج لما سبق له أن دفعه عبئاً ثقيلا على أسرة زوجته، ولذلك

فإن كثيراً من الزوجات يهجرن أزواجهن ، ليس فقط بسبب الصعوبة التى يواجهها فى الحصول على الطلاق أمام المحكمة ، بل أيضاً بسبب عجز أسرة الزوجة عن مواجهة العبء المالى برد ماسبق للزوج أن دفعه إذا ماسمحت لابنتها بطلب الطلاق من المحكمة . ولتذليل تلك الصعوبات كثيراً ما يتفاهمون على الطلاق مع بعض التعويض . أما إن طلق الرجل زوجته طلاقاً بائناً لارجعة فيه فلن يستطيع الزواج من نفس المرأة مرة أخرى حتى تتزوج من غيره (المحلل) . Kubalili mke

ويحافظ العرب على الفترة الشرعية المحددة للعدة بعد الطلاق، ولكن الأفارقة السواحيليين وبخاصة الوازاليا فلا يهتمون كثيراً بها ، وبالنسبة لاركان الحياة العائلية الأخرى مثل علاقة الزوج بزوجته أو زوجاته ورعاية الأطفال ، فإن السواحيليين جميعاً يتبعون المذهب الشافعى فيها ، أما شعوب القبائل ، فما انفكوا يطبقون عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم السائدة .

(٥) الموت والحداد

عندما يقترب شخص ما من نهايته ويصبح على شفا الموت ، يستدعون شيخاً لتلاوة سورتى يس والرعد ، وتأدية بعض الصلوات . وتقترن قراءة البردة للبوصيرى بحالة المرض الخطير ، وبالموت أيضاً ، وخصوصاً ماجاء فيها عن التلقين لتمكين الروح من الرد والإجابة على ملائكة الحساب .

وشعائر الموت ثلاثة :

— الجنازة Maziko

— الحداد Matanga

— نهاية فترة الأربعين Arbaini

الجنازة Mazik o :

يتم تغسيل الموتى Kuosha maiti طبقاً للشريعة الإسلاميـــــة تماماً على يدى (مغسل)[١] محترف له مساعدان . وبعد الغسل يسجى الجثمان فوق حصير Mkeka — يرسل بعد ذلك إلى المسجد لاستخدامه فى الصلاة — ويلف بإزار ثم يوضع فى النعش[٢] [فى الماضى كان الجثمان يلف بالسباعيـة التى تعتبر رداء لتكريم المتوفى — ولم تعد تستعمل كثيراً فى زنجبار]، ويتم قبل ذلك تبخير[٣] النعش والـكفن والسباعية إن وجدت ، ويشترك الرجال فقط فى الجنـازة ، فيحمل النعش ورأسه فى اتجاه المقبرة ويتوقفون فى الطريق أو خارج أحد المساجد للصلاة على الميت Talqin وكل من السير فى الجنازة والمساهمة فى حمل النعش له ثوابه ، ويقوم رجل أو أكثر بترديد التهليل ، ويرد الباقون عليهم . أما إن كان المتوفى منتمياً إلى طريقة صوفية ، فيتقدم المنشدون النعش وهم ينشدون القصائد .. والشاذليون منهم ينشدون الأدعية بعد صلاة الجنازة . وفى المدافن يوضع الجثمان في الفجوة المخصصة له[٤] وهو مستور بالأقمشة ، وبعد ذلك تغطى

---

(١) المغسل يسمى Mwosha وجمعها Waosha وهو فى بعض الجهات من الطبقات الدنيا إلا أنه عادة مايكون هو المعلم نفسه أو أحد تلاميذه . وجميع الأقمشة والمواد الضرورية لعمله تسمى Mazikwa وهى تتكون من ثلاثة قطع من القماش تستعمل أثناء عملية الغسل ، والـكفن ، ثم مواد التبخير . وتتراوح تـكاليف الـكفن من ٤٠ إلى ٤٥ شلن ، وحيا كته شلن واحد ، والمغسل يتقاضى عشرين شلنا ، والحفارون ١٠ شلن ، زجاجة للرش شلن واحد واللوح الخشبي ثمنه من ٨ الى ١٢ شلن . والمقرىء يتقاضى من ٣ الى ٥ شلنات وتضاف إلى ذلك تكاليف وليمة الجنازة ٣٠ شلن للفقير ، ٥٠ للثرى .

(٢) يحفظ النعش فى المسجد وله مثل مافى جنوب الجزيرة مقابض يحمل منها وبابان عند الرأس والقدم لسهولة إخراج الجثمان . وفى الريف قد يستعمل سرير عادى بدل النعش .

(٣) مازالت عادة ذبح عنزة أو عجل عند باب البيت « لتمهيد الطريق » موجودة فى الأرياف ولـكنها لم تعد تستعمل فى المدن ، وفى بعض الأماكن يقتصر استعمالها على حالات الموت الغير طبيعى .

(٤) لـكل فئة مدافنها مثل عرب مسقط وسكان جزر القمر وعرب جنوب الجزيرة والسواحيليين أو الأسيويين بأنواعهم ، كذلك فإن معظم المستوطنات لها مدافنها .

الفجوة بفروع الأشجار أو بواسطة لوح خشبي ثم يهال التراب عليه وعندما ينتهون من ذلك تفتح فجوة عند الرأس يصب فيها الماء مع تلاوة بعض الأدعية والصلوات لإعلان أن المتوفى كان مسلماً ، ويسمى هذا الماء « ماء الشهادة » Maji ya Shahada .

الحداد Matanga :

ومدته ثلاثة أيام[١] إذا كان أقاربه يعيشون معه تحت سقف واحد ، فترفع المقاعد جميعاً وتمد حصر كبيرة فوق الأرض يجلسون ويأكلون ويرقدون فوقها علامة على الحداد ، وكلمة ماتانجا Motanga تشير إلى تلك الحصر ، وهم يتلقون العزاء خلال هذه الأيام الثلاثة ، ويقول المعزون عند دخولهم Makiwa المشابهة لتعبير «البقاء لله» فيرد أهل المتوفى yamepita مثل «شكر الله سعيكم» ويجهز الطعام ويرسل إلى الفقراء بانتظام ، وفى كل ليلة من الليالى الثلاث ، بعد صلاة العشاء تقرأ « ختمة »[٢] Kusoma hitima وذلك بأن تقوم كل مجموعة من الحاضرين بتلاوة جزء من القرآن على روح الميت Kumwombea maiti حتى تتم تلاوة القرآن جميعه ثم يقرأ دعاء يسمى « التختيم » . وفى ساحل كينيا ينشدون بعض الموالد فى اليوم الثالث وهى عادة لا يرضى عنها الكثير من رجال الدين ، وتسمى الليلة الأخيرة «الخاتمة» Karamuya Hitima

الأربعين Orbaini :

وفترة الحداد الكلية تستمر أربعين يوماً وتنتهى أيضاً بقراءة الخاتمة مرة أخرى وبوليمة تسمى « وليمة الأربعين » ، وهم يزورن المقبرة فى هذا اليوم

(١) وبالنسبة للشخصيات الهامة قد تستمر تسعة ايام، وفى زنجبار يعترض رجال الدين على اطالة الحداد لمخالفته للشريعة . وفى بعض الاحيان تقل فترة الحداد الى يوم واحد .

(٢) قراءة القران جميعه .

ويتركون الهبات بجواره Vunja fuugu لكى تساعد على تسوية التراب الناتج عن الحفر ، وبعد ذلك يصبح « الظل » حراً فى الرحيل ، ذلك أن الاعتقاد السائد هو أن « الظل » يبقى هائماً بالقرب من المقبرة التى يرقد الجسد فيها حتى تعود الأرض إلى ما كانت عليه قبل الحفر .

وهناك مناسبات أخرى يتذكرون فيها الراحلين ، ففى زنجبار تقام خاتمة فى الليلة السابقة على عيد الأضحى ويسمى هذا الاحتفال Kijungu أى « الحلة الصغيرة » ويسمى الطعام المقدم فى هذه « الحلة » Malimati ، وتستمر فى الأرياف مدة تسعة أيام .

ولا يسمح لأرملة المتوفى بالزواج بعد انتهاء الأربعين يوماً لأن فترة الاوزوكا Uzuka ، وهى الفترة التى تكون فيها حراماً ، ويجب أن تظل فيها مخلصة « لظل» زوجها الراحل ، أصبحت الآن فترة العدة فى الشريعة الإسلامية ومدتها بالنسبة للشافعيين أربعة شهور وعشرة أيام ، ونصف المدة إذا كانت الزوجة من العبيد . والأرملة فى فترة العدة لا تخرج من بيتها ولا تزور أحداً خشية أن تجلب سوء الحظ لمن تقوم بزيارته ، وهى تجلس فوق الأرض مرتدية ملابس قديمة غامقة اللون ، وحذاء خشبياً (قبقاب) وتترك شعرها وجسدها دون عناية أو ترتيب . وإن ارتكبت الزنا أثناء فترة العدة ، فإنهم يعتقدون أن روح زوجها الميت سوف تقتلها عندما تستحم فى نهايتها فى البحر . وفى ختام هذه الفترة يفرج عنها بأن تؤخذ إلى البحر حيث ترش وتبلل بالماء سبع مرات كما يغسل فراشها وأدواتها المنزلية . وفى زنجبار لم تعد عملية الاستحمام تتم على شاطىء البحر ولكن الأرملة تستحم على أى حال ثم تضع ملابس جديدة وتقيم وليمة فى نهاية مدة العدة .

سبق أن ذكرنا أن شعائر السلف استمرت متوازية مع الشعائر الإسلامية

إلا أن شعائر الدفن فى الإسلام حلت بسرعة محل زميلتها التقليدية التى كانت تحمل فى طياتها سمات تنفر منها المشاعر الإسلامية ، مثل الإغراق فى الشراب . ومع ذلك يواجه الإسلام بعض الصعوبات فى التغلب على طريقة دفن الحكام التى تتم بواسطة إحدى العائلات أو القبائل صاحبة الولاية . فقبائل التوزى Tuzi الحاكمة فى شمال شرق بحيرة تنجانيقا يسمون أنفسهم مسلمين ، ومع ذلك لم يغيروا من تلك الشعائر(١) . وشعائر الموت هى من أهم الأمور التى يظهر فيها التناقض فى المناطق التى يتداخل فيها الإسلام مع مذهب التناسخ ؛ فالمسلم يفصل فى موته عن قريبه الوثنى . وبين الشامبالا فى جبال أوزامبارا يدفن الوثنى عادة فى قطعة الأرض التى كان يزرعها ، بينما يمنح الزعيم ، المقابر للمسلمين ليدفنوا موتاهم فيها .

ويبدو أن سب الميت بواسطة أشخاص معينين هو عادة دولية ، فقد أشار الأستاذ بيرتون إلى تقاليد سكان جزيرة تومباتو وقارن بينها وبين مايفعله الأيرلنديون من إطلاق النكات على موتاهم أثناء الدفن. وفى أى جنازة فى دار السلام يتحتم وجود رجل وامرأة من كل قبيلة لها بقبيلة الميت علاقة تبادل النكات ، التى توارثوا عاداتها منذ كان السفر يجعلهم يمرون فى بلاد معادية قوية ، ومن وقتها ارتبطت القبائل المختلفة برباط التحالف . وفى الجنازات

---

(١) ثمة استثناء ملحوظ، فشعائر دفن لولينجيلولى Lulengelule زعيم فينزا Vinza لم تراع بكاملها تحت الحاحه قبل وفاته عام ١٩٣٠ مما احزن الأهالى وإن أراحهم . فالشعائر تقيمها الطائفة الخاصة المسئولة على الكهف الذى يدفن الاسلاف فيه فى كازنجا وهم يقطعون رأس الميت ويضعونها فى جوال ، ويضعون الجسد فى جلد بقرة ويخيطونه عليه ثم يعرضون كلا من الرأس والجسد للحرارة المتصاعدة من نار يوقدونها لهذا الغرض لمدة أسابيع حتى يتم تجفيفهما وحفظهما ثم يأخذانهما إلى كهف الدفن وفى الطريق إليه يقتلون أى مشوه يقابلونه ويقال أن خمسين شخصا قتلوا عند دفن كازانولا Kasanula والد لولينجيلولى .

يلقى ممثلو هذه القبائل النكات على المتوفى بطريقة هجومية عدائية لا يستطيع أحد أن يعترض عليها ويستمر ذلك حتى يدفع شان لكل منهم .

وعلاقة تبادل النكات هى من العلاقات التى تدخل فى مجالات عديدة من مجالات الحياة .. إلى جانب ممارستها فى الجنازات !

الفصل السادس

المجتمع الإسلامى

يكون سواحيليو الجزر والخلجان والنتوءات الساحليـة مجتمعاً برز إلى الوجود كمجتمع إسلامى ، وبرغم أنه نما أساساً بتزايد شعوب البانتو أكثر مما نما وتزايد بسبب تجمع المهاجرين ، مما جعل السواحيليين ينتمون إلى عنصر البانتو أكثر من انتمائهم إلى العرب ، برغم ذلك فإن أوجه حياتهم المختلفة وتركيبهم الإجتماعى يقوم أساساً على الثقافة العربية الإسلامية ، ولا نجد صراعاً بين ثقافة البانتو والثقافة الإسلامية فى حياتهم الاجتماعية فالقانون الإسلامى هو السائد عندهم فى نفس المجالات التى يسود فيها فى أى مجتمع إسلامى .

ولكن الوضع يختلف بالنسبة لانتشار الإسلام بين البانتو فى الداخل خلال المائة عام الأخيرة ، فلقد كان للقانون الإسلامى تأثير أعمق ، بل أنه ساعد على إعادة توحيد بعض المجتمعات القريبة من الساحل والتى كانت تفرقت بسبب إغارات تجار العبيد أو النجونى ، إلا أنه بالنسبة للغالبية — ومنهم قبيلة واحدة هى الياو التى اعتنقت الإسلام وآمنت به تماماً — فقد كان هناك صراع بين قوانين البانتو الاجتماعية وبين تلك التى أتى بها الإسلام .

١ — المجتمع السواحيلى :

للعناصر المتنوعة المكونة للمجتمع السواحيلى طابع عربى إسلامى واضح يتبدى فى الجماعات المختلفة ويقوم على أساس الأصل الذى قدمت منه الجماعة ، والقرية أو البقعة التى تعيش فوقها ، فمن الأصل تأتى العائلة ونسبها والطبقة

التى تنتمى إليها ، ومن البقعة التى تشغلها تأتى العلاقة بالقرية والانتساب إليها .

والمصطلحات[١] ونوع القرابة التى تشير إليها ومداها تختلف بين المجموعات السواحيلية المختلفة ، فمثلا توجد تنوعات كبيرة بين المجموعات السواحيلية التى تعيش فى ممباسا وبين الشيراز بين فى جزيرتى زنجبار وبمبا ، والذى يهمنى فقط هو إثبات وجود الأسرة بمعناها المحدد ، أى الأسرة التى تعيش فى بيت واحد ، ووجود المجموعة التى تشترك فى أصل واحد ولها حقوق وواجبات متبادلة ومتشابهة مما يجعل تمثيل الغرباء واستيعابهم أكثر صعوبة ، برغم أنه لم يكن هناك مفر من استيعابهم وتمثيلهم لكى يتغلب المجتمع الساحلى على العقبات ، ويظل باقياً ، ومن هنا ظهر النظام الطبقى ووجدت العلاقات المعقدة التى تقوم فى نطاقه ؛ وأصبحت بعض الوظائف المعينة حقاً لبعض العائلات التقليدية لا يناقشها أحد فيه . وبينما نظام الأسرة — ومنه قوانين الزواج وهى أساس الأسرة وعمادها — تخضع للتعاليم الدينية ، يقوم النظام الطبقى على حكم العادة المستمدة من كبرياء العرب بنسبهم واعتزازهم به .

والمجتمع العربى مجتمع أبوى يلعب الوالد فيه الدور الأكبر ، فالزوجة تنتقل لتعيش فى منزل زوجها ، والأولاد ينسبون إلى الأب كما أن الأسرة تعتمد تماماً عليه ، والقبيلة كذلك لها رئيس هو بمثابة الأب ، ولهذا المجتمع ميل نحو قصر الزواج داخل القبيلة ، ولقد كان للعرب الأثر الأقوى فى توجيه المجتمع السواحيلى نحو تلك الاتجاهات إلا أن عنصر البانتو — برغم كونه سلبياً إلى حد كبير — لعب دوراً فى خلق التنوعات والتعديلات . فبين بعض

(١) مازال الأمر يختلط بالنسبة للمصطلحات بسبب استعمال المصطلحات العربية بجانب مصطلحات البانتو . فكلمة nasaba « نسب أو نسبة » قد تكون مرادفة لكلمة البانتو Ukoo ، وكلمة akraba تستعمل للاقرباء فى مدى معين Tumbo أو Mlango أو ، وكلمة jadi أو الجد (بمعنى السلف) لها مدى أوسع ، و Jamaa « للجماعه » بأوسع معانيها

السواحيليين نرى الأسرة المحددة nyumba[(١)] التى تعيش فى بيت واحد والمكونة من رجل وزوجته أو زوجاته والأولاد غير المتزوجين ، هى وحدة مستقلة من وحدات المجتمع برغم أن عنصر الزوجة فيه غير مستقر . وبين غيرهم من السواحيليين مثل الحاديميين ، لا توجد مثل هذه الأسرة كشىء قائم بذاته ، بل إن التجمع العائلى الأول هو ukco أى النسب كله وفروعه ويتكون من رئيس العائلة وأولاده وأحفاده .

ثم يأتى النسب العائلى غير الحقيقى ويشمل الذين يدعون الانتساب إلى عائلة عن طريق أحد الجدود أو الأسلاف الغير محددين ، وفكرة هذا النوع من النسب فى العديد من المجموعات مرتبطة بعنجهية العرب واعتزازهم بنسبهم ، وهى فكرة نفسية لا ترتبط كثيراً بالقرابة الفعلية بالعرب أو حتى بعناصر البانتو المختلفة ، وفى بعض الأحيان يطلق على التجمع المكون من مثل هؤلاء لفظ « قبيلة » .

وفى هذه الحالة تضم تلك التسمية أشخاصاً من خارج خط هذه العائلة بما فيهم من يكون من سلالة العبيد [ولا يدخل فى هؤلاء ابن السرية الذى من حقه أن يحمل إسم أبيه وينتسب إليه] . وبين مجموعة السواحيليين فى ممباسا تستعمل كلمة « طائفة » وأصلها mji أى القرية وهى توضح طبيعة العلاقة أو القرابة الأصلية ونوعها بدلا من كلمة « قبيلة » ، وهذه الأخيرة تشير إلى وحدة فرعية من « الطائفة » . وفى بعض المجتمعات نجد أن الحقوق والتقاليد الهامة تعيش بين أفراد الخط الواحد من النسب ، وفى غيرها نرى أنه لم يعد لها سوى الوجود النظرى أو الأكاديمى فقط حيث أنها فقدت كثيراً من أهميتها

(١) هذا التعبير (ومعناه منزل) عند الجيرياما يطلق على الاسرة الممتدة أى الاسرة وفروعها جميعا (المترجم) .

الاجتماعية التى كانت لها فيما مضى . إلا أن واحـــداً منها مازال له اعتباره وأهميته وهو التـكافؤ فى ارتباطات الزواج، وذلك فقط بين الأفراد التقليديين المنضوين تحت ظل الثقافة السواحيلية وهم الشيرازيون والأفارقة العرب ، أما بين أفراد المجتمعات الأفريقية السواحيلية التى تـكونت بعد ذلك فى زمن لاحق ، وهم الذين لا يستطيعون التفاخر بنسب معين فان بنـــاء المجتمع وتركيبه — وذلك بخلاف علاقة القرية والانتساب إليها — ضعيف والأسرة لا أساس لها .

والقرية mji أكثر الوحدات الاجتماعية أهمية فى المجتمع السواحيلى ، وتنهض القرية الحقيقية حيث تزدهر الثقافة الإسلامية بتمامها ، وشوارعها المتميزة ومبانيها البيضاء المستديرة ذات الأسقف المصنوعة من فروع أشجار النخيل تضم مجموعة من العائلات المنتمية إلى أنساب أو قبائل مختلفة وتشغل منطقة بذاتها . وقد تـكون هذه العائلات من سلالة واحدة أو مرتبطة مع بعضها بالزواج وهذا هو الطابع المميز للمرحلة الأولى فى تـكوين القرية وتشـكيلها . ولهم حق تقليدى فى استغلال الأرض المحيطة بهم ويتخذون لأنفسهم رؤساء من بينهم يعترفون جميعاً بهم .

وفى زنجبار توجد مستوطنات من القرى الحقيقية فقد أنشأوا فى مبدأ الأمر وحدات حكومية تقليدية اتخذوا لها نظاماً مركزياً . وفيما مضى كان للقرية مجلس من كبار السن Wazee يعـــرف « بالرجال الاربعة » watu wanne ، وشيخ يعرف بشيخ القرية Sheha wa mji وظيفته قبول المستأجرين لأرض القرية والإشراف عليهم ، ومجموعة تعرف ب Wakuu wa kiyambo

« الأوصياء على حقوق أرض العائلة » ، وأخيرا الوافيالى Wavyale وهم المسئولون عن معابد الأرواح المحلية . ولم يكن هناك فى الأصل رئيس للقرية بمعناه المعروف إلا أن الموظف الذى يعينه السلطان أو الحاكم الأكبر لجمع مستحقاته من أنواع الضرائب أصبح فى عهد السلطان بوسعيدى هو رئيس القرية الحكومى Sheha wa Serikali .

وللقرى ملامح مركزية عامة : منزل كبيرها يرفرف عليه علم أحمر ، ومسجد ومركز للاستقبال ومقهى mkahawa وساحة السوق ومحلات تجارية صغيرة وقد يكون بها ساحة للطبول والرقص . والزراع البانتو (الحاديميون وبمبا ومافيا) يفضلون الحياة فى اكواخ متناثرة ، أحياناً بطول شريط من الأرض وأحياناً أخرى فى الغابة تفصلها عن بعضها مساحات مزروعة Mashamba. والتومباتو يعيشون متجاورون بدون طرق ويعيش السواحليون الذين تكونوا حديثاً فى منازل متقابلة تفصلها شوارع ، وبرغم أن بعض هذه المجتمعات قد تكون مجتمعات متفرقه ، إلا أنها تعتبر قرى حقيقية لما تتمتع به من الملامح المركزية التى ذكرناها .

ولقد اتسمت ثقافة الساحل بصفة التمدن(١) بسبب تأثير استغلال الأرض والبحر والاقبال على الوسائل الحضرية من طعام فاخر جديد واكتساب خبرات فنية ، ثم التجارة واقتصاد النقود ، وكانت حياة المدن تحكمها طبقة عليا من الأغنياء تتكون من الحكام والتجار وأصحاب السفن ونخبة من رجال الدين كما كانت قائمة على اقتصاد العبيد ، وكان الزراع أحراراً برغم أن مركزهم قد يقترب من وضع العبيد ، إلا أنه فى القرن الماضى قام نجاح العرب إلى حد

---

(١) Utamaduni معناها « التمدن » أى حضارة المدينة وهى بخلاف حضارة الريف mashamba

كبير على عمل العبيد فى المزارع تحت إشراف مديرى الأعمال . وكان العبيد أيضاً عمالا يدويين وخدماً وبحارة ومديرين ووكلاء تجاريين وانطبعت حياة المدينة بالاسلام وتحكمت أوقات الصلاة فى دورتها اليوميـــــة ، فالإشتغال بالتجارة لايتعارض مع التقوى والورع بل أنهما يندمجان بسهولة ، فإن التاجر يستطيع أن يقرأ القرآن فى محله التجارى ، ويغلقه أو يعهد به إلى صبى حتى يذهب هو إلى المسجد للصلاة ثم يعود .

وتتكون المدن من منازل مبنية بالحجارة ومكونة من عدة طوابق ثم من أحياء بها مساكن أكثر تواضعاً . وتتميز المدن عن القرى بوظائفها ، فلقد كانت فى البداية مركز التجارة والتبـــادل المنطقة نفسها ، وكموانىء كانت ترتبط بغيرها على الساحل وعبر المحيط حتى الجزيرة العربية والهنـــد وما وراءها ، كما أن طرقاتها تعج بالصنـــــاع والحرفيين كل يقوم بعمله الخاص . ولقد كانت فى الماضى أيضاً مركز السلطة سواء كان المقيم فيها هو الحاكم نفسه أو نائباً عنه أن كانت المدينة تدخل ضمن دولة أكبر منهـا . ولكنها وبرغم اختلاف وظائفها عن وظائف القرى إلا أنه لم يقم بها أى شكل من أشكال الحكومات البلدية أو هيئة تنشغل بأمر المدينة نفسها ككل واكتفى بأن المدينة كانت تتبعها مجموعة من القرى لكل منها مجلس من كبار السن ثم أصبح لها كبير بعد ذلك .

ولقد سبقت الإشارة إلى التركيب الطبقى للمجتمع السواحيلى ، وأساس التفرقة كان بين الرجـــل الحر Mngwana (١) وبين العبيد Mtwana وهناك تفرقة بين الأحرار أنفسهم : بين من جاء منهم من أصل حر asili ونسبه معروف ، وبين الذى تحرر أو حرر بواسطة وثيقة Kartasi

(١) ويستعمل هذا اللفظ أيضا بمعنى « حضارة » (اسلامية) كنقيض للبربرية Ushenzi

وأولاده يعتبرون تابعين لأسرة سيد أبيهم السابق . والعنصرية العربية هى من نوع خاص ، لا تقوم على اللون بل على النسب وأصل الوالد . وتنسيب الفرد له أهميته فى العلاقات الاجتماعية ، ومع ذلك كان الاشخاص الذين تضمهم نسبة واحدة يكونون مجموعة غير مترابطة ومفككة إلى حد ما ، ولا يظهر تماسكها إلا فى مناسبات الزواج ، وهى فى ذلك تختلف عن مثيلتها المكونة من الأشخاص الذين يجمعهم أصل واحد عند البانتو . وفى نفس الوقت ترى أن ولاء الرجل الأول بعد أسرته ،هو لمجموعته تلك ، أما غيرها من المجموعات الاجتماعية التى قد يكون عضواً فيها كالقرية مثلا أو المذهب أو الطريقة الدينية أو الحزب السياسى ، فهى تأتى بعد ذلك ، وبهذا فإن الافارقة فى الداخل الذين أصبحوا سواحليين فى الجزر والسواحل وليس لهم انتساب مقبول يظلون متميزين اجتماعياً من السواحيليين بصفة عامة .

ومركز المرأة واضح تماما إذ ينظم القانون حقوقها وواجباتها ، وهو أحد المجالات التى يحترم القانون فيها . وهى لا تشترك فى الحياة الدينية العادية لأن تلك هى إحـــدى المجالات التى يحتكرها الرجل ، ويرتبط استبعادها Utawa بقيم إجتماعية ودينية فتؤيده التفسيرات الدينية من ناحية ، وهو يرجع إلى مركز المرأة الإجتماعى من ناحية أخرى . والحجاب هو شكل إجتماعى اكثر منه مجرد غطاء للوجه والجسد ، والزيارات تتمشى مع هذه القاعدة ،إلا أن الخروج للعراء أو فى الأماكن العامة يستلزم حجاباً بشكل من الأشكال وتختلف درجات الاستبعاد ؛ فالتام منه والكامل يوجد فى المدن وحدها .

وينظر رجال الدين إلى موضوع حرية المرأة نظرتهم إلى غيره من مشاكل التغيير التى تضعف الإسلام فى الحياة الإجتماعية ، وهكذا ، وبسبب قوتهم فى هذه المسائل الفرعية لم يتغير مركز المراة كثيراً ولكن أصبحت المدرسة الحديثة

تؤثر على العادات ، وأخذت القواعد تخف قليلا ، ففى الماضى كانت الفتاة تحجب وتستبعد تماما فى الرابعة عشر أو حتى قبلها ، ولكن التلميذة بعد هذا السن أصبحت الآن تخرج فى حجاب كامل وفى حماية مرافق .

والرق فيما مضى كان نظاماً إجتماعياً رئيسياً ، وإلى أيامنا هذه مازالت له آثاره ونتائجه . ووظائف العبيد فى ظل النظام القديم يمكن تحديدها ، والعبيد عموما يطلق عليهم Watumwa أو Washambara وأولادهم المولودون فى الرق لهم صفة مختلفة تظهر من تسميتهم « وازاليا Wazalia » أى المولود فى مكان ما . أو Kivyalia وهم عبيد المنازل . وبرغم أن النوعين فى مركز واحد من الناحية القانونية إلا أنهم قسموا اجتماعياً إلى درجات عديدة تبعاً لطول خدمة أسلافهم ونوعها ومدى الثقة فيهم وما إلى ذلك . والعبيد الجدد يوضعون فى أقل الدرجات Miinga أى الجاهل الغير مدرب ، و Mateka أى المقتنص حديثاً . وكان العبيد يستخدمون كزراع وخدم فى المنازل وعمال. والزراع منهم إما أنهم كانوا يعملون فى أرض سيدهم بأن يمنحهم قطعة من الأرض تسمى قطعة العبد kodo ليزرعوها لحسابهم يومى الخميس والجمعة فقط من كل أسبوع ، وإما أنهم كانوا يعملون فى أرض سيدهم لحسابهم ويدفعون له إيجاراً ijara ومعه الضرائب المعتادة . ويمكن أن ندخل فى هؤلاء الوازاليا الذين كانوا يستخدمون كصتارين لصيد الحيوانات بالصقور ، أو فى صيد السمك أو بحارة Baharia ويدفعون بدورهم إيجاراً لسيدهم. أما عبيد المنازل فكانوا من النساء عادة وكثيراً ما كن يتخذن سريات . وهناك غيرهم من العبيد ممن كان لهم وضع خاص ويعملون كوكلاء Mtumwaji وكانوا ضمن أهل البيت ، وهناك العمال المؤقتون الذين كانوا يستأجرون باليوم أو بالشهر كله .

وكثيراً ما كان العبيد يمنحون حريتهم وكان ذلك دائماً يتم كصدقة إما لخير أصاب السيد، وإما وفاء لنذر أو ككفارة . وأولاد هؤلاء العبيد المحررين Mahura كانوا يسمونهم (الحـادميون Wahadimu) عبيد الأرض أو المساكين[1] Masikini وهم الذين حررهم الله برحمته، وبرغم أنهم أصبحوا أحراراً دون ماقيود قانونية تجاه السيد السابق فإنهم اعترفوا له بواجب اجتماعى واعتبروا أنفسهم اعضاء فى اسرته .

وبرغم أن الوضع القانونى للرق قد ألغى (طبق الالغاء فى كينيا عام ١٩٠٧) فما برح شكله الاجتماعى قائماً فى المناطق « العربية » من الساحل وفى الجزر . فهناك تمييز إجتماعى شديد بين العبيد السابقين الذين حصلوا على الحرية من وصمة العبودية عن طريق آبائهم ، وبين الاحرار، ويؤيد القانون الدينى تلك التفرقة . فسلالة العبيد ، برغم أنهم أحرار طبقاً للقانون الموضوع ، إلا أنهم مازالوا عبيداً أمام الشريعة ، وخاضعون لعدم الأهلية أمام المحاكم الشرعية ولا يحصلون على حريتهم إلا بعتقهم أمام احدى هذه المحاكم ، هذا الابقاء على الرق له آثاره فى مختلف الميادين إلى جانب الوصمة الإجتماعية الناتجة عنه ، فأفراد أسرة السيد السابق يمكنهم أن يتخذوا لأنفسهم سريات من سلالة العبيد السابقين ، كما أن « العبد » لا يستطيع الزواج حتى يحصل على إذن « سيده » ويدفع له ضريبة تسمى Kilemba ، ويرفض المأذون أن يعقد له ولا يعترف بزواجه أمام المحاكم الشرعية ويصبح أولاده غير شرعيين Mwana hatamu إلا إذا حصل على هذا الاذن ، ولـكن العـكس يحدث بطبيعة الحال أمام المحاكم المدنية .

(١) يعلق الأستاذ R. B. Serjeant فيقول « هذا التعبير ولاشك ناتج من التسمية التى يطلقونها فى جنوب الجزيرة على طبقة الغيرقبائليين التى يدخل فيها تلقائيا العبيد المحررون . والحضرميون الغيرقبائليين غير السادة المشايخ — يسمون المساكين . »

والحقيقة أنه كان هناك نوعان من العبيد المحررين وسلالتهم ؛ أولئك الذين أقاموا وضعهم الحر الجديد ، وأولئك الذين لم يفعلوا ، والزواج من الفئة الأخيرة هو الذى لا يسمح به إلا بإذن . وكثير من عبيد الأرض المحررين « مدنيا » مازالوا ينسبون أنفسهم الى سادتهم السابقين ، إلا أن تلك الصلات قد أصبحت واهية وضعيفة بعد نفـــور الجيل الجديد من الوضع المزرى الذى يترتب عليها .

والمدن التى طبعت نظام المستوطنات فى الجزر والساحل ، وتلك التى قامت بعد ذلك فى عهد السلطان بو سعيد والحكومات المستعمرة ، بطابعها ، لم تهتم كثيراً ، بل أنها حتى لم تحاول أن تعدل من أساس تلك القواعد الاجتماعية ، ذلك أنها قواعد تحكمها القوانين والعادات القبائلية وليس القوانين التى وضعتها الحكومات المستعمرة ، أما التغيرات التى يمكن أن نراها الآن فترجع إلى عوامل اجتماعية أخرى . وكل الذى قامت به الحكومات الاستعمارية أو حكومة بو سعيد ، هو أنها عدلت ما استطاعت فيما له علاقة بالحكومة الاقليمية ومنها مارأينا من اخضاعها للقرى وادخالها فى نظامها الادارى .

٢ — العلاقة بين الاسلام وعادات البانتو :

(ا) تلاقى البانتو بالقانون الاسلامى :

للوجه الاجتماعى من الاسلام نقط التقاء قليلة بعادات البانتو وقوانينهم ، سواء كانت القبيلة ينتسب أفرادها إلى الأب أو كانوا ينتسبون إلى الام ، وخصوصا مع الاخيرة .

فبينما نجد قوانين البانتو جماعية بطبعها ، فان القانون الاسلامى ، قانون فردى برغم اتجاهه الاجتماعى نحو الجماعية . ومع ذلك فإنه فى الوقت الذى

نرى فيـــه ضخامة النتائج التى أدى إليها اعتناق الإسلام ، فإننا نلمس أن تأثيره الاجتماعى المباشر ليس فى نفس القوة، ولو اتيح له الوقت الكافى ، لـكان ولا شك ، قد غير من العادات القديمة وطبعها بطابعه ؛ إلا أن هناك عوامل لم تسمح بذلك بين شعوب البانتو فى شرق أفريقيا ومن هنا أصبحت التغيرات الإجتماعية التى نراها تحدث بينهم ترجع فى المقام الأول إلى تأثير وجود الغرب فى المنطقة .

ويظهر تأثير الإسلام على الحياة الاجتماعية فى أقوى صوره ومعانيه بين مجتمعات المدن الحضرية المتمدينة ، ولـكنه من ناحية أخرى يبدو ضعيفاً بين الزراع والرحل . والذى يهمنا هنا فى هذه الدراسة عن شرق أفريقيا فئتان: سكان المدن ، والزراع فقط ، فالصوماليون — وهم المسلمون الرحل الوحيدون فى شرق أفريقيا — ينتمون إلى الحاميين من مسلمى القرن الشرق . ولقد غير سكان المدن من أنفسهم وتحولوا إلى الشكل الطبيعى للمجتمع الإسلامى ، أما الزراع فقد استمرت صلة القربى ، بالعائلة أو بالقبيلة مع القواعد الاجتماعية التقليدية ، هى التى تـكون الأساس الأول للتماسك الإجتماعى بينهم .

واعتناق العناصر الدينية البحتة من الإسلام لا يؤدى إلى خلق صعوبات جوهرية سواء فى الناحية الدينية أو فى الناحية الاجتماعية، لأنه يمكن اعتناقها — كما رأينا — جنباً إلى جنب مـع الشعائر المحلية ، وحتى الشعائر التى حلت محل الشعائر القديمة أمـكن اعتناقها دون متاعب تذكر ، ولـكن الحال يختلف عندما يصبح الأمر متعلقاً بالقواعد العائلية أو قانون المواريث ، وهو أهم العناصر الإسلامية الإجتماعية ، ولو طبق لـكانت النتيجة صراعاً فى العائلة وتفـككاً لها. أما كل ما يتعلق بالزواج وحياة الأسرة فتحكمه قواعد الفقه ، وبرغم تسامح السلطة القانونية فى المجالات الأخرى ، إلا أنها تصر فى هذا المجال على تطبيق الشريعة وأحكامها .

والأسرة أكثر الأشكال الاجتماعية قدسية فى الإسلام ، وهى كذلك عند البانتو ، ومع ذلك يختلف شكل الاسرتين ، ذلك أن الاسرة الاسلامية هى الاسرة المحددة التى تضمها جدران البيت الواحد ، بينما الاسرة عند البانتو هى الاسرة الممتدة التى تشمل النسب جميعه ، والنساء لا يرثن عند البانتو ويرث المتوفى أقرباؤه حتى فى وجود أنجاله، أما فى الإسلام فالنساء يرثن ويحجب الابن الأقرباء ، ويقف الدين حائلا دون الميراث ، فلا يجوز لوثنى أن يرث مسلماً ومع ذلك فالذى يحدث هو أن المحاكم القبائلية تسير فى مثل تلك الأمور على القواعد القبلية فهى تعترف بالزواج القبلى وحقوق الارث دون أن يكون للدين دخل فى ذلك ، ودون ما نظر إلى ديانة الوارث والمورث . كذلك يختلف موقف كل من الإسلام والبانتو تجاه الحقوق على الأرض ، فالاسلام يسمح بملكية الأرض الفردية ، حتى ولو كان مالكها غائباً ، كما أن استغلال الأرض ، التى لامالك لها يعطى لمستغلها حق تملكها بوضع اليد ، أما البانتو فلا يملكون الأرض لافراد ، والعائلة كلها من الجد إلى الاحفاد — وذلك هو شكل العائلة عند البانتو — لها قطعة من الارض تزرعها وتكتسب بذلك حق إشغالها فقط ، إلا أن الملكية الفردية قد أخذت تتطور وتنتشر عندهم أخيراً بسبب ماقامت به الحكومة الاستعمارية والتشريعات التى سنتها وليس بسبب تأثير الاسلام ، أما السواحيليون فهم يعترفون بالملكية الفردية مع أنهم قليلا مايمارسونها ، ذلك أن فكرتهم عنها قد تأثرت إلى حد ما بافكار البانتو حول الحقوق على الارض .

(ب) تأثير الاسلام فى مجتمع البانتو :

يشاهد تأثير العادات الاسلامية التى جاءت بها الثقافة السواحلية فى شعوب

البانتو الذين وصل الإسلام إليهم وانتشر بينهم خلال المائة سنة الأخيرة ، فلقد أصبحت قبائل عديدة « أبوية » ، الوالد فيها هو رب الأسرة وينسب الأطفال إليه ، مع حصر الأرث فى الذكور ، بينما ظلت قبائل أخرى « أموية » الأم فيها هى رئيسة الأسرة والأطفال ينسبون إليها . ولم تظهر الأسرة فى صورتها الإسلامية — الزوج والزوجة وأولادهما — كوحدة مستقلة سوى بين من أصبحوا سواحليين من البانتو على ساحل تنجانيقا (السيجيجو ، والزارامو والقسم الساحلى من قبائل زيجولا وجيرانهم). وكلا النوعين من القبائل — أبوى وأموى — يتعايش كل منهما مع الآخر بين قبائل النييكا ، أما بين قبائل الديجو ، فالرجل ينتمى إلى أسرة والدته من ناحية الميراث ، والميت يرثه أولاد شقيقته ، فان لم يكن لها أولاد يؤول ميراثه إلى أسرة والدته ، ومن هنا كانت محاولة نشر قانون التوريث الإسلامى وتنفيذه بين تلك القبائل ، سبباً فى مشاكل ومتاعب عديدة لهذا المجتمع ، فالقليلون منهم الذين اعتنقوا النظام الأبوى فى قبائلهم ، أصبحوا فى نزاع مستمر مع زملائهم من « الأمويين » حول التوريث ، وتؤيدهم المحاكم الشرعية فى دعاوى الميراث ان أحيل النزاع إليها ولقد بلغت سيطرة الأم فى هذا النظام حداً يقال معه أن الخال هو الذى يعطى الموافقة على زواج البنت برغم أن ثمن العروس المتعارف عليه يدفع لوالدها .

ولقد انتشر الإسلام بين عدد من القبائل « الأموية » وهى قبائل الياو والايرامبا والايرانجى والزارامو واللوجورو وخوتو وكويرى ، وغيرها من قبائل تنجانيقا ، وتمر تلك الشعوب الآن فى مراحل مختلفة من مراحل التغيير فبينما نجد الإنتساب عند الزارامو مثلا هو إنتساب أموى ، نرى أن التوريث لديهم أبوى ، وعلى ذلك فان الصراع مع القانون الإسلامى عندهم أقل منه عند قبائل الديجو ، أما غيرهم من قبائل تنجانيقا فان العديد منها قد تفكك أو

تأثر بصورة أو بأخرى باحداث القرن التاسع عشر وهذا هو السبب فى التغيرات الإجتماعية التى يمرون بها حتى اليوم .

وبرغم ان الاسلام أصبح من علامات قبائل الياو المميزة ، فانه لم يكن فى يوم من الأيام عميقاً[1] بينهم كما سبق وأشرنا ، فلم يكن له تأثير يذكر كقانون دينى على عاداتهم وقوانينهم الاجتماعية ، فالتوارث أموى يؤول إلى الابن الأكبر للأخت الكبرى . والزواج بلا مهر وينتقل الزوج إلى مسكن الزوجة (عكس المعتاد) ، والترتيبات والمفاوضات وغيرها من الأمور الخاصة به هى مسئولية اكبر الاعضاء فى اسرة الام ، والاسماء العائلية تتوارث من خلال الفرع الانثوى من الاسرة وهى لا تتغير لانهم لا يتزوجون من غرباء وينتمى الاطفال وينسبون إلى فرع او عائلة امهم . وحل الزواج او انهاؤه يتم وفق القانون المعتاد . اما العقد الإسلامى فيتم فى المراكز القليلة التى يوجد فيها المأذون (المعلم) لتسجيل الزواج من الناحية الاسلامية بعد ان يكون قد تم قبل ذلك فعلا حسب عاداتهم الاصلية Chingoswe ، والتغيير مستمر ، فالياو ينتقلون كثيراً وإلى بعيد والذين يعملون منهم فى مزارع السيزال (الجوت) او فى اماكن اخرى على الساحل يتأثرون بطبيعة الحال بعادات القبائل فى تلك المناطق، وزعماؤهم اصبحوا لا يقيمون ابدا فى قرى زوجاتهم وهم يعملون ضد النظام الذى يحرم ابناءهم من خلافتهم فى الزعامة ، فعندما توفى كاندولو الرابع Kandulu زعيم قبيلة اما زينجا(ياو)فى مقاطعة تدوندورو بتنجانيقا عام ١٩٤١ اكتشفوا انه عين ابنه لخلافته ، ولكن الذى خلفه فى

(١) بالاضافة إلى المعلومات التى تم الحصول عليها محليا فان تلك الاشارة وردت فى كتاب :
Peoples of the Lake Nyassa Region 1950.
وفى كتاب The Yao Village طبعة ١٩٥٦ للأستاذ J.C. Mitchell

الواقع هو ابن خالته وقد توفى هذا الاخير عام ١٩٤٦ وخلفه ابن خالته هو الآخر. وإذا تم العقد وتسجيل الزواج يصبح للزوج الحق الشرعى فى ان يطالب زوجته بالاقامة فى مكان الزوجية، وهناك عدد من الامثلة بين الياو وغيرها من القبائل الجنوبية تكون الأم فيها مسيحية والأب مسلم[1]. وطالما أن الأولاد يتبعون والدتهم فمن الطبيعى فى هذه الحالة أن يتم تعميدهم دون معارضة الأب، إلا أنه يحدث أحياناً أن يثور الخلاف بسبب تأثير رجال الدين على الزوج لكى يطالب بتبعية الأولاد له على الأقل فى الناحية الدينية.

ولقد كان الإسلام يشكل تهديداً للمجتمع الوثنى خلال الفترة التى كان محصوراً خلالها بين المجموعات السواحيلية فقط، إلا أنه منذ انتشاره فى الداخل قل هذا التهديد أو توقف برغم إستمرار قيام بعض الخلافات، ولا يعارض الكبار فى إعتناق الإسلام لأن اتباع بعض الملامح الدينية الغريبة لا تحدث صدعاً فى المجتمع فى مراحلها الأولية، فالقبائل الإسلامية تظل على وثنيتها اجتماعياً وتستمر فى أداء طقـــوس استعطاف أرواح الجدود وتشترك فى القرابين الجماعية الضرورية لصالح الجماعة، كما تظل نساؤها وثنيات، أما الأطفال فيتعلمون تراثهم القبلى فى سنواتهم المبكرة، ولا يقوم اختلاف الديانة حائلا دون التزاوج ويمكن أن يتوارث الوثنيون زوجات أقربائهم المسلمين بعد وفاتهم.

ومع ذلك فإن الديانة هى علامة مميزة فى نفس الوقت لمن يعتنقها، فالمسلمون يعرفون بزيهم وعاداتهم فى دفن موتاهم. والواقع أن القانون الإسلامى مازال يهدد العادات المحلية إذ يثير اتباع قواعده فى الزواج والوراثة نزاعاً بين المسلم

---

(١) المسلم الذى يرغب فى الزواج من مسيحية عليه احيانا أن يغير ديانته، وقد ذكرت حالة حيث تحولت شقيقتا الزوج وزوجاهما إلى المسيحية لهذا الغرض.

ورفاقه الوثنيين ، وعلى العموم تسود هذه القواعد الإسلامية بالذات فى المجتمعات السواحيلية ومنها أولئك القبليين الذين انفصلوا عن قبائلهم بسبب اعتناق الإسلام فى الماضى والذين يعيشون فى بعض المناطق الساحلية من أوجيجى ، وبالاختصار يمكن القول بأن القواعد الإسلامية تتبع فقط فى الجهات التى توجد فيها المحاكم الشرعية ، وحتى فى تلك المناطق ترى الأسرة تبذل ما فى وسعها فى سبيل حل منازعاتها ضمن دائرتها العائلية حتى تتجنب إحالة تلك المنازعات على المحاكم .

وفى الحالات التى يصبح فيها عدد كبير من أفراد القبيلة مسلمين ، نجدهم يتجاهلون التشريع الإسلامى ويتفادونه ، والمثل على ذلك هم الياو، فقد اعتنقت تلك القبائل الإسلام بصورة غيرت من مظهرهم الدينى حتى أنه أصبح جزءاً من تراثهم وتقاليدهم ، ومع ذلك لم يكن للشريعة الاسلامية إلا تأثير ضئيل على عاداتهم ، واستمروا قبائل « أموية » بكل ما لذلك من نتائج وآثار ، ولا نرى بينهم الصراع الحاد الذى نراه فى قبائل الديجو وخاصة بين القواعد الاسلامية وبين ما يقابلها من العادات القبلية فى قبائل النييكا الأخرى . ورفض الياو أن يسمحوا للمشرعين الساحليين بأن يؤثروا فى عاداتهم فى الوقت الذى كان المشايخ فيه يقومون بالضغط على الديجو تؤيدهم السلطات الحكومية، وكذلك الصوماليون وهم أكثر المسلمين تعصباً فى المنطقة ، يتبعون عاداتهم الأصلية إلى الحد الذى يمكن القول معه باستبعاد التشريع الاسلامى فى هذا الميدان .

وحاول القضاة أحياناً أن يفرضوا بعض نواحى القانون الإسلامى على الذين اعتنقوا الإسلام فخلقوا بذلك حزازات فى المجتمع أساسها الدين ، وترجع مقاومة قبائل الديجو للقواعد الإسلامية فى التوريث[١] إلى أن تقسيم الملكية

---

(١) فى العقد الاول من هذا القرن بذل قاضى واسينى ما فى وسعه لاقناع الكوبو =

على الورثة بالصورة التى يحددها التشريع الإسلامى يؤدى بدوره إلى إضعاف الجماعة نفسها وتقسيمها ، ولقد شعر أحد المسئولين بتلك الخلافات عندما كتب يقول : « من الخطأ اعتبار الديجو أو أى فرع منهم مسلمين من ناحيةسياستهم الإدارية فهم أساساً من النييكا، وتمييز المسلم فيهم من الوثنى لن يؤدى إلا إلى انقسامات لا مبرر لها فى القبيلة » .

وبينما ينادى معظم أفراد قبائل الديجو بأنهم مسلمون واستطاعوا مع ذلك مقاومة تطبيق القانون الإسلامى ظلت غالبية قبائل الجيرياما Giryama وثنيين ، أما الأفراد الذين اعتنقوا الإسلام فقد أصبحوا محاجى mabaji بلا قبيلة ، وفى الموضوعات الخاصة بهم التى تعرض على المحاكم يعتبر القضاة إسلامهم هو الفيصل ويتجاهلون القانون القبلى حتى ولو كان هؤلاء الأفراد أنفسهم يرغبون فى تنفيذه ، ولقد أدى الاعتقاد بأن الشخص باعتناقه الإسلام ينفصل عن قبيلته ، بمعنى أن يصبح لا سلطان لقانون القبيلة وعاداتها عليه أمام المحاكم الدينية ، إلى عواقب وخيمة ، ذلك أنه لا يمكن ترجيح كفة العادات القبلية فى أى نزاع قانونى على كفة القانون الإسلامى ، وبالتالى فلو تركت زوجة من الجيرياما مثلا زوجها وتزوجت مسلماً أمام القاضى فلن يعترف القاضى بشرعية زواجها القبلى فلا يستطيع زوجها الوثنى أن يطالب باسترداد «ثمن العروس»[(١)] الذى سبق أن دفعه ، ومن المحتمل أن يكون ذلك هو السبب فى بطء انتشار الإسلام بين قبائل النييكا مع أنه انتشر بسرعة بين غالبية الديجو مثل الزارامو

=(زعيم الديجو المتوارث) باتباع قواعد الشريعة بدلا من قانون الديجو. ومنذ ذلك الحين قام غيره من القضاة والولاة بتجديد المحاولة ، وبرغم أن تلك المحاولات ذهبت ادراج الرياح الا أنها على كل حال كانت سببا فى النزاع بين الأفراد وبين المسئولين فى القبيلة .

(١) ويدفعه عادة والد العريس لأنه لا يصرح لاحد من الجيرياما بالتملك الا بعد الزواج، ويظل ديناً يؤديه العروسان سواء بالعودة إلى قرية والد العريس للعمل عنده وفاء للدين ، أو بمنحه ابنه .

والماتومبي وغيرها من قبائل الساحل لأن انتشاره بين هؤلاء لم يكن يعنى الانفصال القانونى عن القبائل — على الأقل فى تنجانيقا — واستطاعوا أن يحتفظوا بعاداتهم كما هى . وهنا يثور التساؤل عن مدى عمق تأثير الإسلام فى المستقبل على هؤلاء المسلمين الجدد فى الوقت الذى يتعرضون فيه لجميع أنواع المؤثرات الجديدة التى تؤثر فى حياتهم القبلية !

(حـ) الأرض والملكية :

وموضوع الأرض وحقوق الملكية موضوع معقد يتعارض فى مجاله القانون الاسلامى مع عادات البانتو وقوانينهم ، ولقد أصبح الخلاف حول تلك المسائل حاداً بعد سيطرة الأوروبيين على تلك المناطق ، ففى ظل قانون البانتو لا يصرح للفرد بتملك الأرض بل أن سلطة القبيلة أو المسئولين فيها يمنحون الأرض للاسرة لتقوم بزراعتها ، ومن الممكن أن تمنح الأرض للغرباء كما صرح بذلك للعرب بشرط تقديم الهدايا بصورة منتظمة إلى المسئولين فى القبيلة ، وقد زرع هؤلاء أشجار جوز الهند وغيره من المزوعات مستخدمين العبيد فى ذلك دون أن تصبح الأرض ملكا لهم ، ويمكنهم فقط بيع المحاصيل أو ناتج الأشجار ، وعندما سيطر الانجليز والألمان على هذه المناطق وجاءوا بأفكارهم حول الملكية الفردية ظهرت جميع أنواع المشاكل والعقبات ، ففى جزيرتى زنجبار وبمبا ، وفى مقاطعات كيلوا وليندى وميكيندانى على ساحل تنجانيقا أدى تأثير الاسلام إلى التغيير فى حيازة الأرض وذلك بالاعتراف بحقوق الفرد ، ولقد امتدت تلك الحقوق الآن إلى الأرض نفسها ، وفى ساحل كينيا تسود حالة من البلبلة والتخبط حول أراضى المسلمين بسبب هذا التصارع بين القوانين ، وقد أوضح الأستاذ جولد ميدلتون فى دراسته لمبادىء حيازة الأرض وزراعتها وحصادها بين الحاديميين فى زنجبار ، أنه

لا القانون الاسلامى ولا القانون الانجليزى كانا مقبولين بسبب بعدهما عن النظام الوطنى القديم ، إلا أن الضغوط الاقتصادية الحديثة تلعب دوراً فى الوقت الحالى لتحطيم هذا النظام العتيق(١) وتفتيته . ولتجنب تقسيم الأرض إلى ملكيات صغيرة نتيجة للتوارث فانهم فى بعض المقاطعات الاسلامية فى تنجانيقا مثل موهيزا وبانجانى Pangani ، وكوروجوى حيث يعترف بالملكية الفردية ، يقسمون المحاصيل وناتج الأشجار دون الأرض نفسها(٢) ومع ذلك فقد حدث بعض التفتت فى ملكية الأرض فى أوزامباراويذوالا(٣) وقد أدى حظر بيع الأرض لغير الوطنيين إلى التساؤل حول موقف العرب وبمقتضى بعض التشريعات(٤) يعتبر من غير المواطنين كل من يجرى فى عروقه الدم العربى بينما يعتبر العربى مواطناً بمقتضى قانون الملكية وتفريعها (فصل ٦٧ قوانين ، الفقرة ٢ : ٨) وكان من نتيجـــة ذلك أن أصبحنا نرى الأفارقة العرب ، كثيراً ما يلجأون إلى تغيير تكييفهم القانون تجنباً لتلك المشاكل .

ويمكن القول بصفة عامة أن التغيرات التى حدثت ، أياً كانت ، ترجع إلى التغيرات التى طرأت على الظروف والأحوال وإلى القواعد والقوانين الادارية أكثر منها إلى الاسلام وتأثيره ، فالفرد أصبح شخصية قانونية أمام

(١) أنظر كتاب Land Tenure in Zanzibar 1961. p. 69. للأستاذ جون ميدلتون J. Middelton
وحقوق الكيتونجو Kitungo وهى حيازة مجموعة عائلية لقطعة من الأرض يمكن أن تورث أو تباع دون الارض نفسها إذا وافق جميع الاعضاء ، والكتيونجو يشبه الوقف لأنه يقال عادة أن اقتسام الحقوق الجماعيه بالتساوى بين مجموعة من الاقارب يأتى نتيجة لوصية مالك الأرض الأصلى أو لكلماته الاخيرة بأن الملكية سوف تنتقل باستمرار إلى مجموعة من سلالته [نفس الكتاب لجون ميدلتون ص ٢٤]

(٢) تبعا للقانون الاسلامى فان الزوجات والوالدين يمنحون نسبة معينة من الميراث قبل أن يؤول إلى الورثة من العصب وذلك يتم فعلا عن طريق بيع المحاصيل .. الخ .

(٣) Tanganyika Notes & Records 1957. pp. 137—138.

(٤) قانون حيازة الأرض (الفصل ٦٨) — قانون تسليف المواطنين لعـام ١٩٢٣ وقانون ضريبة الرءوس لغير المواطنين .

المحاكم الجديدة ، ومع ذلك فإن رجال القبائل نادراً ما يعارضون القانون التقليدى كما تطبقه المحاكم الأفريقية ، أما الذين انفصلوا عن قبائلهم فانهم قد يسعون إلى نقل النزاع إلى محكمة أخرى .

أما نظام الوقف بشقيه ، الخيرى ، والاهلى بأنواعه(١) ، فمعروفان فى زنجبار ، ولـكن على الساحل لا يوجد سوى النوع الخيرى ، أما فى الداخل فلا يوجد أى من النوعين ولذلك فإن المساجد وغيرها من المنشآت الجماعية تدخل ضمن قانون الجمعيات(٢) .

ومن الملامح التى تدهش الزائر لشرق أفريقيا هو أن البانتو لا يعيشون فى قرى بمعناها المعروف ، فـكل مجموعة من عائلة تسكن الارض التى تزرعها منفصلة عن جيرانها ، وعندما يشار إلى قرية ما فان ذلك لا يعنى المـكان وإنما يعنى تلك المجموعات المتناثرة ومجموعة من جيرانها، وقد يمكن أن يتغير هذا الطابع بسبب أحداث تاريخية والاحساس بالحاجة إلى الامن والطمأنينة او بسبب ظهور زعامة معينة ، إلا انه عندما تزول تلك الظروف ولا يعود لها وجود فانهم يعودون من جديد إلى الطابع المعتاد لحياتهم وطريقة معيشتهم فالزارامو مثلا يعيشون فى بيوت متناثرة ولـكنهم فى القرن التاسع عشر ، عندما هدد امنهم ولم يعودوا قادرين على العيش متفرقين وظهرت لديهم الحاجة إلى التجمع ، انشاؤا لانفسهم قرى محكمة يمكن الدفاع عنها ، وعندما ساد

(١) هناك نوعان من الوقف: الشرعى أو الخيرى ، والعادى أوالاهلى. والثانىهو امتداد للنوع الاول .

(٢) J.N.D. Anderson للأستاذ Islamic Law in Afria. p.63-65,77-78 وحول الفرق بين قانون الاباضية وقانون الشافعية حول الاوقاف أنظر نفس الـكتاب ص ٩٣ — ١٤٥ — ١٤٦ .

السلام وعادت الظروف إلى ما كانت عليه من قبل تحولوا من جديد إلى حياتهم الاولى فى أماكن استيطانهم المتناثرة . وكذلك فعلت قبائل النييكا ، فلكى تحمى نفسها من غارات قبائل الجالا Galla اضطرت ان تعيش فى قرى محكمة تحوطها الغابة من جميع الجهات ثم تحولت بعد ذلك عندما توقفت تلك الغارات إلى التفرق من جديد .

ويميل المسلمون إلى التجمع حول مركز معين فى قريتهم وهو ما ينقص الحياة القبلية عند البانتو ، فالقرية عند الياو عبارة عن مجموعة من الاكواخ المتشابهة المتناثرة إلا أنهم فى مثل هذه القرية يتطلعون إلى منزل شيخهم والمسجد المجاور له — وعادة ما يكون « جامعاً » — كمركز يلتفون حوله، برغم أنهم نادراً ما يؤمون هذا المسجد أو الجامع إلا أثناء ازدياد الشعور بالتقوى والورع لديهم خلال شهر رمضان .

ولقد سبقت الإشارة فى هذا الكتاب إلى امتزاج العناصر الاسلامية مع البانتو داخل النظام الحكومى السواحيلى ، وطالما أنه لم يكن للبانتو دول فى أى وقت من الأوقات بالقرب من الساحل ، فانه لا مجال للقول بأن الاسلام كان سبباً فى هدم الأنظمة الحكومية القديمة ، فحيث كان ينشأ نظام حكومى طبقاً لما تتطلبه الاحتياجات التجارية ، فإن القوانين الاسلامية كانت تتداخل فيه بسهولة ويسر (أنظر « وصف مقديشو » لابن بطوطة) ، ويهدم الاسلام الانظمة القديمة فقط فى حالة ظهور عوامل أخرى من شأنها أن تؤدى إلى التغيير ، أو إذا قامت دولة إسلامية بحتة كما فى غرب أفريقيا .

ولا شك ان انتشار الاسلام ادى إلى انهاء بعض القواعد والقوانين القديمة . فلقد كان لدى جميع قبائل النييكا نظام تصل الأجيال المتتابعة بمقتضاه

إلى السلطة السياسية ، ولكن هذا النظام اختفى تماماً بين قبائل السيجيجو Segeju بعد اعتناقهم الدين الإسلامى ، كما أن مجلس كبار المقاطعة Ngambi آخذ فى الاختفاء هو الآخر بين قبائل الديجو[١]، أما نظام الحكومة السواحيلية فى زنجبار فقد تم هدمه وتغييره فى عام ١٨٧٠ ومع أن هذه التغييرات وغيرها تمت فى ظل الحكم الأوروبى إلا أن الإسلام قد يكون سبباً من أسباب هذا التغيير .

وما زال التصارع قائماً بين قواعد الإسلام فى التوريث وبين نظام البانتو وعاداتهم التى تحكم التوارث بصفة عامة ، ، والخلافة فى مشيخة القبيلة أو زعامتها بصورة خاصة ، ويقال أن قصة ليونجو Liyongo هى التجسيد الأسطورى للصراع بين نظام البانتو « الأموى » والنظام « الأبوى » فى الإسلام[٢]، ففى هذا الصراع تغلب داوود وهو ابن اخت الحاكم السابق لمدينة شانجا فى جزيرة باتى على البطل ليونجو الابن الأكبر لنفس الحاكم وخلفه فى حكم المدينة لأنه بحكم كونه ابن اخته يعتبر فى قانون البانتو الوريث الشرعى والوحيد له !

---

(١) بسبب انتشار الاسلام بين الواديجو Wadigo (شعوب قبائل الديجو) ، تقل عضوية هذا المجلس بسرعة ولا ينضم احد اليه فى هذه الايام ، فطقوس تناول نبيذ جوز الهند فى احتفالاته وفى شعائر الدفن تلقى معارضة من المسلمين وهى المصدر الرئيسى لاختفاء هذا المجلس التدريجى، واعضاؤه الحاليون هم بقايا العجائز الحاليين ويظن أن المجلس لن يعيش أو يبقى بعد إنتهاء هذا الجيل .

H.M.T. Kayamba "Notes on the Wadigo", Tanyanyika Notes & Records No. 23 June 1947. p. 84.

(٢) أنظر كتاب Swahili Poetry. p. 51. للأستاذ ليندون هاريس

٣ — تطبيق القانون الإسلامى :

تكررت الإشارة فى أكثر من مكان فى هذا الكتاب إلى تداخل القوانين الإسلامية مع عادات وقوانين البانتو وكيف انها فى بعض المناطق تتعايش معاً وتسير كل منهما جنباً إلى جنب وبالتوازى مع الأخرى ، وليس علينا الآن سوى الإشارة إلى مجالات تطبيق القانون الإسلامى فى أراضى شرق أفريقيا[١] ، والقانون يعطى مجالات ثلاثة :

(ا) القانون الموضوع Siyasa : وهو عبارة عن القواعد والقوانين التى تسنها السلطة الحاكمة سواء كانت مسلمة كما فى زنجبار أو أوروبية ، أو كانت حكومة مستقلة حديثة ، ويسمى هذا المجال بصورة عامة Kanuni وأحياناً Sharia ya chuo أى القوانين والتشريعات المكتوبة.

(ب) القانون الإسلامى : وتختلف مجالات تطبيقاته ومداها باختلاف المناطق .

(ج) العرف : وهو يرقى فى معظم أراضى شرق أفريقيا إلى مرتبة القانون الأساسى بعد أن عدلته الشريعة الإسلامية حتى يمكن للمسلمين اتباعه ، وهو يسمى « العادة » أو « الملة » mila أو « شريعة الأرض » Sharia ya nchi وتسميه قبائل الباجون Bajun ، « الدستور » desturi أو القواعد Kawaida كما فى المثل : « العرف هو كالقانون المكتوب » Kawaida ni Kamo Sharia .

وبينما تختلف القوانين التى يسنها الحاكم فى منطقته عن الأخرى ، وبينما

---

(١) لا نحتاج إلى أكثر من ذلك هنا خصوصاً وإن هناك دراسة أساسية للموضوع بالتفصيل فى كتاب «القانون الاسلامى فى أفريقيا» طبعة ١٩٥٤ للاستاذ J.N.D.Anderson

يتباين العرف ويختلف هو الآخر باختلاف الشعوب والبيئة التى يعيش فيها ، لا تختلف العلاقة بين تلك المجالات القانونية الثلاث بل انهما تتشابه فى كل مكان حتى ولو كان قانون الدولة هو القانون الإسلامى كما فى زنجبار. فالعادة تتماسك وتحتفظ بمكانتها رغم وجود الشريعة — وقد تدخل الأخيرة عليهما بعض التعديلات — ولا تنفذ إليها إلا التغيرات الاجتماعية الحادة .

وفى افريقيا لا تنفصل السلطة التنفيذية عن التشريعية بينما الإسلام يفصل بين السلطتين ، ولقد قصر الحكام المسلمون السلطة القضائية على المحاكم الشرعية وطالما انها تطبق فقط قوانين الأحوال الشخصية ، فإنها بذلك لا تشكل افتئاتاً على سلطة الحاكم ، وعدم الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية يظهر فى تنجانيقا فى الداخل ، حيث يجلس الولاة جنباً إلى جنب مع مشايخ القبائل ورجالها الكبار عند حل المنازعات ، وواضح أن الولاة يمثلون السلطة الحكومية التنفيذية ، ومشايخ القبائل هم فى حكم السلطة التشريعية ، أما فى المناطق الساحلية فبرغم أن الولاة يجلسون بمفردهم إلا أنه يوجد إلى جوارهم مساعدون ، وفى بعض المناسبات ، مستشارون فى القانون الوطنى والعرف ، وعلى العموم فإن الاتجاه الحالى يسير نحو فصل السلطة التشريعية عن زميلتها التنفيذية .

ولقد صنف الأستاذ اندرسون تطبيق القانون الإسلامى فى افريقيا تحت ثلاثة درجات : الأولى هى اعتباره القانون الأساسى للدولة ، والثانية هى أن يكون القانون السائد فى الدولة . والثالثة هى أن يكون قانوناً خاصاً[(١)] . فلقد اتخذ القانون الإسلامى فى زنجبار قانوناً أساسياً للدولة رغم انه فى الواقع قد زحزح عن مكانته بواسطة المراسيم التى أصدرها السلطان[(٢)] ، وكذلك

(١) كتاب الأستاذ J.N.D. Anderson Islamic Law in Africa 1954.p.5

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ — ٦١.

حدث فى الشريط الساحلى فى كينيا الذى كان واقعاً من الناحية الإسمية تحت حكمه . وتعتبر المحاكم الشرعية فى هذا الشريط وفى زنجبار ، جزءاً من السلطة القضائية ، وقد أدخلها السلطان برقش فى المناطق الوطنية من زنجبار ، وكان من نتيجة ذلك أن عدل تطبيق المذهب الشافعى تطبيقاً تاماً من « الملة » القديمة فى المجالات المحدودة التى كانت تطبق فيهــا . أما فى كينيا ، فنرى القانون الإسلامى مطبقاً فى محاكم الولاة والقضاة والمديرين ، وذلك فى الشريط الساحلى المشار إليه ، أما بعيداً عنه حيث تسود العادات والقوانين القديمة فيعتبر القانون الإسلامى قانوناً خاصاً مرتبطاً ببعض الأسر والأفراد ، ولا توجـد المحاكم الشرعيـة إلا فى ايزيولو فى المقاطعـة الشمالية وفى المركز التجارى ماميا Mumia وفى مقاطعة نيانزا . أما فى تنجانيقا فهو مطبق باعتبـاره القانون السائد فى بعض أجزائها ، وفى باقى الأجزاء الأخرى يعتبر قانوناً خاصاً تطبق أحكامه على من يطلبها من الأطراف المتنازعين ، وتطبقه محاكم الولاة الموجودة على الساحل وفى بعض المراكز الداخلية مثل أوجيجى ، وموانزا ، ودودوما ، وتابورا . وهذه المحاكم تعتبر جزءاً من نظام المحاكم الوطنية وبذلك فلها الحرية فى تطبيق القواعد الإسلامية ، أو قواعد العرف السائدة القديمة سواء فى الناحية الإجرائية أو القانونيـة ، ولا توجد فى بوجندا (إحدى مقاطعات أوغندا) محاكم إسلامية ، ولذلك فإن زعماء المسلمين يطبقون الأعراف القديمة شأنهم شأن غيرهم من المتقاضين ، إلا أنه من الطبيعى أن يؤخذ فى الحسبان الاعتراف بالزواج والطلاق الإسلاميين باعتبارهما من الروابط الملزمة تحت أحكام القانون[١]

والقضاة فى غرب افريقيا أكثر تفتحاً فى اتخاذ قراراتهم القانونيـة من

---

(١) انظر قانون الزواج والطلاق عند المسلمين عام ١٩٠٦
The Marriage and Divorce of Mohammedan's Ordinance 1906.

زملائهم فى الشريط الساحلى الكينى ، فهم لا يتعنتون مثلا لأن زيداً من الناس قد أصبح مسلماً ، فيكون بذلك قد فقد حقه فى تحكيم قانون القبيلة ، كما انهم يقبلون العرف فى مجاله الواسع حيث لا يكون متعارضاً مع القانون الإسلامى ، ونتيجة لذلك فإننا نرى المتنازعين فى غرب افريقيا أكثر إقبالا على الالتجاء لمحاكم القضاة — وهى غير محاكم الولاة — من أقرانهم فى شرق افريقيا ، ومن المحتمل أن يكون السبب فى هذا الفرق بين القضاة فى المنطقتين هو شعور القضاة فى غرب افريقيا بأنهم ينتمون إلى نفس الشعب الذى ينتمى إليه الأهالى رغم انهم قد لا يكونون من نفس قبيلة المتقاضين ، بينما فى شرق افريقيا يشعر القضاة بأنهم من جنس آخر ليسوا أفارقة بل عرباً ، ولقد انتقلت تلك النظرة فى تطبيق القانون الإسلامى على كل من يسمى نفسه مسلماً إلى المأذون أو الشيخ (المعلم Mwalimu) الذى قد يؤخذ رأيه ولو نادراً على مستوى حياة القرية حيث تسوى معظم المنازعات ، وفى هذه الحالة فإن المأذون لا يجد لنفسه قدوة مثل الذى يجدها زميله فى غرب افريقيا فى تأثير رجال الدين الذين يصلون فى بعض الأحيان إلى حل وسط بأن القانون الإسلامى لا ينطبق على بعض الحالات . كما أن معلم الكتاب يشرح ذلك لتلاميذه ولكنه يتردد فى الإشارة به ان أستشير أو يعجز عنه ، ومن ناحية أخرى نرى الولاة أكثر تسامحاً لأنهم غير متمرسين فى تفاصيل القانون الإسلامى وتطبيقاته[(١)] .

ويحلف اليمين فقط فى حالة تقصير الشهود أو غيابهم ويتم ذلك عادة فى المسجد ، ولا يتسم القسم بالقرآن بالقدسية والرهبة اللذين يتسم بهما فى مناطق أخرى من القارة الافريقية[(٢)] ، أما فى المآزق أو فى الأمور المتعلقة بالسحر

---

(١) تقرر المحاكم المحلية أن محاكم الولاة تطبق فى معظم الحالات احكام المذهب الشافعى جنبا إلى جنب مع ما يقبله العقل والمنطق من احكام العرف والقوانين القديمة .

(٢) ويعرف هذا القسم بيمين البراءة فالذى يحلف به كذباً ينبذ من رحمة الله .

والشعوذة ؛ فإن الشخص يوضع موضع الاختبار بالطرق التقليدية[١] . وفى هذه الحالة يكون القسم موضع الثقة لأنهم يستنزلون اللعنات على العائلة جميعها فى حالة الحنث به رغم أن ذلك يخالف ما جاء الاسلام به حول مسئولية الفرد وحده عن عمله .

٤ — تأثير الإسلام فى الثقافة المادية :

خلقت الحضارة الإسلامية التى جاءت بصورة أساسية من جنوب الجزيرة العربية ، وبصورة ثانوية من الخليج الفارسى ، الحضارة المدنية فى ساحل شرق افريقيا ، رغم أن محيط الحياة الافريقية قد أعطاها أشكالا خاصة ، فأصبح الطابع الغالب عليها هو حضارة القارب الخشبى الرفيع وجوز الهند ومشتقاته من اندونيسيا والأذرة والبطاطس وغيرها من النباتات ذات القيمة التجارية التى جاء بها البرتغاليون من أمريكا ، أما غير ذلك من المؤثرات الثقافية الأخرى فقد كانت عديمة الأثر ولا قيمة لها إلى جانب تأثير الحضارة العربية الاسلامية .

وتتحكم الحضارة الدينية فى جميع أوجه الحياة ، ومع ذلك فإن هناك أموراً جانبية تعودوا عليها كالحياة الفاخرة مثلا التى ارتبطت بحضارة أرقى من حضارة جوز الهند والأذرة ، مثل المانجو والتمر هندى والباباى والجوافة والجنزبيل والموالح والكثير غيرها ، إلى جانب العديد من المهارات الفنية مثل استعمال الأحجار فى البناء والنجارة وحفر الخشب والتطريز وبعض أنواع من الآلات

(١) ويسمى هذا الاختبار Kiapo ويقرن باسم الطريقة المستخدمة ، فمثلا Kiapo Cha Mwavi معناها اختبار بواسطة سم مستخرج من شجرة الموافى ، ويمكن ادخال الاسلام فى هذه العملية فتسمى Kiapo Cha Mbano أى الاختبار بواسطة ضغط اليد بين لوحين من الخشب الرفيع مكتوب عليهما بعض آيات من القرآن الكريم كما يتلى القرآن اثناء القيام بالعملية نفسها.

الموسيقية باستعمالاتها ذات الطابع الشرقى ، وكذلك انتشر الطراز السواحيلى فى بناء المنازل إلى الداخل ، وهى المنازل ذات الجدران الخشبية المبطنة بالمونة والأسقف الهرمية المغطاة بأوراق النخيل ، فحلت تلك المنازل جزئياً محل الأكواخ الافريقية ذات الأسقف المخروطية ، وهناك متنوعات أخرى جاءت من أصل آسيوى كذلك مثل ماسورة المياه Buruma، ويلاحظ أن أسماء هذه الأشياء وغيرها من المصطلحات التجارية والملاحية والبحرية جميعها عربية عدا البعض منها اشتقت أسماؤها من اللغة الفارسية أو غيرها من اللغات .

ويمكن التركيز على بعض السمات الهامة الأخرى بصورة خاصة باعتبارها تقوم أساساً على القانون الدينى فى حضارة دينية ، وكانت تلك السمات هى أول ما انتشر وأصبح تأثيرها ملموساً ليس فقط فى المستوطنات التجارية التى لا بد أن تكون ثقافتها مختلفة عن ثقافة البانتو بل انتشرت كذلك بين العديد من قبائل الساحل ، ويؤدى اعتناق تلك السمات إلى تغير فى العادات ثم فى المظاهر النفسية للجماعة ، فيتبع ذلك حتما اعتناق العناصر الدينية الأكثر تأثيراً وأهمية ، فصحيح أن الزى أو الملابس التى يرتديها الرجل ، ليست هى الأساس الأول الذى يصنعه ، ولكنها ولا شك تعتبر مرحلة أولى نحو تغير مظهره وكيانه ونظرته هو نفسه إلى الحياة ، فعندما يتخذ الرجل لنفسه زى المسلم ويأكل ما يأكله المسلمون ويعزف عما يعزفون عنه ، فإنه بلا جدال يصبح فى يوم من الأيام مسلماً !

والزى السواحيلى للرجال هو رداء قطنى ذو أكمام طويلة kanzu قد يكمله صديرى ملون أو رداء طويل مفتوح فوقه يسمى Joho ويضع فوق رأسه عمامة ملونة Kilemba وفى قدميه صندلا جلدياً . أما النساء فتتكون أرديتهن من قطعتين من القماش القطنى Kangas تلف إحداهما حول الجسم لتغطيه حتى

كعب القدم ، أما الثانية فتوضع فوق الرأس والكتفين ، وعادة ماتشد فتمتد لتحجب الوجه وتغطيه . وفى الطرقات والأماكن العامة تلتف النساء بعباءة Buibui من الموسلين الأحمر أو الأسود التى تغطى أجسادهن من الرأس إلى القدم . وكانت تلك العباءة لا تستخدمها فى الماضى إلا الشيحيريات ، ولكنها عمت بعد ذلك وشاع استعمالها بين النساء جميعاً ، كذلك كانت هناك أنواع من الحجاب : البرقع Barakoa وهو غطاء للوجه كله عدا العينين . والوقاية ukaya وهو قطعة طويلة من القطن أو الموسلين تلف حول الرأس لتشمل ماتحت الذقن وتترك نهايتاها متدليتان ولا ترتديه سوى النساء العاديات والعامة النسائية dusmali ويسمونها بالفارسية dast—mal ويطلقون عليها فى عدن « الديسمال » وهى منديل للرأس ملون يستعمل كحجاب وقد جاء من مسقط وتستعمله نساء الطبقة العليا ، والشراع Sheraa وهو ظلالة كبيرة يحملها الأتباع ويشدونها لكى تغطى المرأة وتحجبها عن الناس .

وتعتبر الممنوعات والمسموحات من المسائل الهامة فى الإسلام ، خصوصاً أنواع المحرم والمحلل من الطعام والشراب ومدى تحريمهما ودرجات السماح بهما وعلى الرقيب الاجتماعى أن يتأكد من اتباع قواعد تلك الممنوعات . كذلك لا يسمح للمسلمين بتناول الطعام مع الوثنيين(١) . حتى أنه أحياناً تحرم أسرة وثنية من الضيافة فى منزل ابنتها المتزوجة من مسلم عند ما تحضر لزيارتها فتجد حاجزاً من الفتور فى وجهها ، ولما كان مثل هذا التزاور والاختلاط ضرورياً ولازماً وطبيعياً ، فإنه يؤدى إلى اعتناق الإسلام للتخلص من تلك

(١) يقول الاستاذ C.W.Hobley فى كتابه Bantu Beliefs and Magic 1922

« ان السواحيلين واقرانهم هم قوم كرماء ولكنهم لا يشاركون غير المؤمنين الطعام وبذلك يصبح من المفيد للغريب النازح من الارياف أن يصبح مسلماً حتى يمكنه أن يغمس أصابعه فى إناء الطعام مع مضيفة المسلم » .

الحواجز التى تقوم بين المسلمين والوثنيين ، إلا أن ازدياد الوعى الذاتى الافريقى قد أدى إلى مقاومة مثل تلك الممنوعات لأنها تقف حائلا دون الزواج مما أدى بدوره إلى تخفيف حدتها . كذلك توجد بعض السمات الأخرى التى تميز المسلم وهى سمات المجاملة بين المسلمين بعضهم البعض مثل طريقة المصافحة وطرق الباب للاستئذان فى الدخول .

ويمكننا أن نضم إلى كل ذلك الكتابة العربية التى دخلت فى لغة البانتو على الساحل بسبب امتصاص الأعداد الهائلة من الكلمات العربيـة وأصبحت تستخدم فى الكتابة على المساجد وشواهد القبور والحصر المستخدمة فى الصلاة . كذلك القصص الإسلامية والعربية وتركيباتها الأدبيـة وإدخال الأوزان الشعرية العربية فى الأشعار السواحيلية .

وهنا أيضاً يبدو أثر البيئة ، فقد تغيرت القصص الإسلاميـة وأعيدت صياغتها وأصبحت الأوزان الشعرية ، سواحيلية أكثر منها عربية !

الفصل السابع

المسلم فى عصر التجديد

١ — المسلم فى افريقيا العصر الحديث :

من الضرورى أن ننظر إلى الإسلام ضمن نطاق نظرتنا إلى افريقيا اليوم المتغيرة وليس ضمن نطاق نظرتنا إلى ما كانت عليه القارة الافريقية بالأمس ، ونرى مدى تأثير الحضارة العلمانية وقوتها المحولة على السواحيليين الذين يعيشون فى ظل الحضارة الساحلية وعلى المسلمين فى المناطق التى دخلها الإسلام بعد ذلك .

وحتى عهد قريب كانت حياة المجتمعات الإسلامية فى شرق افريقيا ، قائمة على العوامل المعقدة التى خلفتها الملاحة فى المحيط الهندى ، فلقد اتجه أفراد تلك المجتمعات بوجوههم شطر الخارج ولم ينظروا إلى داخل القارة التى يعيشون حول ساحلها وبذلك انطبعوا بحضارتهم التى فصلتهم عن العالم الافريقى القبائلى . أما اليوم فقد تغير المسرح الافريقى بكامله وأصبحت المشكلة التى يواجهها عرب العصور الوسطى المسلمون ناجمة عن اضطرارهم واحتياجهم نتيجة لهذا التغير، إلى الاتجاه بأنظارهم إلى داخل القارة والاختلاط بالأفارقة دون أن يفقدهم ذلك طابعهم الذى تميزوا به . وكان من نتيجة الضغط عليهم لمواجهة حقائق الحياة فى افريقيا الحديثة ولكى يتأقلموا وفقاً لمتطلباتها ، أن أصبح مجتمعهم يعانى أنواعاً من القهر والتوتر ، فكل تغيير لا يتفق مع ثقافتهم أو يسايرها يؤدى بهم إلى عدم الاستقرار النفسى ، فليست المشكلة فقط هى انهم يحصرون أنفسهم داخل نطاق القرون الوسطى ونظرتها إلى الإسلام ، ولكنها أيضاً

تكمن فى تفسيرهم للإسلام وفى العنصرية العربية التى تغلفهم مما يجعل من الصعب تغييرهم ، أما السواحيليون الآخرون وخصوصا الأفارقة الذين اندمجوا بعد ذلك فى المجتمع السواحيلى فهم أكثر استسلاماً للتغيير الذى أصبحت تفرضه الحياة فى افريقيا العصر الحديث .

ومع أن موقف المحافظين منهم تجاه الغربيين هو موقف سلبى فى المقام الأول ، فإنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً إزاء التيار العلمانى الحديث الذى جاء به الأوروبيين أولا ثم سار فيه الأفارقة الجدد ، وهو التيار الذى يهدف إلى هدم سيادة الدين على المجتمع أو على الأقل التضييق من سلطانه والحد منه ، وكل ما استطاعوا أن يفعلوه هو أنهم تمسكوا بما يشعرون أنه يحفظ مجتمعهم الاسلامى ويبقى عليه مثل النظم التعليمية الاسلامية وسيادة الشريعة وتنظيمها لحياة الفرد والأسرة .

ولقد أصبحت الحضارة العلمانية الغربية تتحدى المبادىء الأساسية التى قامت عليها الحضارة الاسلامية ، وتزايد تأثيرها فى القانون والتعليم وفى الحياة الاقتصادية ثم فى ظهور الدولة العلمانية ، وكانت العناصر العلمانية الجديدة التى تدخل فى حياة المجتمع إما أن تبقى مفصولة وحدها وإما انها تقوم متوازية مع العناصر القديمة دون أن تطردها . وبهذا التغير فى شرق افريقيا أصبح من اللازم إعادة ترتيب التوازى الذى سبق أن أشرنا إليه فى الحياة الاسلامية ، وإضافة العناصر العلمانية التى أخذت تظهر جنباً إلى جنب مع كل من العناصر الاسلامية ، والعادات والأعراف القديمة :

الثقافة القديمة	الثقافة الإسلامية	الثقافة العلمانية
— العرف	— المبادىء الإسلامية كقانون مدنى	— قانون العقوبات
— محكمة مشايخ القبيلة أو كبار السن فيها	— المحكمة الشرعية	— المحكمة المدنية
— التعليم التقليدى ومدرسة التأهيل	— التعليم الإسلامى ومدرسة القرآن أو الكتاب	— التعليم الحديث ـ المدرسة العلمانية
[وهناك محاولة انتقالية لضم المدرسة العلمانية الصباحية مع مدرسة بعد الظهر لتعليم القرآن]		
— الدواء التقليدى	— الدواء الذى جاءت به كتب القرون الوسطى [الكتب الصفراء]	— الوسائل الحديثة فى العلاج والطب الوقائى

والثقافة الاسلامية التقليدية آخذة فى التناقص والضعف فى مواجهة تحديات القيم الجديدة مثل محاولات أولئك الذين يعارضون التعليم الدينى وينادون بجدوى الثقافة الحديثة بدلا منه ، وفى هذا الميدان يدخل المحافظون معركة خاسرة فقد أخذ العديد من المسلمين يشعرون بحالة التأخر التى أصبحوا عليها وبأنهم بذلك محرومون من الاشتراك فى الأعمال فى بلادهم بالقدر الذى يؤهلهم له عددهم الكبير على الأقل فى تنجانيقا ، فالإسلام له مكانته فى المسائل المحلية والخاصة ولكن لا بد من ثقافات أخرى للمساهمة فى الأعمال والمشاركة الفعالة فى الحياة الحديثة .

وفى نفس الوقت فإننا نرى العالم الافريقى الإسلامى التقليدى باقياً كما هو بين أولئك الذين تأثروا بالحياة السواحيلية وما زالت سيطرته العاطفية على أشدها وتسبب المشاكل بالنسبة لحياة الأفراد ، وتخلق مظهراً مزدوجاً بالنسبة لحياة الجماعة ، وما زالت كل من زنجبار ولامو هما المركزين الإسلاميين اللذين يتطلع إليهما المسلمون التقليديون كقلعتين يعتمدون عليهما . ولكن رجال العصر الحديث غير راضين عن نوع الإسلام الذى تمثلانه ، فإن تدهورهما وانعزالهما الاقتصاديين هما نتيجة لاعتزاليتهما وبعدهما عن التعليم الحديث .

أما فيما يتعلق بالموقف الدينى فى الداخل ، فعلينا أن نأخذ فى حسباننا الأساس الوثنى للحياة فى تلك المنطقة ثم تأثير كل من الحضارتين الإسلامية والعلمانية عليها ، ففى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى وجد الأهالى فى داخل تنجانيقا أن مجرد ظهور الإسلام ، كاف لسد احتياجاتهم الدينية ، ذلك أن الإسلام لم يكن وقتها يتطلب إحداث تغيرات جوهرية بالنسبة للعديدين منهم ، أما غيرهم — وخصوصاً الجيل الأصغر — فقد ولوا ظهورهم للشعائر

التقليدية ، وللمظهر الذى نتج عن الأمر الواقع باعتناق الإسلام جنباً إلى جنب مع تلك الشعائر ، واتجهوا ناحية المسيحية واعتنقوها .

وليس من الدقة فى شىء أن نقرر أن العقيدة الأفريقية قد انتهى أمرها ، فطالما أنها ديانة محلية وعائلية فقد ظلت على قوتها بالنسبة للمجتمعات التى لم تتأثر بالمؤثرات الحديثة . فاسترضاء أو استعطاف أرواح السلف فوق قبور العائلةأو فى أكواخ القبيلة ما زالت شعائره مستمرة لم تتناقص بين قبائل الجيرياما على ساحل كينيا ، ذلك أنه لا الإسلام ، ولا المسيحية ، ولا الحضـــارة العلمانية استطاعت أن تؤثر فى هذا المجتمع فى الكثير أو فى القليل ، أما الذين ابتعدوا عن مسقطر أسهم لانفصالهم عن قبائلهم بعد اعتناقهم الاسلام ، فقدأصبحوا فى فراغ روحى لا يجدون فيه مكاناً للشعائر الجماعية التقليدية ، وفى هذه الحالة فإن الثقافة المكتسبة عن طريق التجربة الشخصية تؤدى إلى ازدراء الطقوس القديمة ، ويتجه تلاميذ المدارس إلى المسيحية ، أما أولئك الذين يتوجهون أحياناً لعمل فى نيروبى فإنهم ينجذبون عادة إلى حى الفساد ، وهكذا فإن التحول فى المدن لم يعد فى صالح الإسلام .

ويتزايد انفتاح الأفارقة على أوجه الحضارة الغربية وخصوصاً عن طريق التعليم خلال العشرين سنة الاخيرة ، أخذ الإسلام يفقد الاقبال عليه كحضارة من الحضارات ، وعندما تخلصت اللغة السواحيلية من مغزاها الاسلامى واتجهت إلى الحروف اللاتينيـــــة كوسيلة للتعبير بدلا من الحروف العربية لم تعد منذ ذلك الوقت وسيلة للدخول فى الاسلام .

ولـكن التحول الفردى إلى الاسلام ما زال مستمراً ، والشواهد القليلة التى أمكننا التوصل إليها تشير إلى أن التحول الجماعى إليه قد توقف

منذ ثلاثين عاماً . ومشكلة مسلمي المناطق الريفية تكمن فى ضعف تأثير الاسلام عليهم،فهم بصفة عامة مسلمون سطحيون أو مسلمون إسمياً ، طالما أن الدراسة الدينية لا توجد إلا فى المدن حيث يوجد رجال الدين أيضاً . ولو كان رجال الاسلام قد وصلوا إليهم منذ زمن بعيد،لكان تغيرهم حتى على بطئه قد أدى إلى تحولهم التدريجى إلى الشكل التقليدى المعتاد للمجتمع الاسلامى ولكن الذى حدث فى تنجانيقا هو أن دخول المؤثرات الغربية جاء فى نفس الوقت الذى كان فيه المسلمون الجدد فى تلك المناطق ما زالوا فى أولى مراحل تغيرهم الدينى ، ونتيجة لذلك كان التحول إلى الاسلام هو فقط أحد العوامل « العديدة » من عوامل التغيير ، ونقول « عـــديدة » لأن تأثير الحضارة العلمانية — بالنظر إلى طبيعتها — يختلف عن تأثير حضارة العصور الوسطى فى أن نشاط الأولى يشمل ويؤثر فى الأوجه المختلفة من حياة الناس ويشدهم إليها ، من حيث لا يشعرون !

٢ — المسلم فى الدولة العلمانية :

مسائل سياسية :

إن الدولة الاسلامية الوحيدة فى شرق أفريقيا هى زنجبار ، أما الصومال فهى ليست داخلة فى هذه الدراسة رغم أن أمانى الصوماليين فى وحدة أراضيهم سوف ترد بها وسوف نشير فقط إلى المشاكل التى تواجه المسلمين كأقليات فى الدول العلمانية دون أن نعالجهـــا ، بالنظر إلى التغير المستمر فى ظروف القارة الأفريقية الحديثة .

ولقد امتد رد فعل الحركات الوطنية الأفريقية ضد السلطات السياسية

الأجنبية لكى يشمل أيضاً الثورة على النفوذ العربى الثقافى والاجتماعى[1] مثل سيادة العرب فى زنجبار وفى الشريط الساحلى من كينيا ، وفرض تعلم اللغة العربية على المسلمين فى مدارس معينة لأنهم فى شرق أفريقيا لا ينظرون إلى الاسلام ولا يعتبرونه ، ديانة أفريقية .

والقبلية هى إحدى المشاكل الملحة التى تواجه القومية الأفريقية ، وهى لا تنظر بارتياح كذلك إلى التفرقة الدينية ، والحقيقة أن انشغال بعض المسلمين بمسألة اشتراكهم فى البناء السياسى الجديد، إلى جانب اهتمامهم بالثقافة الإسلامية مرتبط بفكرتهم عن الإسلام باعتباره خالقاً لنوع من الجنسية ، وعلى كل حال فإن تنجانيقا بعيدة نسبياً عن مشاكل التفرقة الدينية هذه وعن الصراع بين الولاء للوطن والولاء للقبيلة والولاء للدين[2] ، ولا يرجع ذلك فقط إلى أن المسلمين فى تنجانيقا ليسوا أقلية دينية ، بل لأنهم يشعرون أنهم أفارقة،وأفارقة متعصبون ، وعدد قليل منهم نسبيا هم الذين يعتبرون أنفسهم عربا (١٣٢٥ فرداً) .

وفى كينيا يشكل المسلمون أقلية[3] أغلبها من الآسيويين والعرب وهم

---

(١) يمكن ان نورد فيما يلى ما كتبه أحد النقاد حول هذه العبارة ولو أنه لم يدفعنى إلى تغييرها : « انى اعتقد ان الملاحظات حول رد فعل الحركات الوطنية الأفريقية ضد النفوذ العربى الثقافى والاجتماعى ينقصها الدليل لأن الاتجاه الواقع هو عكس هذا الاتجاه ، فان المزيد من المدارس تفتتح لدراسة اللغة العربية وكثيراً من المثقفين يسافرون إلى الخارج لدراسة هذه اللغة أكثر من أى وقت مضى . وينكر أى عربى أن هناك تفرقة بين العربى والأفريقى وليس هناك من يتقدم لترشيح نفسه باعتباره عربياً بل باعتباره زنجباريا » .

(٢) والدليل على ذلك أنه فى ٢٢ يناير سنة ١٩٦٢ خلف رشيدى كواوا — وهو مسلم — جوليوس نيريرى فى رئاسة الوزارة فى تنجانيقا .

(٣) فى كينيا ان استبعدنا جميع المسلمين الذين ينتمون إلى عناصر أخرى مثل الحاميين الرحل (الصوماليون والجالا) ، والعرب والجاليات الاسيوية فان المسلمين السود يكونون اقلية صغيرة هناك .

الذين استفادوا من التعليم فى الوقت الذى كان الأفارقة فيه يتجاهلون ، كما أن المسلمين الأفريقيين كانوا أحياناً يعاقبون لا تصالهم بالآسيويين ، فان الوطنيين يميلون إلى الاعتقاد بأن المسلمين مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بغير الأفارقة (العرب والآسيويون) ولقد تكونت جمعية مسلمى كينيا بعد المؤتمر الاسلامى لشرق أفريقيا عام ١٩٥٣ لتعبر عن المسلمين ، وبرغم أن بهـــا أعضاء من العرب والأفارقة ، فإن الغالبية فيها من الآسيويين ، ولقد أحتجت هذه الجمعية على التفضيل الذى منح للعرب فى الناحية الثقافية على الشريط الساحلى. أما فى أوغندا فبرغم أن المسلمين يشكلون أقلية (أقل من ٥ ٪) فان الموقف يختلف لأن المسلمين اتخذوا زعيما لهم من أحد أفراد أسرة الكاباكا يوجه نشاطهم ويقودهم فى أعماله الخاصة .

الصراع بين الجاليات أو الجماعات فى زنجبار :

تواجه هذه الدولة مشكلة فى هل هى تابعة للشرق الأوسط أو هى تابعة للقارة الأفريقية ، فلقد ابتعدت زنجبار عن تيار التقدم فى شرق أفريقيا عندما اتخذ البريطانيون والألمان كلا من ممباسا ودار السلام على الساحل قاعدتين لهما . والمدينة من الناحية الثقافية ما زالت عربية الطابع، والأفريقيون المهاجرون يشكلون الأغلبية بين السكان فهم يكونون ٧٧ ٪ منهم بالمقارنة إلى ١٧ ٪ من العرب و ٦ ٪ من الهنود . وكانت القلة العربية تحتكر الوظائف والمراكز الهامة وتمتلك مساحات واسعة من الاراضى ، ولهذا فضلت تلك الطبقة العزلة ، فظلت زنجبار هادئة — على الاقل هدوءاً سطحياً — وسط الحركات التى سادت العالم الاسلامى ، ولقد جاء رد الفعل الافريقى ضد هذه السيطرة وأسطورة التفوق العنصرى التى حملتها بين طياتها ، بمثابة

الدخان الذى يسبق اشتعال النهـــار ، ثم جاءت الانتخابات فأخرجت تلك المشاعر والانفعالات من مكمنها إلى العلن !

ولقد وقع الانفجار الحقيقى الأول عام ١٩٥٤ عندما اتهم المقيم العام محررى جريدة الفلك — وهى جريدة الاتحاد العربى — بنشر مقالات مثيرة للرأى العام عقب موافقة المجلس التشريعى فى شهر مارس من هذا العام على برنامج مبسط للاصلاح مما أدى إلى استقالة العرب من المناصب العامة وامتناع أعضاء الاتحاد العربى فى المجلس التشريعى عن تأييد البرنامج .

وهناخسر العرب تعاطف كل من الاتحاد الشيرازى[1] ، والاتحادالوطنى الهندى ، ولكى يتفادى العرب أن يصبحوا جماعة اريستوقراطية معزولة ومكروهة فكر المثقفون منهم فى طريقة التعايش مع الهيئات الأخرى فعملوا —عن طريق الضغط لاحلال الانتخابات العامة محل التعيين فى الهيئات التشريعية — على اكتساب تأييد الافريقيين لزعامتهم بمحض اختيارهم واخذوا يعارضون حزبى الافروشيرازى ، والاتحاد الإسلامى بأن أيدوا حزبا راديكاليا جديداً هوالحزب الوطنى بين الافارقة من الفلاحين وأهل المدن ، الا أنه فى انتخابات يوليو عام ١٩٥٧ لم ينجح عضو واحد من اعضاء هذا الحزب واكتسحت الاحزاب الافريقية هذه الانتخابات .

وفى انتخابات يناير سنة ١٩٦١ تغير اتجاه التصويت وانتهى الأمر بمأزق شديد[2] مما أدى إلى الإعداد لانتخابات جديدة فى يونيو سنة ١٩٦١ ،وفى

---

(١) أصبح لفظ «شيرازى» فى زنجبار يستعمل كتعبير سياسى يعبر عن السكان الأصليين ومنهم سلالة العبيد السابقين الذين امتزجوا فيهم ولكنه لا يشمل المهاجرين من الساحل الأفريقى .

(٢) حصل الحزب الوطنى على تسعة مقاعد (٣٥٫٨٪ من الأصوات) وحزب الافروشيرازى على عشرة مقاعد (٤٠٫٢٪ من الأصوات) ، وحزب الشعب على ثلاثة مقاعد (١٧٪ من الأصوات) .

هـــذه الانتخابات الجديدة كان هناك ثلاثة أحزاب[1] : الحزب الوطنى Zanzibar Nationalist Party (ZNP) وهو حزب عربى خالص ذو ميول اشتراكية ، وحزب الأفروشيرازى (ASP) وهو حـــزب الوطنيين الأصليين والمهاجرين من الساحل الإفريقى ، ثم حزب الشعب (ZPPP) Zanzibar and Pemba Peoples Party وهو حزب انشق من حزب الافروشيرازى لإرضاء الوطنيين من أهالى زنجبار الأصليين ويعارض المستوطنين المهاجرين من الساحل الافريقى وقد تحالف مع الحزب الوطنى للدخول فى الانتخابات . وفى هذه الانتخابات حصل الحزب الوطنى على عشرة مقاعد (٣١٩٨٥صوتا أى ٣٥٪ من مجموع الأصوات) ، والأفروشيرازى على عشرة مقاعد أيضاً (رغم أنه حصل على ٤٥١٧٢صوتا أى ٤٩٫٩٪ من مجموع الاصوات) وحزب الشعب على ثلاثة مقاعد (١٢١٩٨ صوتا أى ١٣٫٧٪ من مجموع الأصوات)[2] وقد مكنت هذه النتيجة الحزب الوطنى بالتحالف مع حزب الشعب ، من تشكيل الحكومة ، وصحب هذه الانتخابات شغب استهدف العرب بحجة استعمال الإرهاب وازدواج التصويت فى الانتخابات ثم انتشر بعد ذلك بين الأهالى من الوطنيين[3] وأصبح على العرب أن يعملوا لتكييف موقفهم

(١) عندما انضمت زنجبار إلى تنجانيقا فى وحدة ونشأت دولة تانزانيا ، الغيت كل هذه الأحزاب بعد اتباع نظام الحزب الواحد (المترجم)

(٢) تم اختيار الحكومة على أساس الامتياز الشديد فالأفريقى المولود فى القارة وليس فى الجزيرة يجب أن يكون قد عاش خمسة سنوات فى الجزيرة لكى يصبح له الحق فى أن يتقدم بطلب الحصول على جنسية زنجبار ونتيجة لذلك كان واحد من كل عشرة من الناخبين الأفارقة يجد أن صـوته باطل عند توجهه إلى دائرة الانتخاب ، وتم هذا التحديد للجنسية نتيجة لضغط الحزب الوطنى وموافقة الأدارة . كما أن الأدارة وجهت الأنتخابات فى مدينة ستون بحيث حصل إثنان من مؤيدى الحزب الوطنى على ١٩٠٨ صوتا . وفى احدى الدوائر الأفريقية حصل رئيس حزب الافروشيرازى على ٣١٦٢ صـوتا ضد ٢٧٨ حصل عليها منافسـه وفى دائرة أخرى حصل مرشح الافروشيرازى على ٣٣٠١ صوتا ضد ٣٦٢ .

(٣) لم يشر تقرير لجنة التحقيق فى الاضطرابات التى قامت فى زنجبار فى شهر يونيو ١٩٦١ إلى الأسباب العميقة والحقيقية لتلك الاضطرابات .

واستعادة كرامتهم ، وكان أمراً تكتنفه الصعوبات ، ولكنهم لم يجدوا أمامهم مناصاً أو مهرباً من مواجهته[1] ! .

الشريط الساحلى لكينيا.

استأجر الانجليز بمقتضى اتفاقية ١٨٩٥ من سلطان زنجبار أجزاء على الساحل الشمالى أعتبرت من المناطق الداخلة تحت حكمه وهى مجموعة جزر لامو وشريط يمتد من ناحية البحر لمسافة عشرة أميال بحرية، وفى الداخل من كيبينى Kipini على مصب نهر أوزى إلى حدود تنجانيقا مع دائرة نصف قطرها عشرة أميال حول كيسمايو Kisimayu ، وكان هذا الشريط من قبل تابعا لكينيا من الناحية الإدارية ، الا أن تلك الترتيبات جعلته فى وضع يختلف عن بقية أجزاء الدولة فمع أن سيادة السلطان كانت اسمية فقط إلا أن هذا الاتفاق الذى تم مع السلطات البريطانية معناه أن ما كان يسرى على زنجبار من معاهدات واتفاقات ، يسرى أيضا على هذا الشريط الساحلى ، وقد أدى هذا إلى بطء اختفاء العبودية منه أكثر من معدل اختفائها فى المناطق الأخرى، ذلك أن وضع العبودية كان قانونياً فى المناطق التى يحكمها السلطان ، بينما فى باقى أجزاء محمية كينيا كانت تجارة العبيد ممنوعة بحكم القانون ، فرغم أن كل من ولد بعد عام ١٨٩٠ كان يولد حراً بمقتضى مرسوم أصدره السلطان على ، فان أولئك الذين كانوا عبيداً قبل هذا التاريخ يظلون كما كانوا عبيدا أرقاء[2] ، وبينما العبيد

---

(١) قام قادة الاحزاب الرئيسية (المشكلة منها الحكومة) بزيارة لندن فى شهر ابريل عام ١٩٦٢ لاجراء محادثات دستورية وهناك ابلغتهم الحكومة الانجليزية أنهم ان لم يصلوا إلى اتفاق بينهم فلا يمكن تحديد تاريخ لقيام الحكم الذاتى أو لاستقلال زنجبار .

(٢) ادى اعتراف البريطانيين بالشريعة إلى بعض الصعوبات فى الأيام الأولى ، وقامت بعض الاضطرابات فى مستعمرات العبيد المحررين مثل راباى عام ١٨٨٨ بسبب اتهام العرب لكثير من العبيد السابقين بالفرار ، الا أن الشركة البريطانية لشرق أفريقيا دفعت مبالغ لكل عربى يستطيع إثبات إدعائه ، كفدية عن هروب العبيد .

فى زنجبار يطالبون بحريتهم وبعتقهم بعد أن تدفع الحكومة التعويض اللازم لسادتهم ، فان الحرية فى كينيا بعد تحريم الرق لايطالب بهـا كحق لأنها لم تعد شيئاً يغتصب .

ولقد كان هذا الشريط الساحلى يعتبر مركزاً للعرب والمسلمين مع أن غالبية سكانه من الأفريقيين والوثنيين ، اما الآن فقد تغير وضع العرب ومركزهم فيه بصورة جذرية ، ولو أنه تغير تدريجى لم يضطرهم إلى تغيير مظهرهم الثقافى أو الاجتماعى أو الاقتصادى. فلقد عملوا على الاحتفاظ بمظهرهم[(١)] وامتيازاتهم[(٢)] والحصول على بعض التنازلات من جانب الحكومة ، ومع ذلك فان اختفاء الرقيق التدريجى من مسرح الحياة فى كينيا ، وتطور ممباسا التى اصبحت من الموانى الحديثة ، ثم سيادة الأسيويين ونشاطهم فى المجال الاقتصادى وهجرة الافريقيين من الداخل إلى مقاطعة ممباسا ، وأخيراً ظهور الأفارقة انفسهم فى الميدان السياسى ، كل ذلك أدى إلى تغيرات جوهرية فى الموقف . وقد أصر العرب على أن يكون لهذا الشريط الساحلى وضع مختلف ، فاما أن يمنح الحكم الذاتى ، وإما أن يعود فينضم إلى زنجبار ، وقد عارض غالبية الأفريقيين — وثنيون ومسلمون — فى ذلك لأنهم يرون أن هذا الشريط هو جزء متكامل

---

(١) اسست الجمعية المركزية العربية بهدف توحيد العرب وجمعهم فى مجتمع واحد .

(٢) كان العرب على استعداد أن يدفعوا ثمن تلك الامتيازات فقد تعودوا أن تكون ضريبة الرءوس التى يدفعونها أكبر من المفروضة على الأفريقيين . وكانت تلك الإمتيازات خاصة بالانتخابات . فلكى يعطى الشخص صوته كعربى ، عليه فقط أن يملأ الأستمارة الخاصة باللغة العربية أو بالسواحيلية المكتوبة بالحروف العربية وهذا أمر يمكن لجميع من ترددوا على مدارس القرآن القيام به ، وكانت طريقة الانتخاب شاذة لأن غالبية السكان من الأفريقيين ، ومع ذلك فان المرشحين كانوا من العرب فقط . وعلى العموم فان كل ذلك تغير الآن بعد استقلال كينيا .

من كينيا ، وأوصى سير جيمس روبرتسون فى تقريره[١] أن يظل جزءاً متكاملا من كينيا المستقلة مع إعطائه الضمانات التى تؤمن حرية العبادة ، وسيادة الشريعة بالنسبة للمسلمين والإبقاء على المحاكم الشرعية .

أمانى الصوماليين :

وقد وفد الصوماليون حديثا على شمال كينيا ، إلا أن الإدارة الحكومية أوقفت تقدمهم عند نهر تانا فيما بين عامى ١٩٠٩ — ١٩١٢ ، ومع ذلك ، وبرغم أنهم يكونون ثلث السكان فقط فى المقاطعة الشمالية من كينيا ، فقد دفعتهم أمانيهم السياسية إلى المطالبة بالمقاطعة كلها على أنها جزء من الصومال ودفعهم الاعتزاز بجنسهم إلى تأكيد اختلافهم عن الافارقة السود ، والمناداة بأنهم من سلالة العرب ، وقد ظهر حزب « الإشاكية » للمناداة بتلك المطالب والعمل على الوصول إلى وحدة تامة مع الصومال المستقل . كذلك فان الوضع المختلف الممنوح للعرب فى كينيا انطبق على الصوماليين الذين أظهروا استعدادهم « لدفع ضريبة غير الوطنيين » والتمتع بالحقوق الانتخابية .

ولقد اعترفت حكومة كينيا دائما بالوضع الغريب لمقاطعة الحدود الشمالية التى كانت تديرها ككيان منفصل ، ولم توقف نشاط الاحزاب السياسية الصومالية التى تنادى بالوحدة مع الصومال إلا فى وقت متأخر ، وكان مجرد التفكير فى أنه ستقوم فى يوم ما فى كينيا حكومة أفريقية يثير الصوماليين بمثل مايثير المستوطنين البيض ، وبرغم استهتار الرحل منهم وعدم إهتمامهم بالأمر فان جماعة شباب الصومال استطاعت أن تمد نشاطها إلى المنطقة حتى سمح

The Kenya Coastal Strip 1585 H.M.S.O. December 1961 (١)

أخيراً بإعادة نشاط الأحزاب السياسية الصومالية ، واشتركت فى المؤتمر الدستورى الخاص بكينيا عام ١٩٦٢ فى قصر لانكاستر حيث تم الاعتراف وقتها بالوضع الخاص لمقاطعة الحدود الشمالية . وقد أوفدت الحكومة البريطانية مبعوثا لاستطلاع رأى الأهالى واتجاهاتهم حول مستقبل المقاطعة ، فكتب يقول فى تقريره[1] أن سكان الجزء الشرقى وغالبيتهم صوماليون يؤيدون بالإجماع الانفصال عن كينيا عند استقلالها ، والوحدة التامة مع جمهورية الصومال ، وفى الأجزاء الأخرى من مقاطعة الحدود الشمالية كان الاتجاه إما فى صالح الإستمرار كجزء من كينيا ، أو التقسيم ، وذكر التقرير أن الاتجاهات جاءت حسب الاختلافات الدينية ، فالمسلمون يؤيدون الانضمام إلى الصومال ، اما غير المسلمين فينادون ببقاء المقاطعة جزءاً لا ينفصل من كينيا.

العلاقات بالعالم الإسلامى الواسع .

لما كان المجتمع السواحلى يعتبر مركزاً خارجياً للجزيرة العربية ذا حياة جديدة على حافة أفريقيا الممتدة ، فان مصر لم تستطيع تجاهل قيام هذا المجتمع أو وجوده ، وقد ساعدت الوسائل الحديثة لنقل المبادىء والأفكار مثل الصحف والإذاعة على وصول التأثيرات والتيارات المختلفة القادمة من العالم الإسلامى على إتساعه إلى مسلمى شرق أفريقيا إلا أن تأثير تلك التيارات عليهم لم يكن ثوريا . فعلاقات السواحيليين الخارجية تأخذ أقوى صورها مع جنوب

(١) تقرير عن مقاطعة الحدود الشمالية . ديسمبر سنة ١٩٦٢ — أما تقرير لجنة الحدود الاقليمية الذى ظهر فى نفس الوقت فقد اشار بأن يقيم الصوماليون فى منطقة ساحلية وباقى سكان مقاطعة الحدود الشمالية فى الاقليم الشرقى الداخلى ، ويعلق التقرير « كان من الممكن أن نرى من الصواب إنشاء مقاطعة تشمل المناطق التى يعيش فيها الصوماليون ، الا أن التعليمات التى لدينا قيدتنا بانشاء ستة مقاطعات فقط » الا أنه فى مارس سنة ١٩٦٣ تقرر إنشاء هذه المنطقة الصومالية المشار اليها كمقاطعة سابعة.

الجزيرة العربية كما أنها علاقات تدور فى المجالين الثقافى والاجتماعى أكثر مما تدور فى المجال السياسى، وكانت هناك بعض محاولات من جانب مصر للتأثير فى مسلمى شرق أفريقيا ، إلا أنها كانت ذات طابع دينى فى المقام الأول رغم العلاقة التى كانت قائمة بين الحزب الوطنى فى زنجبار وبين الجامعة العربية .

ولم يخرج رجال الدين من عزلتهم ، حتى القليلين منهم الذين أوفدوا إلى مصر لتلقى العلم فى الأزهر لم يتغيروا فى مظهرهم إلا قليلا ، كما أن الاهتمام العام بالأدب العربى الحديث يكاد يكون معدوماً . والذين يستمعون إلى إذاعات صوت العرب ويفهمونها هم الشيحيريون فقط لأن لغتهم هى اللغة العربية . وبينما تلقى قراءة القرآن والأحاديث الدينية الإقبال الشديد والتبجيل المطلق عند الإستماع إليها،فإن الدعايات السياسية لا تلقى بصورة عامة إستجابة تذكر، فقلت إذاعات القاهرة باللغة السواحيلية بسبب استماع السواحليين إلى اللغة العربية وبالتالى لم تعد هناك حاجة إلى التوسع فى الإذاعات السواحيلية ، واصبح واضحاً أنه من غير المحتمل أن يكون عرب شرق أفريقيا فى مقدمة المشاركين فى التغييرات السياسية التى تحدث فى شرق أفريقيا ، فى هذا العصر الحديث.

٣ — مشاكل التعليم :

تطور التعليم الحديث فى شرق أفريقيا على أيدى البعثات التبشيرية المسيحية وما زال الجزء الأكبر منه مستمراً تحت إشراف بعض الهيئات مثل الكنائس المحلية ، والبعثات التبشيرية وبعض الجاليات مثل الجالية الآسيوية على وجه الخصوص ، والجمعيات مثل جمعية إنعاش مسلمى شرق أفريقيا .

والمسلمون الذين كان لهم بالفعل نظام تعليمى ألفوه وآنسوا إليه بحيث

أصبح بالنسبة لهم جزءاً هاماً من ثقافتهم ، اتخذت حياتهم طابع العصور الوسطى ، فكان من الطبيعي أن يعارضوا إحلال نوع آخر من التعليم محله خصوصاً إذا كان هذا التعليم غريباً عليهم أو جاء إليهم تحت ستار التعليم المسيحى ، ولم يدرك أحد ضرورة تطوير نظام التعليم الإسلامى برغم أن المسلمين وجدوا أنفسهم يقفون فى آخر الصف بالنسبة لباقى سكان شرق أفريقيا بل ان رجال الدين دمغوا هذا التطوير بأنه من الخطايا وأخذوا يجبرون الأهالى على سحب أولادهم من المدارس الحكومية ، وعندما تبين عدد قليل من المسلمين الأفارقة أن حياتهم يجب أن يطرأ عليها بعض التغيير لكى يتمكنوا من مسايرة العصر ، وجدوا أنفسهم يصطدمون بالتيار المحافظ الشديد على الساحل . ولم ينشط المسلمون لتكوين جمعيات خاصة بهم لتنشىء المدارس الحديثة لأولادهم مثل غيرهم من الهيئات ، مع أن الالتجاء إلى مثل هذا الحل هو الطريق الطبيعى لتطوير التعليم الإسلامى ، أكثر من طريق الالتجاء إلى المدارس الحكومية ، وأخذوا يوجهون اللــــوم إلى الحكومات لتجاهلها احتياجاتهم ورغباتهم الخاصة ، وكان ما يطلبونه من الحكومات أمراً جديداً وغريبا عليها ، كذلك ما طلبته الحكومات منهم لم يكن منطقيا ، فقد طلبت من المسلمين أن ينشئوا بعض المدارس ويقوموا بإدارتها كما يفعل المسيحيون على أن تقوم الحكومات بإعانتها بنفس الطريقة التى تمنح بها الإعانات لمدارس المسيحيين ، فإن كان المسلمون يستطيعون فتح بعض المدارس فمن اين يجلبون الخبرة الحديثة والمدرسين اللازمين لمدارسهم ، وهنا لا يمكن القول بمقارنتهم بالمسيحيين ، ذلك ان مدارس هؤلاء انشأها الأوربيون وظلوا يديرونها إلى أن تم تدريب الأفارقة فتسلموها .

وكان المسلمون الآسيويون هم الذين قادوا الاتجاه نحو التغيير ، فأقاموا

انفسهم واتخذوا مظهراً ثقافيا حديثا . وقد انشأت حكومة كينيا مدارس ابتدائية للهنود،ثم مدارس ثانوية، ومعاهد لتدريب وإعداد المعلمين كما فتحت الجالية الإسماعيلية عدداً من المدارس . وعن طريق تلك الجالية ظهرت جمعية إنعاش مسلمى شرق إفريقيا إلى الوجود ، فقد انشأها اغاخان السابق فى ممباسا عام ١٩٤٥ كوسيلة لتغيير المظهر الإسلامى فى بعض المجالات والعمل لصالح المسلمين بصورة عامة ، وصرح اغاخان فى عام ١٩٥٥ : « اننى اهيب بالمسلمين من كافة المذاهب ان ينظروا إلى تلك الجمعية على انها جمعية اخوية إسلامية بحتة تعمل بصفة خاصة على النهوض بالمسلمين الأفارقة وعلى تشجيع الجهود الرامية إلى نشر الاسلام بين السكان الأفريقيين » . والواقع ان بث الاسلام والدعاية له يتم بصورة اساسية عن طريق تلك الجمعية التى تقوم ببناء المساجد والمدارس وتستخدم المعلمين لتدريس القرآن وتقوم بتوزيع النشرات الاسلامية وبالانفاق على بعض الدارسين من المسلمين سواء بإيفادهم لإكمال دراستهم بالخارج او بإلحاقهم بجامعة ماكاريرى بأوغندا .

ولقد ادى تفرق المسلمين إلى اتخاذهم مواقف مختلفة إزاء الثقافة والتعليم جعلت قيامهم بعمل موحد أمراً صعبا بل ومستحيلا ، ونرى حكومات شرق افريقيا خرجت عن وظائفها الأساسية لتساعد فى حل هذا الموقف فزاد انتشار المدارس الاسلامية زيادة ملحوظة منذ الحرب العالمية ، وتغير الموقف القديم خلال الخمسينات واصبحت السياسات التعليمية تناقش فى المؤتمرات الثقافية والمؤتمرات السياسية ايضا ، وظهر التغيير أول ما ظهر ملموسا فى أوغنداحيث يختلف وضع المسلمين الأفارقة عن وضع زملائهم فى كينيا ، فقد تقدم التعليم الاسلامى بها تقدما ملحوظا خصوصا بإنشاء مركز Kibuli فى العاصمة كمبالا وفى ساحل كينيا كان للعرب مركز أفضل فى الناحية التعليمية من المسلمين

الافريقيين ، فقد افتتحت مدرسة ثانوية عربية للبنين فى ممباسا عام ١٩٥٠ وفى السنة التالية انشأوا معهداً فنيا ، كما كانت السياسة التعليمية موضع الاعتبار فى الاتفاق الذى عقد فى نيروبى عام ١٩٥٦ حول وضع مسلمى كينيا .

وبرغم التقدم الذى احرزه المسلمون فى زيادة عـــدد مدارسهم ، فإنهم ما زالوا حائرين بسبب بعد المدرسة العلمانية واختلافها تماماً عن النظام الاسلامى، والمحافظون ظلوا على موقفهم ولم يغيروه ، فالنظام التقليدى بالنسبة لهم لا بديل عنه وهو غاية النشاط الفكرى للمسلمين ويجب الحفاظ عليه والتمسك به إن اريد للاسلام أن يعيش فى شرق افريقيا ويبقى ، وقد روضوا أنفسهم على وجود التعليم الحديث العلمانى جنبا إلى جنب مع نظامهم الإسلامى . وبرغم أن العرب لا يتكلمون جميعا اللغة العربية فإنهم يبجلونها باعتبارها دليلا ثقافيا يميزهم عن الأفارقة .

والأفريقى الذى لم يعش فى النظام القديم ولم يلحق به ، ينادى بإنشاء المدارس الاسلامية لان هناك مدارس مسيحية(١) دون أن يدرك أن هذه المدارس برغم أنها تدار بواسطة المسيحيين إلا انها مدارس علمانية لا تختلف عن المدارس الحكومية ، ذلك أن تدريس الدين ، سواء المسيحية أو الإسلام ضمن المناهج التعليمية لا يخلق من المدرسة مدرسة دينية . وهو يشكو من أن الحكومة لا تحرص على فتح المدارس الاسلامية على الرغم من أنه لا يدخل

---

(١) كان العديد من المسلمين يخشون من الحاق أولادهم بالمدارس المسيحية حتى لا يتم تحويلهم إلى الديانة المسيحية . وفى اوغندا ادى هذا الخوف إلى سحب الكثيرين من تلك المدارس، وقد تغير الموقف الآن وأصبحت المدارس المسيحية تضم العديد من أولاد المسلمين برغم أنهم يشكلون اقلية صغيرة فى المدارس الوسطى . ومع ذلك فانهم مازالوا غير راضين لانه لا يعوضهم عن المدارس الاسلامية .

ضمن نطاق وظائفها إنشاء المدارس المذهبية . والأفريقى نفسه غير قادر على تنظيم أقرانه المسلمين وتجميعهم لفتح ما ينادى به من المدارس ، والواقع أن المدارس الدينية البحتة التى تدار فردياً خارج نظام الدولة مقضى عليها بالفشل فى أفريقيا الحديثة إذا لم تقم بإدارتها جمعيات أو هيئات أو طوائف ، وأخيراً فإن الدول الحديثة فى شرق أفريقيا تجمع فى أيديها كل أنواع التعليم ، وعلى المسلمين ، والمسيحيين أيضا أن يروضوا أنفسهم على نظام التعليم العلمانى الحديث وهو كفيل بأن يسد كافة احتياجاتهم فى الحياة ، وبأن يفتح أمامهم الطريق للتطور ومسايرة العصر ومتطلباته .

إن أكثر المشاكل التى تواجههم صعوبة اليوم ، ليست فى مجرد فتح مدارس جديدة وإنما تكمن فى وضع اللغة العربية والاسلام فى التعليم الجديد ، وفى اتباع الطرق الحديثة فى تدريسهما ، وفى خلق الدافع للمسلمين لكى يمارسوا مهنة التعليم والتدرب عليها . والواقع أن الحكومات على علم بتلك المشاكل وهى تدركها إدراكا تاماً ، وفى سنة ١٩٥٧ تكونت لجنة لدراسة هذه المشاكل التعليمية(١).

وكان لا بد من ضم اللغة العربية والاسلام إلى مناهج المعاهد الحديثة عدا بعض النواحى التى حددتها الاكاديمية الاسلامية بزنجباز ، ويتم التدريس اليوم فى مدارس العرب على ساحل كينيا باللغة الانجليزية . وينادى كثيرون من العرب بأن اللغة العربية يجب أن تحظى بنفس مكانة اللغة الانجليزية ، ومع ذلك لا يزال موقفهم إزاءها على ما هو عليه من اعتبارها لغة مقدسة وليست

(١) R.B. Serjeant and V.L. Griffiths, Report by the Fact-finding Mission to Study Muslim Education in East Africa. Nairobi 1958. and Proceeding of the Conference on Muslim Education, held in Dar-es-Salaam in Nov. 1958 and in Nairobi 1959.

من اللغات الحية(١) . أما مسألة ما إذا كانت تدرس بالوسائل القديمة أوتدرس كلغة حية فانها لا تعنيهم وإنما الذى يعنى الجميع هو تعلم اللغة العربية كأساس لدراسة القرآن والفقه ، ويحتج بعض الشباب بطول الوقت الذى يقضونه فى دراسة اللغة العربية قائلين أن دراستها تعوق دراستهم . وفى تنجانيقا لا يظهر المسلمون الأفارقة كثيراً من الاهتمام باللغةالعربية وإنما يوجهون اهتمامهم للغة السواحيلية باعتبارها لغة إسلاميةوأفريقية فى نفس الوقت .

وهناك مشكلة عاجلة تتعلق بصعوبة الحصـــــول على المدرسين للمدارس الاسلامية ، وكذلك المدارس العلمانية ، فالمسلمون أقل إقبالا على الاشتغال بمهنة التدريس من غيرهم من الأفريقيين ولذلك أصبح من أصعب الأمور الحصول على مدرسين للغة العربية أو للديانة الاسلامية ، ويقول تقرير للطائفة الاسماعيلية عن التعليم « من المؤلم أن محاولاتنا التعليم الدينى فى مدارسنا ينقصها وجود العنصر المتفرغ لها » . فهناك نقص فى المدرسين المؤهلين لتعليم الدين ، وقد فشلت حتى الجهود التى بذلت لاستجلاب عدد منهم من الهند وباكستان ، والواقع أن تعليم الدين يجب أن يقوم به اخصائيون ، ومع ذلك فانه فى جهات قليلة مثل زنجبار نجد أن رجل الدين العادى لايصلح لتدريس الدين فى الوقت الذى يبدى فيه مدرسو المواد الأخرى استعدادهم لتلقى التدريب اللازم لقيامهم بتدريس الدين إلى جانب موادهم الأصلية .

ومن الطبيعى أن يكون تطور تعليم البنات محدوداً وبطيئاً بسبب العقبات

---

(١) صرح بعض العرب أنهم كانوا يهدفون إلى جعل زنجبار من البلاد التى تتكلم اللغة العربية الا أن مثل تلك التصريحات لا تؤخذ مأخذ الجد لأن اللغة العربية لم تتمكن فى يوم من الأيام من أن تقف فى وجه اللغة السواحلية كوسيلة للتعبير وليس من المحتمل أن تنجح فى ذلك الآن

التى تقوم فى طريقه والنابعة من المظهر الاسلامى التقليدى العام وما زالت فى حدتها وقوتها . ويوجد الآن عـــدد أكبر من المدارس الحديثة للفتيات المسلمات[1] إلا أنهم يصرون على فصل الجنسين فى سن البلوغ . ونتيجة لذلك يتوقف تعليم البنات عند المرحلة الابتدائية ، وفى كثير من الأحيان تنتقل التلميذة من المدرسة الحديثة إلى إحدى مدارس تعليم القرآن عندما يصل سنها إلى العاشرة أو الحادية عشر .

ان عليهم إحداث تغيرات أساسية وجوهرية فى حياتهم ،والطريق أمامهم طويل طويل ، ولا يمكن القول بأنهم حققوا من التقدم فى مجال التعليم شيئاً ، إلا أن يصلوا إلى نهاية الشوط ، أو قل إلا أن يبدأوا من أول الشوط ! .

٤ — مسائل اجتماعية :

فى القارة الافريقية بأسرها نزعة نحو الاصلاح لتشكيل المجتمعات طبقا للاتجاهات الاجتماعية الحديثة ، ومع ذلك لم نر أن المجتمع السواحيلى التقليدى قد تأثر بتلك الاتجاهات أو حدثت به تغيرات اجتماعية جوهرية تتمشى معها، ذلك أن المظهر الاسلامى الانعزالى فى شرق أفريقيا يزيد من صعوبة التغيير والتأقلم ، فالبناء الاجتماعى فى القرى والارياف لم يتأثر كثيراً بالحكم الاستعمارى رغم إدخال بعض التعديلات الضرورية فى المجتمع الريفى عند إدماج وحداته المختلفة فى نظام إدارى موحد وعلينا أن ننتظر لكى نرى تأثير قيام بناء سياسى علمانى حديث على التركيبات الاجتماعية التقليدية التى يعتبر المجتمع السواحيلى واحداً منها .

(١) تتولى مدارس البنات الابتدائية فى زنجبار تعليم المواد الدينية مع المناهج العادية الأخرى ويخصص للمواد الدينية حصتان فى اليوم لحفظ القرآن وحصتان فى الأسبوع للديانة وفيها يتعلمن شعائر العبادة وأسس الأيمان ويخصص صباح يوم الخميس لحفظ الموالد .

فالمسلمون يتمسكون بدينهم وقوانينهم الاجتماعية ولذلك فمن الصعب عليهم تكييف أنفسهم مع التيارات والضغوط التى تهـــدف إلى احداث تغييرات اجتماعية لأنهم لا يستطيعون الخروج عن الدائرة التى تحددها الاخلاقيات الاسلامية التقليدية التى جاءت بها الثقافة الاسلامية ، ولقد كان تأثير الغرب متفاوتاً فى قوته على السكان فى نواحى الحياة المختلفة ، فتصل قوته فى المدن إلى أقصى مداها ، بينما يبدو فى الريف ضعيفاً متهاويا ، أما الحياة الاجتماعية وخصوصاً العائلية فكانت أقل نواحى الحياة تأثراً به (١) ، وحتى أؤلئك الذين اتبعوا وسائل الحياة الحديثة يمتنعون عن القيام بأى تعديل فى حياتهم العائلية فانهم أسرى التقاليد فى حياتهم الخاصة أكثر منهم فى حياتهم العامة ، والتغيرات فى التقاليد العائلية تعكس غالبا تغييرات فى الحياة الاجتماعية ، إلا أن هذا قد يحدث فى دول مثل مصر وتونس وليس فى دولة المسلمون فيها يعتمدون على غيرهم أو يشكلون أقلية كما هو الحال فى شرق أفريقيا ، ففى مثل هذه المجتمعات تفسر أية محاولات للتدخل فى أى من المجالات التى تطبق فيها الشريعة الإسلامية ، بأنها هجوم على الإسلام أساس الحياة وعمادها .

ولقد أشرنا إلى أن الاختلاف بين العادة وبين القوانين الاسلامية يظهر فى أجلى صوره ومعانيه فى الميراث ، والتغيرات التى تحدث اليوم فى قواعد

(١) ومع ذلك فان تغيير مركز المرأة فى القرى السواحلية فى مقاطعة بانجانى يتضح من الفقرة التالية « النساء غير راضيات عن الظروف التى تحيط بالحياة الزوجية فى الوقت الحاضر فقد تحولت المرأة من تبعيتها للرجل المعروفة فى الحياة القبلية وفى الاسلام. ويدل على ذلك تزايد عضويتهن فى الأحزاب الوطنية المحلية وحضورهن الفصول الدراسية للبالغين والتدريبات التى يقدمها الصليب الأحمر ، وتزايد ترددهن على المحاكم لتأكيد حقوق ملكيتهن تبعا للقوانين الاســـلامية » .

"A Demographic Study in an Area of Low Fertility in North-East Tanganyika" D.F. Roberts and R.E.S. Tanner.

الميراث لا ترجع من قريب أو من بعيد إلى تأثير الاسلام أو إلى الضغوط التى يقوم المسلمون بها لتطبيق القوانين الاسلامية، بل ترجع إلى الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى أصبحت تفضل الفرد أكثر من تفضيلها للعائلة ، ففى هذا المجال إذن نرى أن تلك التغييرات هى فى صالح الاسلام وتؤيد متجهاته .

وعادة الزواج بأكثر من واحدة فى نفس الوقت آخذة فى الاختفاء من حياة المدينة حيث أصبحت عبئاً اقتصادياً على الرجل الحديث ، وهو فى نفس الوقت ينظر إليها على أنها عيب يجب تجنبه ، ومع ذلك فان هناك نوعاً شائعا آخر من تعدد الزوجات هو النوع « التقدمى » من الارتباطات الشاذة ويقال أنه آخذ فى التزايد بسبب كثرة المهاجرين. كذلك تغيرت النظرة إلى زواج الفتيات المبكر قبل الأوان . أما التقسيم الطبقى القائم على وراثة الوضع الاجتماعى سواء كان وضعا متميزاً أم كان وضعاً يجىء فى آخر الصف من المجتمع ، وانتساب الفرد إلى أسلافه عبيداً كانوا أم سادة عربا ، فقد سبق أن أشرنا إليه . وعادة الاهتمام بوضع الفرد الاجتماعى ما زالت على قوتها كما هى ولكن الحواجز الطبقية تعدلت أو خفت حدتها حسب مقاييس أخرى وأصبحت تقوم على أسس جديدة هى ثقافته الحديثة وثروته ومركزه الاجتماعى ثم نظرته إلى حقوق الفرد وحريته ، وهكذا فان العلاقة التقليدية بين الطبقات الاجتماعية آخذة فى التغير ، مثل علاقة الزعيم الدينى بالجماعة التى يعيش بينها ، وطبقة ملاك الأراضى بالعمال والرعاة ، وعلاقة شيخ القرية بأهلها وسكانها . ولكن هناك سؤالا تتعذر الإجابة عليه : إلى أى مدى تتمشى هذه التغيرات مع الأخلاقيات التقليدية للحياة الإسلامية ؟ . ان كل الذى يمكن قوله بعد ذلك ، هو أنه ليست هناك أية بوادر على توقع حدوث تغيرات جوهرية أو ثورية .

ولقد أدت التغيرات الاقتصادية التى طرأت على الوضع فى شرق افريقيا إلى حدوث تغيرات اجتماعية تبعاً لها ، فإلغاء الرق[1] كان له أكبر الأثر وأقواه على حالة العرب الاجتماعية والاقتصادية معاً . فبرغم أن العبيد لم يتركوا سادتهم على الفور وقت صدور القانون بإلغاء رقهم ، بل انهم تدرجوا فى ذلك فكان الأثر الاقتصادى تدريجياً وليس حاداً ، إلا أن العبودية ، ذاتها قد تركت بصماتها على طبقة السادة الســـابقين من حيث نظرتها أو موقفها تجاه الوضع الاجتماعى والعمل ، فهذه الطبقة من السادة السابقين أصحاب العبيد قد تضاءل انتعاشها الاقتصادى ، ومع ذلك فإن أفرادها يتمسكون بوضعهم الاجتماعى كعلامة على التفوق والتسامى ، كما أنهم يزدرون العمل اليدوى إذ كان العبيد يقومون به ، وهكذا اشتغل العرب بتجارة التجزئة (وقد فضلها الإسلام كمهنة شريفة) وتركوا الآسيويين يعملون فى تجارة الجملة ويستغلون هذا الميدان الأكثر ادراراً للكسب والربح ولم يقوموا بمحاولات كثيرة لتعلم طرق التجارة الحديثة فبقى التجار كما هم محافظون فى حياتهم وفى نظرتهم وفى موقفهم تجاه الثقافة والتعليم . وتغير اتجاه التجارة جميعه وتركهم من ورائه لا يلحقون به ، وولت أهمية زنجبار التجارية ، وبرغم أن القوارب العربية التجارية ما زالت تتجمع فى مينائها وتضفى عليه نفس الصورة التقليدية إلا أن عددها — بسبب التدهور التجارى — آخذ فى النقصان .

وهناك شواهد مذهلة فى بعض المدن فى تنوعاتها الدينية المختلفة ، فنرى فيها المعابد الهندوكية الفاخرة ، والمساجد ، والكنائس ، وبرغم أن ممباسا لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الإسلام على الساحل ، نرى المسيحيين فيها يكونون ٦٢٪

---

(١) كان لتنفيذ قانون إلغاء الرق فى كينيا عام ١٩٠٧ أثر يفوق الأثر الذى تركه توقف حركة تجارة العبيد .

من السكان الافريقيين فى عام ١٩٥٨[١] ، وحتى لو جمعنا المسلمين الآسيويين مع العرب المسلمين لـكان المسيحيون يشكلون ٤٣ر٥٪ من تعداد المدينة .

والواقعية الجديدة مع النزعة الفردية التى استيقظت حديثاً ، خلقتا الرغبة فى الوصول إلى طرق أخرى للتعبير عن حاجات الفرد وأمانيه من داخل أشكال جديدة من التجمعات التى تعبر عن التضامن وتختلف تماماً عما كان فى الحياة التقليدية القديمة ، ونتيجـــة لذلك رأينا تزايداً ملحوظاً فى إقامة النوادى والجمعيات سواء الطائفية أو الخيرية أو المذهبية أو القبلية أو السياسية أو المهنية أو أى خليط منها جميعاً[٢] ، وبالتالى ، وكنتيجة حتمية لـكل هذا نرى أهمية المنظمات والهيئات الدينيـة التقليدية تخفت وتتوارى مثل تجمعات الطوائف الصوفية . أما جمعية مسلمى ممباسا فهى ليست ذات طابع سياسى وإنما مهمتها العمل لصالح المسلمين ومساعدة فقرائهم من الافريقيين والعرب وإرشاد الغرباء فى بعض المسائل المتعلقة بجوازات السفر وإجراءات الهجرة ثم مساعدتهم فى الحصول على عمل مناسب.

وحدة المسلمين :

لم نتناول وجهات النظر الدينية للمسلمين الآسيويين بأى نوع من أنواع التفصيل ، لأنهم بمعتقداتهم الفلسفية الخاصة وبمجتمعهم المغلق ، لم يكن لهم

---

(١) المسيحيون : { بروتستنت ٣٦ر٧٠٩ ٤٠ر٨٪ ؛ كاثوليك ١٩ر٦٠٩ = ٥٦ر٣١٨ ٢١ر٨٪ = ٦٢ر٦٪ }

المسلمون :	٢٠ر٢٦٧	٢٢ر٦٪
الوثنيون :	١٣ر٢٦٩	١٤ر٨٪
المجمـوع :	٨٩ر٨٤٥	١٠٠٪

(٢) وتشمل المنظمات فى تنجانيقا : الجمعية الاسلامية والجمعية الأفريقية الاسلامية ، وجمعية عرب مسقط وجمعية عرب حضرموت وجماعة الأثنى عشرية ومنظمة أغا خان الأقليمية وجماعة البهرة . وجماعة السنيين .

تأثير دينى على حياة المسلمين فى شرق افريقيا كما لم يقم أى حوار ثقافى أو اجتماعى بين الطرفين ، والشعارات الإسلاميــة التى تخلق عنصراً هاماً من المشاعر المتبادلة بين الافريقيين مثل طريقة الصلاة والعبــادة والزى والأحجبة وتحريم نفس الممنوعات، وكثيرغير ذلك من هذه الشعارات، تختلف تماما عما لدى الآسيويين ، ولـكن أهمية الآسيويين تظهر فى المجالات الواسعة للعلاقات بين المسلمين وبعضهم ، فإن لهم مطالبهم الإسلامية الخاصة (كالتعليم مثلا) وعندهم رغبة ملحة فى التجاوب مع التغيرات التى تحدث فى القارة الافريقية ، ثم نفوذهم السياسى والاقتصادى الفريد ، ومشاكلهم المذهبية والعنصرية .

وللدين مكانته السامية فى حياة الشيعة ، وهم يؤمنون بأن لـكل شخص الحق فى أن يتبع طريقه الخاص بعد أن عانوا من الاضطهاد فى الماضى وأصبحوا يخشون شر التعصب العنصرى ويتجنبون الوقوع بين براثنه ، ولهم صلات وثيقة بمراكزهم الدينية فى شبه القارة الهندية التى تتكون من عدد من المجمعات الـكبرى فى المدن ، ومجمعات أصغر منها فى غيرها من المناطق ، وتقوم بتنظيم نشاطهم الاجتماعى والدينى ، وهم لا يحاولون التبشير بين الأفارقة أو تحويلهم إلى الشيعة كما أنهم لا يتزوجون من الافريقيات . ورغم انهم معتبرون من المارقين إلا أن السنيين فى شرق افريقيا يتسامحون دائماً معهم طالما أنه لا تقوم بين الاثنين منافسة مذهبية مثل تلك القائمة بين السنيين وأصحاب مذهب الأحمدية . وكراهية المسلمين الآسيويين ظاهرة واضحة وهى ليست كراهيــة دينية بل كراهة تذكيها عوامل اجتماعية مثل كونهم غرباء ليســوا أفارقة ، وانحصارهم فى داخل مجتمعهم ، ثم الغيرة من خبرتهم العلميـــــة ومقدرتهم التجارية .

والاسماعيليون يعتبرون شرق افريقيــا وطناً لهم ، ولذلك فقد حاولوا

— خدمة لمصالحهم — تقديم العون والمساعدة للمسلمين الأفارقة وتمكين المسلمين جميعهم من التجمع معاً فى جبهة موحدة فأنشأوا جمعية النهوض بمسلمى شرق افريقيا وتولوا إدارتها وتمويلها واستطاعوا عن هذا الطريق وغيره أن يجمعوا بين زعماء المسلمين معاً فى تعاون ودى فيما بينهم ، فقد كان لا بد أن يقتنعوا انهم لكى يستطيعوا مواجهة تيار القومية الافريقية القوى الجارف ، عليهم الاقتناع بأن حقوق ومصالح الجاليات الأجنبية المستوطنة فى شرق افريقيا مثلهم ، لا بد أن تتفق وتتمشى مع حقوق الافريقيين ومصالحهم ، ولا تتعارض معها .

وهناك هوة كبرى تفصل مابين الجاليات المختلفة وتبدأ من مستوى المسلم العادى ، فالآسيويون أثرياء ، والمسلمون الأفارقة فقراء ،وهم عالميون ومظهرهم الإسلامى الحديث يتعارض تماما مع المظهر الذى يتخذه الافريقيون . والزعماء الدينيون الأصليون ينظرون إليهم بعين الشك ليس فقط لأنهم مارقون ، بل لأنهم أيضاً عنصريون تسرى العنصرية فى عروقهم .

والمصالح العنصرية والمذهبية تغلب على المصالح الإسلامية نفسها ، ففى كينيا نرى أن الثورة على التعليم الإسلامى وضعت نصب عينيها المصالح العنصرية أولا وتجاهلت تماما مصالح المسلمين الأفارقة ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح هؤلاء أكثر تأخرا من الآسيويين ، ومن الأهداف التى قامت لأجلها جمعية انعاش أو النهوض بمسلمى شرق أفريقيا هو تصحيح الأوضاع وارجاع التوازن للكفتين بين الآسيويين والأفريقيين . فعملت على الجمع بين المسلمين جميعا للمشاركة فى بعض الاحتفالات الموحدة ، لكن ظلت الوحدة الإسلامية سطحية ولم تجاوز ذلك ، فالجميع يشتركون فى الاحتفالات الرسمية بالمولد النبوى والسنيون يشتركون فى صلاة العيد ، وفى غير ذلك لا يجتمعون

اللهم إلا فى المناسبات القليلة التى يجتمع فيهـا القـادة المسلمون معا فى لجـان مشتركة .

ولا يسمح للولاء للدين سواء الإسلام أو المسيحية ، والارتباط بأحدهما أن يضعف الروابط القبلية والعائلية بين قبائل البانتو الداخلية ، وهذا هو السبب فى بقاء الطقوس العائلية والمعتقدات القبلية مع الطقوس الدينية الأخرى إسلامية كانت أم مسيحية . وكثيراً ما يحدث بين المسلمين والمسيحيين تحولات فردية من هذا الدين إلى ذاك ، ورغم أن تعميد المسلم لا يتم إلا بموافقة الوالد أو الخال أو شيخ القبيلة وكبيرها ، فإن الحصول على هذه الموافقـة أمر لا تـكتنفه أية صعوبات . ففى الداخل — بعكس ماهو سائد فى محيط السواحيليين— لا نرى أن الدين عنصر من عناصر الانقسـام[1] والفرقة ، لأن الذى يحدث هو أن بعض القبائل والعائلات تسعى لـكى تفتح لنفسها طريقاً فى كل دين ، فتضع قدماً وسط المسلمين ، وبين المسيحيين تقف على قدمها الآخر !

٥ — مسائل دينية :

الإسلام هو الذى يتحكم فى حياة الناس فى الدول الإسلامية . ورغم أن التشريعات الموضوعة والقرارات التنفيذية وقانون العرف والعادة القبائلية ، كانت تحد من تطبيق الشريعة الإسلامية وتقيده فى بعض الحالات ، فلم تكن فى يوم من الأيام موضع نقاش أوجدل باعتبارها هى القانون الأمثل . وتأثيرها أكبر من مجرد تنظيم حياة الفرد العائلية والاجتماعية والدينية ، فقد كانت دائماً تعبر عن نظرة واحدة للحياة بين الجميع ، فأصبحت بذلك القوة الـكبرى التى وحدت بين الناس فى عالم يموج بالتناقض والاختلاف .

---

(١) عدا مدن تابورا التى تنتمى إلى المحيط السواحيلى أكثر من إنتمائها إلى الداخل ، وكذلك فى أجزاء من أوغندا التى تعانى من الصراع الدينى الذى ورثته من القرن الماضى .

ومن علامات العصر ، تلك الدعوة إلى تغيير هذا السند القادم من العالم الآخر ، بسند آخر علمانى يتفق مع العصر الحديث ، ولم يترك هذا التغيير مجتمعاً إسلامياً واحداً من المجتمعات التى تأثرت بمتطلبات الحياة الحديثة ، ولكن تتفاوت درجات تأثيره فى هذه المجتمعات من مجتمع إلى آخر ، ففى العالم العربى الحديث ، يتعاظم الاتجاه العلمانى والأخذ بالأساليب الجديدة ، أما فى شرق افريقيا فإن المجتمعات التى تعيش فى ظل التقاليد الإسلامية وتتمسك بها ، لم يؤثر فيها الاتجاه العلمانى تأثيراً يذكر. وتعلقهم الشديد بأحكام الشريعة المثالية التى تنظم حياتهم فى مجالاتها المختلفة ، ناتج عن الإيمان بأن هذا هو السبيل الوحيد للاحتفاظ بمظهرهم الإسلامى المتميز ، ويتضح ذلك مما ذكرنا عن استمرار الأخذ بنظام الحلقات الدراسية فى المساجد ، وهكذا فما دامت الشريعة مازالت تتحكم فى الرجل وتقيد تصرفاته فلا يتوقع تغير كبير فى مركز المرأة على سبيل المثال . ولأن الجميع يؤيدون استمرار الشريعة فى التحكم فى حياة الفرد الشخصية والاجتماعية والدينية ، فإن إيمانهم هذا بأحكامها هو الذى يتعرض لمحاولات الهدم والتقويض .

والتأثير الحقيقى للعلمانية هو فى تضييق السيطرة الدينية والحد من المجالات التى تتحكم فيها فى حياة الفرد وتقيد تصرفاته ، وهو تأثير يختلف باختلاف البقعة والطبقة والسن ، فالطابع القديم والمنوال التقليدى للحياة ، باق كما هو لم يتغير بين رجال الدين وكبار السن فى مدن قلت أهميتها مثل كيلوا كيفنجى Kilwa Kivinje ، أما الحياة فى المدن فقد تغيرت إلى حد كبير ، وبرغم أن المساجد الجديدة ما زالت آخذة فى الظهور ، إلا أن نظم الحياة الحديثة تقلل من ممارسة الإسلام والأخذ بأسباب التقوى والورع ، وتنمى روح التفكك والفرقة بين الناس .

وتزايد المظهر العلمانى وامتداده لا يؤثر بطبيعة الحال فى العقيدة الدينية أو فى قوانينها ، ويشعر المسلمون التقليديون شعوراً فطرياً بدهياً أن الإسلام هو عامل الثبات فى هذا العالم المتغير . والقليلون — ان وجدوا — هم الذين يشعرون أن الإسلام كما يراه التقليديون لن يبقى أو يدوم ، بل هو آخذ فى التوارى والاختفاء ، ذلك أن واحداً من المسلمين لم يفقد صلاته بالتقاليد الاجتماعية التى جاء الإسلام بها كما فقد الكثيرون من المجتمع الغربى صلاتهم بالتقاليد المسيحية . إلا أن هناك فعلا من هم غير راضين عن الإسلام كما يفسره « جهلة رجال الدين » ويقولون ان وصوله إليهم عن طريق اللغة العربية سبب من أسباب تأخر المسلمين ، ومع ذلك ينادى بعضهم فى الوقت نفسه بإدخال الإسلام فى المناهج الدراسية .

ولقد تخرج « المشايخ » طبقاً للنظام التقليدى ، وهم لذلك لا يرحبون بالطرق الحديثة ولا يثقون فيها ، ويسترشد أغلبهم بزعامة حضرموت الدينية الرجعية المحافظة ، وبذلك فإن إعدادهم نفسه يغلفهم بغلاف من الحصانة ضد أى اتجاه حديث فى الإسلام ، وقليلون منهم تلقوا دراستهم فى الأزهر ، ولكن طبقاً لنظامه القديم وعادوا إلى بلادهم دون أن يصيبهم تأثير تحول الحياة فى القاهرة الحديثة . وهناك مؤثرات تصل إلى نفوس الشباب وتعدل من مظهرهم ونظرتهم إلى الحياة ويتعلمونها فى المدارس الحديثة ، إلا أن الشواهد قليلة على أن رد فعل تلك المؤثرات ضد رجعية المدافعين عن النظام القديم سيؤدى إلى تحول فى تراثهم الدينى . والإسلام كما رأينا لم يبطل قيام الشعائر المحلية ولم يلغها ، والذى يضعفها اليوم ويؤدى بها إلى الزوال هو تأثير الظروف المتغيرة وليس تأثير الإسلام نفسه ، وما يضعف منها أو يتوارى هو الشعائر الجماعية

فقط وليس شعائر السحر وطقوس العلاج التى ما زال الأفراد يقبلون عليها ويطلبونها .

أما الشعائر الاسلامية الجماعية ، فإنهم يتمسكون بها ، ويركزون عليها ، كمظهر من مظاهر وجود الاسلام ورسوخ أقدامه وثباته ، وسط الأعاصير .. فى عالم جديد !!

الفهرست

المطبعة الفنية الحديثة
[illegible]



مكتبة الأنجلو المصرية

رقم الإيداع ٣٩٤٣ لسنة ١٩٧٣

